أخفيت صوتي

پرينوش صنيعي

P A R I N O U S H   S A N I E E

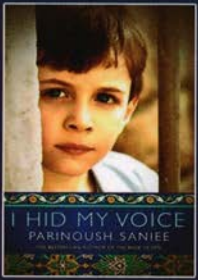

صدرت هذه الرواية باللغة الفارسية عام 2004، وأُعيد طبعها خلال السنة الأولى أربع طبعات. وقد نالت شهرة واسعة تليق بسمعة الكاتبة التي اكتسبَتها عن عمل روائي سابق. تدور أحداث الرواية في العقد الأول بعد قيام الثورة الإيرانية. ومع أنها رواية اجتماعية فإن الحسّ النقدي -الذي تناول البيروقراطية وقمع الحرّيات المرافقين لتلكم السنوات- تجلّى فيها بوضوح.

نال الفيلم المأخوذ عن الرواية -الذي أخرجه يد الله صمدي عام 2014، والذي حمل عنوان الرواية الأصلي نفسه: «والد الصبيّ الآخر»- شهرة واسعة من الجمهور والنقّاد على حدّ سواء؛ إذ استطاع الارتقاء إلى مستوى درامية الأحداث، وصُنّف على أنه من الأفلام الأُسريّة والتربوية الناجحة.

صُنِّفت هذه الرواية على أنها «رواية نفسية»، يرويها شاب في يوم بلوغه عامه العشرين مستذكرًا طفولته الأليمة التي تركَت أثرها العميق في داخله. ولا عجب في أن الرواية تُصنّف على هذا الأساس؛ فكاتبتها روائية واختصاصية علم نفس في آنٍ واحد. وهي تقول إنها عمدت توضيح الفرق بين حبّ الأب وحبّ الأم لأطفالهما، وتأثير ذلك في شخصية الطفل ونشأته.

أصبحت الكاتبة معروفة خارج بلادها بشكل واسع، خصوصًا بعد نيلها جائزة مؤسسة (Giovanni Boccaccio) العالميّة للأدب عن أحد أعمالها، وقد تُرجمت هذه الرواية إلى لغات عدّة.

يامين

9 789779 922409

kalemat
www.kalemat.com

جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات
GET IT ON Google play
Available on the App Store

أخفيتُ صوتي

ياسمين
قصص
روايات
t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

أخفيتُ صوتي

PEDAR-E AAN DIGARI

والد الصبيّ الآخر

پرينوش صنيعي
Parinoush Saniee

ترجمة: أماني لازار

دار كلمات للنشر والتوزيع
بريد إلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

Copyright © Parinoush Sanice 2016
Translation copyright © Sanam Kalantari 2016

رقم الإيداع: 4397/ 2023
الترقيم الدولي: 978-977-992-240-9

t.me/yasmeenbook

أخفيتُ صوتي

PEDAR-E AAN DIGARI

والد الصبيّ الآخر

پرينوش صنيعي

PARINOUSH SANIEE

ترجمة:

أماني لازار

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

2023

kalemat

t.me/yasmeenbook

إلى العزيزين نيلوفر وكاميار.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

1

«شهاب، هل هذا أنت؟».

«نعم».

«لقد كنتَ صغيراً جداً! من هذا الذي يعانقُك بإحكام شديد؟».

حدَّقتُ في الصُّورة. من كان؟ هل يُحتمل أن يكون هو حقاً...؟ انتابني حزنٌ مفاجئ وشعرت بثِقلٍ في لساني. نظرتُ من حولي بارتباك، باحثاً عن مخرج. كان المنزل مزدحماً. وصل نصف الضُّيوف بالفعل. أين عثرَت أُمّي على جميع هؤلاء النَّاس؟ هل أنّ للنضوج هذا القدر الكبير من الأهمية؟ كانوا يحاولون بهذه الحفلة تذكيري بأني بلغت العشرين من عمري الآن. رجل عملياً، لكني لم أشعر بتغيير كبير في قرارة نفسي. كانوا جميعاً يتحدّثون، ويضحكون، وينتقلون في أرجاء المنزل. لم أكن أعرف تماماً كيف أتصرَّف وأنا المُضيِّف. وصل عددٌ آخر من الضُّيوف وتجمَّع الآخرون من حولهم. انتهزتُ الفرصة وصعدت الدَّرج. ورغم أن الدَّرج كان قصيراً، فقد بدأتُ ألهثُ وأنا صاعد وفتحت الباب عند قمّته.

قال صوت مألوف في داخلي: «ما الذي دهاك الآن بحقِّ الجحيم؟»، كان ردّ فعلي التلقائي كالعادة: «لا أعرف...».

كان لا يزال بوسعي سماع أصواتهم في الطَّابق الأرضي. لم يكن هذا ما أتطلَّع إليه من السُّكون والهدوء. خرجتُ إلى الشرفة، وأغلقت الباب خلفي. شعرت بنسمة باردة على جبهتي الحارَّة، وأخذت نفساً عميقاً. نظرت إلى السُلّمات المحرَّمة التي تؤدي

t.me/yasmeenbook

من الشرفة إلى سطح البيت، وشعرت برجّة ألم في ظهري. كلما شاهدتها كان يحدث شيء ما في ذهني المضطرب، وأحس بهذا الألم. صعدت الدَّرجات. كم مضى من وقت منذ صعودي آخر مرّة إلى الأعلى هنا؟ يوم؟ مئة عام؟ اندفع الماضي مسرعاً وكنت أتراجع بسرعة مهلكة. شعرتُ كما لو أن حجمي يصغر أكثر فأكثر. عندما جلست وسط السَّطح، عدتُ مرّة ثانية صبياً في الرابعة أو الخامسة من عمره، أحمق ومذعوراً.

أصبحتُ شديد التَّأثر من كلمة «غبيّ»[1] منذ اليوم الذي أدركتُ فيه أني هكذا بالفعل. وكنتُ كلما نُوديت بتلك الكلمة أشعر بالغضب، أصرخ، أحطّم الأشياء، أو أهجم على أحد ما وأثير المتاعب. لكن ذلك كله تغيَّر حالما تقبّلت الحقيقة. لم أعد أغضب كلما سمعتها. بدلاً من ذلك، كنت أشعر كما لو أن شيئاً عالقاً في حلقي، أو كما لو أن أحدهم كان يمزِّق نياط قلبي. أعتمَت جميع الألوان من حولي، وتوقَّفت الشَّمس عن السُّطوع. كنت أزحف إلى ركن، أُلقي برأسي على ركبتي المثنيّتين، وأحاول أن أتضاءل قدر الإمكان. متناهياً في الصِّغر فلن يلحظني أحدٌ مرّة أخرى. لم أعُد راغباً في اللعب، وكدت أنسى كيف أضحك. لم يبعث شيء في نفسي السَّعادة. كانت تلك السَّاعات تمتد أحياناً يوماً واحداً أو يومين اثنين. هل تدرك كم هي طويلة تلك المدة

(1) حتى القرن العشرين كان الأشخاص البكم يُعتبرون أغبياء لعدم قدرتهم على الكلام، لهذا تنطوي هذه الكلمة على معنيين: من يعاني عجزاً مؤقتاً عن الكلام، ومن هو بطيء التعلم أو غبي. وبكم الرجل في اللغة العربية انقطع عن الكلام جهلاً أو تعمداً وبكم الطفل، خرس أي عجز عن الكلام (أماني).

t.me/yasmeenbook

بالنسبة إلى طفل يبلغ من العمر أربع سنوات؟ ربما تُعادل شهرين بالنسبة لإنسان بالغ. أظنُّ أنه كان أفضل عندما تفاعلتُ بعنف. كنت أوبَّخ، وأُضرب، وأبكي، لكن كان كلّ شيء ينتهي بسرعة أكبر. لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة أو ساعتين قط.

في البداية، قبل أن أعرف ما تعنيه، ظننت أن كون المرء غبيّاً أمرٌ جيد. سُررت لدى مناداتهم لي بذلك لأنهم كانوا ينطقونها جميعاً بابتهاج شديد. كان ابن عمي خسرو أول من أدرك أني غبي وهو من أطلق عليَّ اللقب. كان يقول حالما يراني: «يا له من غبّي لطيف! تعال وقف على رأسك وقدماك لأعلى وسأعطيك بعض الحلوى. أحسنت يا فتى!».

كنت أفعل كلّ ما يطلبه مني وكان يضحك، ويشجعني، ويمنحني مكافأة. أحبتني ابنة عمي الأخرى فرشته أيضاً كثيراً جداً. كانت تناديني: «يا أحمقي القزم!»، وتحضنني. أحببتُ رائحتها. كانت تُضحكها الأشياء التي أقوم بها، وتشتري لي الحلوى والمثلَّجات. أحببتُ تلك الأشياء، لكن بصدق، كان أكثر ما أحببتُه هو إسعادها. كنت أرغب بفعل أي شيء لإسعادها فقط. كانوا يضحكون كلما دعوني بالـ «أبكم»، فاستنتجتُ أنها كلمة لطيفة. لم أدرك أن الناس عندما يضحكون فهذا لا يعني بالضَّرورة أنهم سعداء. في آخر المطاف كنت غبيّاً.

بدت الأيام أزهى قبل اكتشافي هذه الحقائق المرّة. كانت السَّماء أصفى. كنت أُمضي ساعات في حديقتنا الصَّغيرة أتفحص التُّراب والأوراق والدِّيدان البُّنية التي تخرج بعد المطر. كنت أعثر كلّ دقيقة على شيء جديد. كانت شجرتُنا الوحيدة

t.me/yasmeenbook

صديقةً متعاطفة تُزهر كلما عدنا من رحلة عيد النوروز[2]. كنت أعرف أنها تفعل هذا تعبيراً عن فرحتها لرؤيتنا ثانية. كانت أزهارها تتساقط بعد بضعة أيام وتبدو مختلفة. ولاحقاً كانت تثمر حبّات كرزٍ حمراوات لذيذات. كان إنتاج الكرز يقع على عاتقها، لكن السَّبب الوحيد لأزهارِها كان الترحيب بعودتي إلى البيت بما أني أحببتها كما لم يحببها أي شخص آخر.

كنت ألعب أحياناً مع حزم ضوء الشمس الساطعة عبر ثنايا ستائر الغرفة، مستغرقاً في ذرَّات الغبار العائمة في الهواء. كانت النجوم تشعّ ليلاً بوهج غريب، لكن القمر، كان القمر شيئاً آخر. مثل طفل صعب المراس تماماً، لم يكن يتبع أية قواعد. كان واجبه إنارة سماء الليل، لكنه لم يكن يبزغ لو أنه لم يرغب بذلك. وبدلاً، قد يظهر فجأة في أوقات غير متوقعة، زاحفاً إلى قُبّة السَّماء. كنت أراه بعض الأصباح قرب الشَّمس. مبتسماً بشكل عابث، قد يصبح شاحب اللون فلا يلاحظه أحد. كان لعوباً دوماً أيضاً، يلاحقني حول البركة ويتوقف عندما أتوقف في اللحظة نفسها دون إخفاق. لم يخطُ مطلقاً خطوة إضافية عن طريق الخطأ. توصّلت إلى الاعتقاد بأن حبلاً غير مرئيّ يربطنا معاً، وأنه يتبعني فقط لأنه صديقي. كنت أتمدَّد على السَّرير في الحديقة وأنظر إليه. كان الجميع يدورون لكن القمر لم يكن يتبعهم. كان مثلي تماماً. لا يمكن لأحد أن يرغمه على فعل شيء لا يرغب بفعله. نعم، كنت القمر، فيما كان آرش هو الشَّمس، يفعل أشياءه في مواعيدها دوماً ولا يرتكب أي خطأ على الإطلاق.

---

(2) عيد رأس السنة وفقاً للتقويم الفارسي وتصادف يوم الحادي والعشرين من مارس، وهو يوم الانقلاب الربيعي.

t.me/yasmeenbook

في تلك الأيام قبل أن أُدرك أني غبيّ، كنت في ذروة الوعي. لم يحدث أن كانت روحي واعية مثلما كانت في ذلك الحين مرّة أخرى مطلقاً.

ذات يوم فظيع أدركت أني أبكم. كنت متوجِّهاً إلى منزل عمِّي الذي تفصله عن منزلنا بضعة منازل. كان خسرو يلعب مع أصدقائه في الشَّارع. لم يكن مثل آرش الذي كان يقرأ الكتب على الدوام. بدلاً من ذلك كان لعوباً وعابثاً. لطالما قال له عمي: «انظر إلى آرش! هو في صفِّك مع أنه يصغرك بسنة. هو يتفوّق كلّ عام بينما أنت ترسب ويتوجّب عليك أن تتقدّم إلى الامتحانات من جديد. سوف يُصبح طبيباً وسوف ينتهي بك الأمر إلى أن تعمل سائقاً لديه. فقط تذكَّر كلّ كلمة أقولها!».

كانت فتّانة، والدة خسرو، تتضايق كلما سمعت هذا. «كلام فارغ! يمكن لابني أن يضع عشرة من أمثاله في جيبه». كنت أنظر إلى جيب خسرو، لكنه بدا صغيراً جداً لأن يتسع لأي شخص في داخله. «بالإضافة إلى أن آرش لا يصغره بسنة كاملة، إنها مجرد بضعة أشهر. أرسلوا ابنهم إلى المدرسة باكراً بينما ابني في الصَّف نفسه الذي ينبغي أن يكون فيه. بقولك إنهما في السَّنة نفسها مع أنه أكبر سناً تجعل الأمر يبدو كما لو أنه ضيَّع سنة على نفسه!».

«اسمعي جيداً. سوف يفعل في واحدة من هذه السَّنوات!».

«أوف! إن لم يكن متفوقاً فهذا بسببك. إنهم يمدحون أطفالهم بينما أنت تحبط ابننا المسكين باستمرار».

t.me/yasmeenbook

كانت فتّانة زوجة عمّي غريبة الأطوار. كانت تقول في غياب أمّي: «تظن عنتر خانم[3] أن تحصيلها الجامعي أمرٌ عظيم. كما لو أن كلّ فاشل يذهب إلى الجامعة ينبغي عليه أن يتباهى بذلك. سوف أقول لها هذا الأمر صراحة عندما أراها في المرة القادمة. الحمد لله هذه المرة ابن معتوه، وإلا لكانت تفاخرت بأولادها دون توقف».

كانت تقول هذه الأمور أمامي، وبما أني أخرس ولا أتكلم، فقد كانت واثقة من أني لن أبلّغها لأمي. لكنها كانت تنسى كلّ ما قالته حالما تراها. وبدلاً من أن «تقول لها هذا صراحة»، كانت تتملق لها بعذب الكلام وتقول: «أنت متعلمة فيمكنك أن تفهمي الأمور أفضل مني».

كانت أُمّي ترتبك وتجيب: «هذا ليس صحيحاً!». شعرتُ بالأسف على فتّانة لأنها نسيت كلّ شيء بسرعة كبيرة. لو كان بوسعي أن أتكلم، لكنت ساعدت في تذكيرها. في ذلك اليوم المفجع، نادى عليّ خسرو حالما رآني: «مرحباً يا شهاب، أنت أيها الأبكم، تعال إلى هنا». ركضت ووقفت قربه. ركع أمامي ووضع يديه على كتفيّ وقال: «فتى صالح. أريدك أن تُري أصدقائي أي فتى أبكم ولطيف أنت، وسوف أشتري لك المثلجات بعد ذلك. ضع رأسك هنا واسند ساقيك على الجدار».

كانت الأرض قذرة ولم أحبّ القذارة. نظرت من حولي بحثاً عن مكان أفضل لأضع رأسي عليه. قال خسرو: «ماذا تنتظر؟

---

(3) صيغة استهزاء واستصغار.

t.me/yasmeenbook

اعتدت أن تكون أبكم لطيفاً. أسرع وضع رأسك هنا من أجلي».

كان عليَّ أن أفعل ما أراد. وضعت رأسي على الأرض وساقي على الجدار بسرور. بدأ الجميع بالضَّحك. ثم قال: «الآن تدحرج حتى يغطيك التراب بالكامل».

كانت أُمّي توبّخني كلما وسخت ملابسي.

«عجِّل وكن ولداً طيباً. تعالوا وشجعوه». بدؤوا جميعاً بالتَّصفيق. لم أكن أملك الخيار، أراد الجميع مني أن أفعل ذلك، لذا استلقيت على الأرض.

صفَّق الأولاد بقوَّة أكبر وقالوا: «أحسنت أيها الأبكم! تدحرج! تدحرج!».

وكنتُ كلما تدحرجت أكثر كلما ازدادوا ابتهاجاً. عرفت أن أُمّي سوف توبّخني لكن لم يكن مُهماً، كانت سعادة خسرو وأصدقائه تستحقّ ذلك.

قال فرج البدين: «هل ستفعل كلّ ما يطلبُه منك؟».

«بالطَّبع سوف يفعل. إنه فتاي الأبكم».

نظر فرج من حوله وقال: «إذن قل له أن يشرب من هذه البِركة».

أجاب فرهاد: «لن يفعل ذلك. مهما كان غبياً فلن يشرب من ذلك».

قال فرج: «لكن خسرو يقول إنه سوف يفعل أي شيء يطلبه منه».

تفاخر خسرو: «نعم! سوف يفعل كلّ ما أريده».

t.me/yasmeenbook

«أراهن أنه لن يشرب من البركة. ماذا تقول؟ هل ترغب بالمراهنة؟».

«ما هو عرضُك؟».

«مطواة الجيب خاصتي. لكن إذا لم يشرب ينبغي عليك أن تعطيني دراجتك».

«ما الذي تتحدث عنه؟ دراجة مقابل سكين! أنا لست الأبله هنا، بل هو».

«حسناً، إذن دعني آخذها لأسبوع».

«لا. فقط يوم واحد».

«ممتاز، اتفقنا».

مشى خسرو نحوي ووضع ذراعه حول كتفي ثانية وقال: «شهاب، أريدك أن تري هؤلاء الأولاد أنك فتى طيب. تعال واشرب قليلاً من هذه البركة، وسوف آخذك إلى المقهى وأشتري لك شطيرة كبيرة وبعض المثلجات في ما بعد، حسناً؟».

لا! لم أرغب بفعل ذلك. أفّ! كان الماء في البركة أسود اللون وفيه ديدان. رائحته مقززة. استدرتُ.

«اسمع يا شهاب. لا تجعلني أبدو سيئاً في حضرة أصدقائي. ألا تحبني؟ فقط رشفة واحدة».

قال فرهاد: «لن يفعل ذلك. مثلما قلت، مهما كان غبياً، لا يزال يفهم أنه لا ينبغي عليه أن يشربه».

«نعم، سيشرب. إذا طلبت منه، سيفعل. ألن تفعل؟ هيا، لا تكن جباناً، فقط رشفة واحدة».

t.me/yasmeenbook

كنت خائفاً من الديدان في الماء. سحبت يدي من قبضته وهُرعت نحو المنزل. لم أكَد أخطو خطوتين حتى أمسك بقميصي من الخلف.

«هيه، أين تظن أنك ذاهب؟ لن تذهب إلى أي مكان إلى أن تأخذ رشفة من هذه البركة».

أردت أن أصرخ وشعرت بالغثيان. دفعني على عنقي مقرباً رأسي من البركة.

«هيا يا أولاد، شجّعوه. انظروا، سيشرب الماء».

لم يصفِّق أحدٌ. كما لو أنهم كانوا على وشك أن يتقيّؤوا. دفع رأسي في الخندق. مست أرنبة أنفي الوحل نتن الرائحة. شعرتُ كما لو أني أختنق.

فجأة حدثت معجزة. فقد ارتخت يده وتمكنت من سحب رأسي. سمعت آرش يصيح: «أفلته، أيها الأحمق!»، وقعت على جانبي. لم أكن قد شربت من الماء، لكن وجهي كان ملوثاً بالوحل. تقيّأتُ هناك تماماً.

«ماذا تريد من هذا الولد، أيها الأبله! هل أنت معتوه؟ سيموت إذا شرب من هذا الماء».

«أخوك هو المعتوه! يريد أن يفعل أي شيء مقابل المثلجات. كان سيشرب هذا الماء فقط مقابل شطيرة. أليس هذا صحيحاً؟».

قال فرج: «إنه محقّ. أخوك مجنون. ينبغي عليك ألّا تسمح له بالخروج».

«اخرس. أنت مجنون».

«أنتما الاثنان مجنونان. لو لم تكن مجنوناً لما صرت تدرس كثيراً».

أمسك آرش يدي بغضب وجرَّني إلى البيت.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

2

كنت أُطعم شادي. سمعت الباب يُصفق بعنف لكني لم أنتبه إلى أن رأيت شهاب مكسواً بالوحل والطين يمسك بيد آرش. صرخت: «يا إلهي! ما الذي حلَّ بك؟ ألم أقل لك ألا توسّخ ملابسك؟».

روى لي آرش القصَّة كاملة، وكان غاضباً وعلى وشك البكاء. شعرت بأن الدَّم يتدفق إلى رأسي مع كلّ كلمة. كنت أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي. حملتُ شادي وأمسكت بيد شهاب، ودون أي انتباه لما كنتُ أرتدي، مشيت نحو منزل حسين وفتّانة. أفلتُّ يد شهاب ما أن وصلنا إلى هناك، وضغطتُ على الجرس إلى أن فتحوا الباب. وحالما انفتح جذبت يد شهاب ثانية وعبرت الحديقة، دخلت الصالة وكنت وجهاً لوجه مع فتّانة التي أقبلت نحوي بقلق.

كان حسين وشاهين وفرشته وخسرو جالسين أمام جهاز التلفزيون. وكانت توجد صينية شاي على المنضدة. هرعت فرشته قُدماً وأخذَت شادي من بين ذراعي. لم ألتفت إليها. كان كما لو أني لم أرَ أحداً سوى خسرو. كان قلبي يخفق بسرعة وصرختُ بصوت بدا غريباً لمسمعي: «ماذا تريد من هذا الطفل؟ هل هو الوحيد الذي يمكنك أن تتنمَّر عليه؟ ألا تفكر أنه قد يمرض إذا شرب من ذلك الماء؟ لماذا تُسيء معاملته كثيراً وباستمرار؟».

أجاب خسرو ببراءة: «ليس خطئي. إنه يرغب بفعل أي شيء مقابل المثلجات والحلويات. يضايقه الأولاد لأنه غبي. وأنا أحرسه فلا يضربه أحد».

t.me/yasmeenbook

«ماذا تقصد بـ (غبي)؟ ألا تشعر بالخجل من نفسك، مُطلقاً النُّعوت عليه؟ هو ليس غبيّاً على الإطلاق».

قال حسين بهدوء: «مريم لا تضايقي نفسك. لماذا أنت محتدّة؟ بعض الأطفال أقل ذكاءً من الآخرين. البعض مثل آرش موهوبون ومعدّل ذكائهم مرتفع، والآخرون مثل هذا منخفضو الذكاء بعض الشَّيء».

«هو ليس منخفض الذكاء على الإطلاق. أنتم جميعاً تُلصقون به هذه الصِّفات».

قالت فتّانة باستخفاف: «لماذا لا تريدين تقبُّل الحقيقة؟ طفل لا ينطق في مثل هذا العمر لا بدّ أن يكون متخلّفاً».

«لا علاقة لعدم قدرته على الكلام لديه بكونه متخلّفاً. يقول طبيبه إن بعض الأطفال يبدؤون بالتَّحدث في وقت متأخر. لا علاقة للأمر بذكائه».

«هراء! نحن لم نرَ قط ولداً ذكياً وفهيماً يبلغ من العمر أربع سنوات ولا يتكلم. بدأ خسرو بالكلام عندما كان لا يزال يزحف».

أجبتُ بسخط: «لا، بدأ بالكلام عندما كان لا يزال في بطنك، لكن كما يمكنك أن تري هو ليس ذكي على الإطلاق! لذا لا علاقة للكلام بكونه ذكيّاً سواء في وقت مبكّر أو متأخر».

زمَّت فتّانة شفتيها وقالت: «ماذا قلت؟ حسين، هل سمعت ما قالته عن ابني؟».

نهض حسين، ومشى نحوي، وقال محاولاً المحافظة على رباطة جأشه: «حاولي أن تضبطي نفسك. بدلاً من أن تغضبي، ينبغي عليك أن تفكري بجديَّة بفعل شيء ما من أجل هذا الطِّفل».

t.me/yasmeenbook

صار صوتي يعلو أكثر فأكثر: «إنه لا يعاني من أي مكروه. عليك أنت أن تفكِّر بجديَّة بفعل شيء ما بشأن ابنك».

قالت شاهين: «مريم، هذا ليس لطيفاً. لم يقل أخي شيئاً مسيئاً. حسبه أنه قلقٌ على ابنك ويعتقد أن عليك أن تأخذيه إلى الطبيب. جميع الأطفال في عائلتنا أذكياء. هذا النَّوع من الإصابة نادر للغاية».

«جميع الأطفال في عائلتي أذكياء أيضاً. لا تقلقي بشأن هذا الولد. إنه ليس مصاباً بأية علّة».

أخذتُ شادي من ذراعَي فرشته والتفتُّ إلى شهاب الذي كان ينظر إليَّ جفِلاً.

«في المرة القادمة عندما ينعتك أحدهم بالـ (غبي) اصفعه على فمه. هل تفهم؟».

لم أتحمَّل البقاء هناك مزيداً من الوقت، لذا التفتّ ممسكة بيد شهاب، وذهبت إلى البيت دون أن ألقي عليهم تحية الوداع.

عرفت أن ردَّ فعلي قد يبدو مستغرباً للغاية لعائلة زوجيَ الذين كانوا يرونني امرأة هادئة وخجولة على الدوام. كان للموقف برمّته على الأرجح أن ينفجر بكل أنواع التَّداعيات.

حالما وصلتُ إلى البيت خفّ غضبي وتحول إلى إحساس بالكآبة والإرهاق. كنت عاجزة عن الكلام كما لو أني قلت كلّ ما يمكن أن يقال. حمَّمت شهاب وألبستُه ثياباً نظيفة. لم يرفع عينيه عني مطلقاً. لم أتمكن من معرفة أي شيء من عينيه. كنت أعرف أن ردّ فعلي غير المعتاد قد فاجأه، لكن لم أكن على يقين من رأيه به. كان هدوئي الخارجي مناقضاً لهياجي الدَّاخلي.

t.me/yasmeenbook

اضطرم غضبي من جديد لدى عودة ناصر إلى البيت. اشتكيت له من الإهانات التي استهدفت طفلنا. وكالعادة فقد نظر إليَّ بصمت وهو يلوك بشاربيه: «ماذا تريدينني أن أفعل؟ ربما يكونون على صواب».

نظرتُ إليه لبضع ثوانٍ ثم طفرت وصرخت: «هل أنت أيضاً تظن أن هذا الطفل متخلّف؟».

«إن لم يكن متخلّفاً فلماذا لا يتكلم؟ ألم يقُل الطبيب أنه ما من علّة في سمعه أو بقية أعضائه؟ ربما يعاني من مشكلة عقلية».

«كفَّ عن التَّفوه بالهراء! لا شيء غير عاديّ في طفلي. أعرف ذلك. إنه يحدّثني بعينيه».

«أنتِ أمّ. لذا لا تريدين تقبُّل الحقيقة».

أيَّد آرش والده: «إنه محقّ يا أمي! لو لم يكن غبياً لما قام بكل ما يُطلب منه».

«إنه طفل لا يميز الصَّواب من الخطأ. أنت أخوه الأكبر. عليك أن تعتني به».

«هذا ليس من شأني. أشعر بالخجل من السير معه في الشارع. يقول الجميع أخوك أبله. لا أريد أخاً مثله».

«صه! أنت بدلاً من منع الناس من قول مثل هذه الأشياء، تُردّد ما يقولونه بنفسك؟».

«مريم، إنه مُحقّ. حاولي أن تتقبّلي الحقيقة».

«إليك عني. طفلي ليس أبلهاً. اذهبوا إلى جهنّم!».

وشرعتُ بالبكاء بصوت عال.

t.me/yasmeenbook

3

كنت جالساً في ركن أتتبّع بعناية كلّ كلمة، بينما كانت أُمّي تروي الحادثة لأبي بغضب وأسى على حدٍّ سواء. ازداد كرهي كلّ ثانية واستغربت عندما شاهدت ردّ فعل والدي. كنت آمل أن يذهب وينتقم منهم جميعاً، أن ينهي ما بدأَته أُمّي ويلقِّن عائلة عمِّي درساً. لكنه عوضاً من ذلك، وقف هناك بهدوء وقال إنهم على حقّ.

مشتعلاً بالغضب من مشاهدة دموع أُمّي ومن سماع الكلمات التي نطق بها كلّ من والدي وآرش، كان عليَّ القيام بشيء ما. لاحظت باب غرفة آرش المفتوح على نحو مثير. تسللتُ بهدوء إلى الدَّاخل. كنت أعرف أنه ليس مسموحاً لي أن ألمس أشياءه. كان هذا موضّحاً لي منذ وقت طويل. كان المصباح على منضدته مضاءً. كانت كتبه وأوراقه متناثرة في كلّ مكان، وقلمه الحبر الجديد موضوعاً قرب صحيفة كبيرة من الورق المقوَّى استغرقه العمل عليها يومين. تناولتُ قنينة الحبر الأسود المرفقة مع القلم. وصوت آرش يتردد: «أشعر بالخجل من السير معه في الشارع. يقول الجميع أخوك أبله». سكبت الحبر بحذر على الصَّحيفة وعلى كتبه وأوراقه جميعاً. هدأتُ حالما رميت القنينة الفارغة على الأرض. كما لو أن ناراً بداخلي خمدت. خرجت من الغرفة بدم بارد وصعدت الدَّرج.

هُرع والداي إلى غرفة آرش حال سماعهما صراخه. أخرجت رأسي من الباب لكي أسمعهم بشكل أفضل. كان آرش ينشج

t.me/yasmeenbook

قائلاً: «لقد خرَّب نشرتي الجداريّة. كان يفترض بي أن أسلّمها غداً. ماذا سأقول للمعلمة الآن؟ لقد بذلت جهداً كبيراً».

سأل أبي: «كيف انسكب الحبر؟».

«لم ينسكب من تلقاء ذاته. لا بدّ أن شهاب فعل ذلك».

قالت أمي: «هراء! شهاب لم يمسس شيئاً في غرفتك قط. هل تصفه بالمخرب؟ على الأرجح أن الريح قلبت القنينة».

«أمُّك على حق. لا أظن أنَّ شهاب قد يقدم على فعل مثل هذا الأمر. لم يسبق أن حدث ذلك من قبل. على الرغم من أنه لا ريح هنا والنَّوافذ مقفلة!».

كانت هذه المرة الأولى التي أخرِّب فيها شيئاً. كان طعم الانتقام سائغاً. شعرت ببعض الخوف، لكن عندما انتهى كلّ شيء استلقيت بهدوء على السَّرير الكبير الذي كان يصدر صريراً مع كلّ حركة، والذي ورثتُه مؤخراً عن آرش. لم يعُد يهمّ مدى كرهي لهذا السَّرير وتفضيلي لمهدي المريّح الذي أعطوه لشادي. أو مدى رغبتي بسرير جديد ذي جوارير تماماً مثل السَّرير الذي اشتروه لآرش. حتى أني لم أشعر بالغيرة عندما كانت شادي تسيء التصرف ليلة بعد ليلة وتذهب لتنام في سرير أمي.

تظاهرتُ بأني نائم عندما جاءت أُمّي لتذكّرني بأن أبدل ملابسي بثياب النَّوم وأُفرِّش أسناني. أطفأَت المصابيح متفاجئة وخرجَت مرّة أخرى. صارت الظلمة لا تُخيفني بعد الآن. كما لو أن تجارب ذلك اليوم جعلتني أكبر. أنا لست واثقاً لكن أظنّ أنها كانت الليلة نفسها التي اكتشفتُ فيها وجود عاصي وبابي اللذين كانا يختبئان دوماً في زاوية. وصفت لهما أحداث اليوم المريرة. قدَّما لي العزاء وأثنيا على ما فعلته.

t.me/yasmeenbook

قال عاصي: «حسناً فعلت. إنه يستحقّ ذلك».

قبَّلني بابي، وضحكنا ثلاثتنا تحت البطانية.

قال عاصي: «سوف نتعامل مع والده غداً، لقد دعانا بالمعاقين أيضاً». فكَّرنا بأمور مختلفة يمكن لنا فعلها بالأشياء التي يحبّها أكثر.

قال بابي أخيراً بشيء من الخوف والقلق: «سيارته». خلدتُ إلى النَّوم تلك الليلة في وقت متأخر وهذا لم يحدث من قبلُ قط.

استيقظتُ صباح اليوم التَّالي على صوت سيَّارة والدي. ركضت إلى النَّافذة.

قال عاصي: «مؤسفٌ جداً. لقد تأخرنا». لكن بابي كان سعيداً وأخذ نفساً عميقاً. خفق قلبي بسرعة طوال اليوم وشعرت بتوتّر كبير وأنا أتذكر خطط المساء.

سألَتني أُمّي عدَّة مرات: «ما خطبك اليوم؟ لماذا تحدِّق في الفراغ بشكل دائم؟».

دخلتُ الحديقة عندما وصل والدي. لم أستطع التخلي عن فكرة الانتقام. كانت كما لو أن حياتي معتمدة عليها. ارتعشتُ من نسمة باردة. كان المكان مظلماً في الخارج. تحت الضُّوء من نافذة غرفة نوم وجدت مقصَّ التَّشذيب الخاص بأمي. كان مقصاً كبيراً أخاف منه ولم يكن مسموحاً لي أن ألمسه. سرتُ بهدوء نحو السَّيارة وجلست. حاولت أن أغرز المقص في إحدى العجلات لكن لم أفلح.

t.me/yasmeenbook

قال عاصي: «قد تكون العجلة الأمامية أكثر ليونة». حاولت فيها أيضاً لكن لم ينجح الأمر.

قال بابي: «هذا يكفي. لنذهب».

قال عاصي: «لا! ارسم شيئاً على السَّيارة». رسمت بضعة خطوط برأس المقصّ.

غنَّى بابي: «عين وعين، حاجبان، الآن أنف، فم ودائرة من أجل الوجه، عصا، عصا، والآن الكرش...»(4). وفجأة أُضيئت مصابيح الحديقة.

بدت أُمّي متفاجئة: «هل هذا أنت يا شهاب؟ ماذا تفعل في الخارج؟ ادخل، سوف تصاب بالبرد».

داهمني ذعر شديد فما كان مني إلا أن رميت المقصّ مُحدثاً جلجلة مدوّية. ظهر وجه والدي من خلف أُمّي وصاح بغضب: «ما كان ذلك؟ ماذا تفعل ؟»، انتعل خفَّيه وهرع إلى الخارج وأمسك بيدي. كنت أنتفض. كان فمي جافاً كلحاء الشَّجر. ركضت أُمّي خلف والدي الذي كان قد تناول المقصّ وكان ينظر إلى الخطوط على سيارته. رفعت بصري نحو وجهه المكفهر. كنت أعرف أنه يحبُّ سيارته، لكن لم أكن قد أدركت إلى أية درجة. رفع يده.

رمت أُمّي بنفسها إلى الأمام وسحبتني من قبضته.

«ماذا تفعل؟ احترس! أنت تمسك بالمقص. ستؤذيه». أخذَت المقصّ منه.

«هل ترين هذا؟ هل ترين؟ استمري بالقول إنه ليس مجنوناً!».

---

(4) أهزوجة أطفال فارسية عن كيفية رسم وجه وجسم.

t.me/yasmeenbook

لم أكن قد رأيت آرش لكنه قال: «انظر! لا بدّ أنه هو الذي سكب الحبر على نشرتي ليلة أمس».

«لا بدّ أن شيئاً ما قد حدث. ما كان ليقدِم على فعل مثل هذا الأمر دونما سبب. لا بدّ أنك قلت شيئاً جرحه».

«ما الذي تتحدثين عنه؟ لقد وصلت إلى هنا لتوّي ولم أكن قد رأيته طوال اليوم».

كان آرش ينشج: «ما الذي ارتكبتُه بحقِّه البارحة ليستوجب ما فعله؟ حتى أني دخلت في مشاجرة من أجله. فلو أنه شرب من ذلك الماء الآسن لكان ميتاً الآن. وبدلاً من أن يشكرني يدمِّر مجهودي الشّاق كله».

أردت أن أضحك. كان آرش أبله. حدث ذلك قبل أن نصِل إلى البيت وقال إنه يخجل مني. لهذا سكبت الحبر. أخمِّن أنه لم يفهم الفرق بين قبل وبعد.

ظلَّ أبي يمسِّد بيده الخدوش على سيارته، وكان حنقه يزداد مع مرور الوقت. تقدَّم نحوي عندما كنت أحاول الاختباء خلف أمي، أمسك بذراعي، وقال بصوت يرتعش غضباً: «سوف أُلقِّنك درساً كي لا تقدم على فعل أشياء مثل هذه مرّة أخرى». ثم صفع بيديه الكبيرتين قفاي ومؤخرتي. كنت خائفاً للغاية حتى أني لم أشعر بأي ألم.

«توقَّف عن ضربه! إنه فوق طاقة احتماله. لا بدّ أنه كان لديه سبب».

«أي سبب؟ السَّبب الوحيد هو أنه غير سويّ. سوف أحبسه في غرفته. ليس مسموحاً له أن يتناول العشاء أيضاً. وكُفِّي عن التَّدخل. لقد أفسدتِه بما فيه الكفاية بالفعل».

t.me/yasmeenbook

جلستُ على سريري. كان عاصي وبابي صامتَين. أصغيت إلى الأصوات في الأسفل. سمعت الأربعة جميعاً. كانوا يتحدثون أولاً عن كوني أبكم، ثم قالت شادي شيئاً بصوتها الطفولي الذي أثار ضحك والدي. تناولوا العشاء معاً. تحدَّث آرش عن المدرسة. هنيئاً لهم. كانوا عائلة حقيقية. كنت منسيّاً. شعرت أني مهجور وأدركت أني لم أكن واحداً منهم.

شعرت بثقل في قلبي. قلت لعاصي: «إنّهم لا يحبّونني. أنا لست بطفلهم».

قال بابي الذي لم يتحمّل أن يحزن طويلاً: «الأمّ تحبك. إنها تشتري لك أشياء وتطعمك، وأحياناً تُقبّلك. ولو لم تكُن هناك الليلة لكان قد أماتك بذلك المقصّ».

«أعرف، لكن البقية لا يحبونني. لا سيّما أبي وآرش. لا أحبهما أيضاً. سوف أريهما، فقط انتظر وسترى».

تلك الليلة، بعد أن خلدوا جميعاً إلى النَّوم، جلبت لي أُمّي شطيرة صغيرة. جلسَت على السَّرير قربي ورنت إلي بعينين قلقتين وقالت: «ما الذي دهاك؟ إنك لم تقدِم يوماً على فعل مثل هذه الأمور».

دسست رأسي تحت الغطاء. لماذا لا تفهم أن لي الحقّ في فعل هذه الأمور؟

تغيرتُ تماماً منذ تلك الليلة. بدا وأن كلّ الضَّحكات كانت تسخر مني، وكنت أبحث دوماً عن سبل للانتقام، لا سيّما من خسرو ومن عائلة عمِّي. لكن منذ ذلك اليوم والجدال مع أمي،

t.me/yasmeenbook

فسدت علاقاتنا. بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع رنَّ جرس بابنا، وجاءت جدَّتي وفرشته لزيارتنا. أُخذت أُمّي التي كانت تسقي الحديقة على حين غرة. كانت لا تزال مستاءة، لكنها لم تتمكن، ولم تجرؤ على أن تقلّل من احترامها، لجدّتي على وجه الخصوص.

هُرع أبي قُدماً وحيّاهما ودعاهما إلى دخول المنزل. لكن جدتي قالت: «لا، من الأفضل أن نبقى هنا في الخارج. يكاد يكون الجلوس في الحديقة لطيفاً الآن». جلست على مقعد في الزاوية حيث كانت أُمّي قد فرشت بساطاً، وتركت عباءتها التشادور تنزلق على كتفيها. دخلت فرشته المنزل وحملت شادي وقبّلتها. الانتباه الذي أولته لشادي ضايقني كثيراً جداً. تحدَّثَت مع آرش ولم تلاحظني أيضاً.

صعدتُ الدَّرج بائساً ومستاءً. لم أشعر برغبة في الذَّهاب إلى غرفتي. كان الباب عند قمة الدرج الذي يقود إلى الشرفة قد تُرك مفتوحاً لأن الطقس صار دافئاً فجأة. ثم ببطء تجاوزتُ العقبات التي كانت أُمّي قد وضعتها لتمنع شادي من الصعود إلى هناك. خرجتُ ووصلتُ إلى السِّياج، تمدّدتُ على أرضية السطح فلا يستطيعون رؤيتي، ونظرت إليهم من تحت القضبان. جلبت أُمّي لهم العصير والفاكهة وبعض الأطباق. ثم جمعت الكؤوس.

قال جدتي: «تعالي اجلسي. لماذا تظلين تتنقّلين كثيراً؟ نحن لم نقصد أن نكدِّرك».

قالت أُمّي شيئاً ما وعادت إلى الدَّاخل.

قال عاصي: «انظر كم هم أغبياء. إنها لا تذهب وتأتي لخدمتهم. إنها تحاول أن تتفادى المكوث معهم فقط».

t.me/yasmeenbook

عادت أُمّي ووضعت صينية الشّاي أمام جدتي التي انتهزت هذه الفرصة لتقول: «سمعتُ أنك مستاء لأن الأولاد ضايقوا بعضهم البعض وقد امتنعتَ عن الزيارة».

قال والدي: «لا، أمي، ليس هذا هو الأمر على الإطلاق. أنا فقط شديد الانشغال ولا أملك الكثير من الوقت للزيارة. صدّقيني أنني بالكاد أرى أطفالي».

«لماذا تعمل كثيراً؟ لو كنت مقتصداً بعض الشّي ووفرت بعض النقود، لما كنت بحاجة لأن تجهد نفسك في العمل. أنا قلقة بشأنك».

«لا علاقة للأمر بكوني مقتصداً. تربية ثلاثة أطفال تكلِّف المال. وقد خسرنا دخل مريم عندما توقفت عن العمل بعد ولادة شادي».

«إن ما تكسبه المرأة ليس مهمّاً إلى تلك الدَّرجة، فهو سيُنفق على صالونات التجميل والضِّيافة ومربيات الأطفال بأية حال. أنتما أخَوان ويجب ألّا تغضبا من بعضكما البعض، حين قال حسين شيئاً، فليس عن قصد. قال فقط إن عليك أن تعرض الطفل على طبيب».

أجابت أُمّي محاولة أن تُبقي على نبرة صوتها هادئة ومهذّبة: «لقد أخذنا شهاب إلى الطبيب عدَّة مرات، وفي كل مرّة يخبرونا أنه لا يعاني من مشكلة. يتأخر الكثير من الأطفال في الكلام لعدّة أسباب».

«هل هذا صحيح؟ حسناً، ذلك الطبيب لا يفهم شيئاً. خُذيه ليراه طبيبٌ أفضل. لا يمكن لطفل طبيعي في عمره أن لا ينطق

t.me/yasmeenbook

بكلمة. ربما لو أسرعتِ في معالجة الأمر سوف يكون بوسعك فعل شيء بهذا الشأن».

«لا تشغلي نفسك. إنه لا يعاني من أي مكروه. سوف نعتني به بأنفسنا».

«حبيبتي، أنت تدفنين رأسك في الرمل. هل تقصدين القول إنه ليس معاقاً بأي شكل؟».

«لا. هو في الحقيقة ذكي للغاية».

«حقاً! لا أعرف ذلك، لكني لم أرَ مثل هذا الأمر في حياتي».

«لقد رأيتُ الكثير من الأطفال الذين فتحوا أفواههم متأخرين ولم تكن لديهم أية مشاكل».

«عزيزتي، الأشياء التي تقولينها تظهر أنكِ لا تستطيعين قبول الحقيقة. لقد سمعتُ عن وجود مدارس من أجل الأولاد البُكم. ربما إذا ذهب إلى واحدة منها باكراً فسوف يكونون قادرين على مساعدته».

ازداد صوت أُمّي قسوة: «إنه ليس معاقاً!». ثم تناولَت فناجين الشَّاي بغضب وذهبت إلى الدَّاخل. عرفتُ أنها ستذهب إلى المطبخ لتبكي.

شعرتُ في تلك اللحظة بكُره شديد تجاه جدتي، لدرجة أشعرتني أنه سوف يلازمني إلى الأبد. أردت أن أحطّم رأسها. نظرتُ من حولي لكن لم يكن هناك شيء على الشرفة.

قال عاصي: «علينا أن نتعامل معها».

قالت جدتي بنبرة ساخطة: «هل رأيتَ ذلك؟ هل رأيتَ كيف تتجاوب زوجتك مع لطفنا؟ أنت فخورٌ بزوجتك المتعلمة لكن من

t.me/yasmeenbook

يعلم من أين أصلها؟ من يشبه ذلك الطفل بأية حال؟ لو تزوجتَ ابنة عمك على الأقل لكنا عرفنا عائلتها بالكامل. لكان عمك قد ساعدك وما كنت بحاجة لأن تعمل بكدح الآن. لكن لا، كان عليك أن تحبّ! كيف وقعت في حبّ داكنة البشرة هذه بأية حال؟ لقد سحروك. كنت أعرف ذلك، لكن لا أحد يُصغي لما أقول!».

«هذا يكفي أمي. لم تكن مريم تقلّل من احترامك. لن تجِدي من هي أكثر لطفاً منها».

«ألم ترَ كيف ردَّت علي؟».

«لم تقُل أي شيء. قالت فقط إننا أخذناه إلى الطبيب ولم يجد فيه أية علّة».

«لا، إنها لا تُطيقني. تدعوني فتّانة للزيارة سبعة أيام في الأسبوع، لكني لا أجرؤ على المجيء إلى هنا ولو مرّة في الشَّهر حتى».

سمعَت أُمّي التي كانت قد وصلت مع صينية الشّاي هذه الملاحظة وقالت وهي على وشك البكاء: «أنت لا تحبّين المجيء إلى هنا. أنت مرحّب بك دوماً هنا، لكنك تفضلين الذهاب إلى منزلهم بدلاً من ذلك. في النهاية هي ابنة أخيك ولديكما الكثير لتقوله واحدتكما للأخرى».

هرعَت إلى الداخل كي لا تنفجر بالبكاء.

نظرتُ من حولي مرّة أخرى. كان عاصي غاضباً وأبي حزيناً. لاحظت حجراً كان موضوعاً ليُبقي على باب الشرفة موارباً. زحفتُ بهدوء إلى الخلف. نهضتُ وتحدّبتُ، ثم ذهبت وتناولت الحجر. كان ثقيلاً. رفعته بكلتا يدي، ووضعته قرب السِّياج ثم

t.me/yasmeenbook

استلقيتُ على الأرض. دفعتُ الحجر تحت القضبان وزلقته نحو حافَّة الشرفة. تذبذبَت قليلاً وضغطتُ عليه بيدي لأمنعه من السُّقوط.

قالت جدتي: «أخبرني إذا كنت مخطئة، لكن لو كنت قد تزوجت ابنة عمك، لما كنت ستواجه أياً من هذه المشاكل الآن. ولما كنت لتكون منفصلاً عنا، ولما كنت لتملك هذا الطفل المريض، ولما كنت بحاجة لتعمل كثيراً».

«هذا يكفي، أمي! ما كنت لأعمل مع عمِّي في البازار ولو بعد مئة سنة. ألا يمكنك أن تتخلي عن الشكوى بعد كلّ هذا الوقت؟».

«لا أستطيع. يسوؤني الأمر عندما أراك بائساً للغاية».

«أنا لست بائساً أمي! أنا سعيدٌ جداً بحياتي. كُفّي عن القلق بشأني».

«سعيدٌ مع طفل متخلّف؟ مع كلّ هذا العمل الشاق؟».

قال عاصي: «حرّك الحجر على رأسه. الآن صوب جيداً!».

هتف بابي متخوفاً: «كيف يموت النَّاس؟».

قال عاصي: «كما في الأفلام. يصابون بأذى ثم يغطون في النَّوم. على الأقل لن تتحدّث بعد الآن. الآن اسكت أنت أيضاً. لا ترتعب كثيراً. سوف تمنحك تصفية الحساب شعوراً جميلاً».

دفعتُ الحجر قُدماً بعض الشَّيء.

قال بابي: «لا تفعلها!».

قال عاصي: «ارفع يدك».

صار الحجر الآن أثقل، ولم تعُد يداي الصَّغيرتان بقادرتين على أن تتمسّكا به أكثر. انزلق من قبضتي. أغلق بابي عينيه

t.me/yasmeenbook

خوفاً. دوَّم الحجـر فـي الهـواء، متجهـاً نحـو رأس جدتـي الأسـود الأبيـض، والمصبـوغ بالحنـاء.

t.me/yasmeenbook

4

اندلعت الفوضى مع صوت الحجر المُنقضّ وصرخات جدتي. ركضتُ بسرعة وهبطتُ الدَّرج باندفاع. عندما كنت على وشك دخول الحمام واجهتُ أُمّي التي كانت تخرج مسرعة من المطبخ. لم أستطع التَّوقف. ركضت إلى الحمام، ودخلت على أطراف أصابعي، أقفلت الباب واستندت عليه. كنت ألهث مقطوع الأنفاس حتّى أني سمعت صوت قلبي وهو يدقّ. انتظرتُ حتى تتّضح الأصوات في الخارج. طلب أحدهم الماء. هرعت أُمّي إلى المطبخ وقفلت عائدة. سمعتُ وقع خطوات والدي خلفها.

سألَت أمّي: «ما الذي حدث؟».

«سقط حجر ضخم على حين غرَّة وأصاب رأسها!».

«من يمكن أن يكون قد أقدم على فعل مثل هذا الأمر؟».

«ربما كان طفلك المجنون ثانية! سوف أقتله هذه المرة. أسرعي وخذي لها بعض الماء. أين كحول التعقيم؟».

كنت أرتجف هلعاً خلف باب الحمام. قال بابي: «لقد اقترفنا عملاً غاية في السُّوء. سوف يقتلوننا عندما يكتشفون أمرنا. سوف يقتلنا والد آرش».

كان عاصي مرتجفاً وهمس: «لم نفعل هذا. لقد سقطَت من تلقاء نفسها. أليس هذا صحيحاً يا شهاب؟ لقد انزلقَت من يدك وسقطت».

لم أعرف ماذا أفعل. كنت مذعوراً. استرعت الأصوات في الخارج انتباهي ثانية. كان الجميع يركضون هنا وهناك. تعرفت

t.me/yasmeenbook

على وقع خطوات آرش وشادي. عاد والداي إلى المطبخ. قال والدي: «أضيفي المزيد من السُّكّر».

«الحمد لله أنه ليس جرحاً خطيراً، بضعة خدوش فقط على وجهها».

«بضعة خدوش؟ وجهها مخدوش بالكامل على نحو سيّئ، وكتفها مرضوضة! لقد كانت تتلوّى من شدَّة الألم».

«الحمد لله أنها لم تُصِبها على رأسها، من يعلم ما الذي كان سيحدث عندئذ».

«إذا عثرتُ على ذلك الولد فسوف أمزقه إرباً».

كان قلبي يخفق بجموح، وكان العرق البارد يسيل على ظهري.

«أي ولد؟».

«كُفي عن التَّحامق. أنت تعرفين أن الفاعل لا بدّ أن يكون ابنك المجنون».

«هذا يكفي! كُفَّ أنت عن اختلاق الأمور. كان الطفل هنا معي. أخذته إلى الحمَّام. أوه، لقد نسيت تماماً! لقد مرّ وقت طويل الآن على دخوله!».

كنت مصدوماً. وضعت يدي أمام فمي كي لا أصرخ فرحاً.

قال عاصي: «يا لها من أم كاذبة!».

أجاب أبي بنفاد صبر: «كُفّي عن الكذب. من يمكن أن يكون سواه؟».

«كيف لي أن أعرف؟ حتى أننا لا نملك أي حجر في منزلنا. أنت رأيت الشَّظايا. لا بدّ أنه كان حجراً. ربما انفصل وسقط من حافَّة الشرفة. كان الطِّفل المسكين في الحمَّام طوال هذا الوقت.

t.me/yasmeenbook

لا تستطيع أن تجد أحداً آخر كي تلقي عليه باللائمة، صحيح؟».

سمعتُ صوت عمِّي حسين. قال بابي: «من أين أتى؟ لقد وصل بسرعة إلى هنا!».

أسرع عمِّي حسين إلى المطبخ وقال: «ناصر، أين أنت؟ هل لديك أي مُسكّن للألم؟ إنها تتألم كثيراً».

«لننقلها إلى المستشفى. سوف يعطونها شيئاً إذا اقتضى الأمر».

«هل عرفتَ من كان؟ هل وجدت شهاب؟».

انتفضت أمي: «ما علاقة الأمر بشهاب؟».

«لا بد أنه هو. ما من شخص عاقل يُقدم على فعل مثل هذا الأمر».

«كُفَّ عن إلقاء اللوم على الطفل المسكين. لقد كان معي على الدوام. إنه يُلام على كلّ شيء هنا لأنه عاجز عن الكلام والدِّفاع عن نفسه!».

«كيف يمكن لحجر أن يسقط من تلقاء نفسه؟».

«الحجارة التي على حافَّة الشرفة ليست ثابتة، وبين الحين والآخر تسقط واحدة. أو ربما رماها أحدهم من منزل الجيران، أو من الشَّارع».

ضحكتُ من أعماق قلبي. فهدأ واستطعت التَّنفس ثانية. ما زلتُ أحظى بالدعم.

قال بابي: «يا لأمي من كاذبة ذكية. أحبها».

صاحت فرشته: «أسرع! إنها تتألم ألماً شديداً. علينا أن ننقلها إلى المستشفى».

t.me/yasmeenbook

«ناوليني الماء المُحلّى بالسُّكر. لنذهب».

اندفعوا جميعاً عائدين إلى الحديقة وهم يتصارخون مثل جوقة من الطيور.

هدأَت الأصوات حالما غادرَت سيارة والدي. أخذتُ نفساً عميقاً، لكن ساقيّ ما عادتا قادرتين على حملي بعد الآن. انزلقتُ على الأرض وأنا لا أزال مستنداً إلى الباب. قلت لصديقَيّ: «جميل أن يكون لديك أمّ كاذبة. هذا ما يجعلني أحبها كثيراً».

ساد الصَّمت في عموم أرجاء المنزل. استحوذ عليَّ خوفي المعتاد فجأة. ماذا لو أنهم ذهبوا جميعاً وتركوني وحيداً؟ أفزعني الخوف من البقاء وحيداً أكثر من الخوف من أن أُوبّخ أو أن أُضرب. لطالما كنت أحسب حساب اليوم الذي سيتركونني فيه ويذهبون. تنفست الصعداء عندما رأيت قبضة الباب تدار. الحمد لله لم أكن وحيداً! قالت أُمّي بصوت هادئ: «افتح الباب. لقد ذهبوا».

بدت مرهقة للغاية. بعد كلّ هذا الهياج كنت مرهقاً للغاية أنا أيضاً. لم أكن خائفاً من أُمّي أو من عقابها. فتحتُ قفل الباب بصعوبة. كانت جالسة عند الباب، شديدة الشُّحوب وانفجرت بالبكاء حالما رأتني. لم أعرف إن كان عليَّ أن أشعر بالحسرة على نفسي أم عليها. أخذَت يدي وجذبتني نحوها. وقفتُ أمامها وغضضت بصري. قالت بصوت حزين: «لماذا فعلت مثل هذا الأمر؟ كان يمكن أن تموت لو أصابت رأسها، ولكانوا اقتادوك إلى السِّجن وحبسوك في غرفة انفرادية صغيرة. عليك أن تعرف أن ما فعلته كان خطيراً جداً، لماذا لا تفهم؟».

t.me/yasmeenbook

أحببتُها كثيراً جداً. عانقتُها وبدأتُ أبكي. تمنّيت لو كان بوسعي أن أخبرها أني قد أُقدم على ارتكاب هذا الأمر الخطير ثانية لو أن أي أحد على الإطلاق تفوَّه بأشياء سيئة عنها. تمنيت لو أن بوسعي إخبارها أني أحببتُها، وأني أشعر بسعادة غامرة لأن لدي أمّ كاذبة مثلها تماماً.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

5

جميع أفراد عائلتي أذكياء ما عداي. آرش يكبرُني سنّاً بكثير. تقول أُمّي إنه كان قد دخل المدرسة لتوّه عندما وُلدتُ. إنه فتى صالح ومصدرٌ لفخر العائلة. وهو منذ أن كان رضيعاً لم يتغيّر شكله. ليس طويل القامة، لكنه نحيف، أبيض البشرة، لشعره وعينيه لون داكن. لو كان له شاربان لبدا تماماً مثل والده. إنه جادٌّ مثله تماماً، ومتحفّظ، وراض عن نفسه. يبدو على الدَّوام حزيناً بعض الشَّيء. لم يرغب في أن تربطه بي أية علاقة حتى عندما كنَّا أصغر سناً. كان مشغولاً بالقراءة أو الكتابة على الدوام. طالما تطلّع والده إليه بإعجاب. وبدلاً من ذلك، ينظر نحوي بوجه عابس دوماً. كان الأمر خارجاً عن إرادته. لقد كان يشعر بالانزعاج لرؤيتي.

شادي أختي. تصغرني بما يزيد عن السَّنتين، لكنها تثرثر منذ وقت طويل. كما لو أنها كانت تعرف كيف تتكلم منذ الولادة، على عكسي تماماً! كانت تفتح فمها وتقول ما ترغب بقوله. هذا ما أغضبني حقاً. لم تكن خائفة، لم يرتعش صوتها مطلقاً، ولم تشعر بالحرج أيضاً. كانت أمي تهدل لها بتودّد كلما تكلمت. كانت تدعوها «فرح حياتي»[5]. كانت شادي فرح حياتها، تماماً كما كنت أنا حزن حياتها. كانت تقول دوماً: «حزني عليه سوف يقتلني». رهيبة هي معرفةُ أنك موجبٌ لحزن عائلتك. أردتُ أحياناً أن أقتل

(5) شادي تعني «فرح» بالفارسية.

t.me/yasmeenbook

شادي. لكنها كانت تصرخ على الدوام قبل أن أتمكن من النيل منها، وكانت أُمّي تحضر متلهفة. مع ذلك لم أستطع يوماً أن أشتكي مهما ضايقتني كثيراً.

الأمر الجيد الوحيد حول ولادة شادي كان، أن أُمّي توقّفت عن الذَّهاب إلى العمل لبضع سنوات، وانقطعت إكرام خانم عن المجيء إلى منزلنا. كانوا قبل ولادة شادي، يتأهبون جميعاً في الصَّباح ويتركوني باكياً مع إكرام خانم. متظاهرين بأنهم سيعودون سِراعاً، لكنهم لم يدركوا كم كان الوقت يمرّ بطيئاً في ذلك الحين. كلّ يوم كنت أظن أنهم ذهبوا وتركوني مع إكرام خانم إلى الأبد. كان قلبي يزخر بالقلق حتى موعد عودتهم في المساء.

أحبَّت أُمّي إكرام خانم. قالت إنها امرأة صالحة. ربما كانت كذلك. فطالما ساعدت أمي ومسحت المنزل طوال الوقت، وحمّمتني عدَّة مرات في اليوم. كانت هذه المرأة التعيسة مهووسة بالتنظيف، مع ذلك كان الأمر بالنسبة لي أكثر تعاسة، فقد انبغى عليَّ أن ألمع مثل دمية في واجهة متجر. لم تكن تعرف أي شيء عن اللعب، كان عليّ إما أن آكل، أو أنام، أو أجلس في مهدي بسياجه المرتفع. ولو لطّخَت ملابسي بقعة وحيدة كانت تخدش خدّيها وتقول: «أوه.. خُذ روحي يا إلهي!»، وترنو إليَّ وإلى البقعة كما لو أني أكثر الأشياء إثارة للاشمئزاز. لقد بعث هذا الخوف في نفسي.

كانت تُغنّي أغاني حزينة دوماً. وكانت تتحدّث معي أحياناً عندما تكون في مزاج رائق، لكن بلُغة تفهمها هي فقط. كانت تطلق أسماء مختلفة على الأشياء التي كنت أبدأ للتوّ بتعلمها،

t.me/yasmeenbook

وهذا ما شوّشني. كانت تتكلم بنفس الطريقة مع الجارة وهي تنشر الملابس على الشُّرفة. كانت تجلب ابنتها معها أحياناً، وفي تلك الأيام كانت لغتهما الشَّيء الوحيد المنطوق في المنزل. كانتا تتوقفان حال مجيء أمي. قد تتغير الكلمات فجأة ولم أفهم لماذا شيء كان يُدعى صو[6] طوال اليوم صار يُدعى «ماء» على حين غرة.

تغيّر هذا كله مع قدوم شادي. توقَّفت أُمّي عن الذَّهاب إلى العمل. مع أنها كانت تمضي جلّ وقتها مع شادي، وكانت تساعد آرش في فروضه المدرسية حال عودته من المدرسة، مع ذلك أحببتُ وجودها معنا. توقَّفتُ عن البكاء اليوميّ. كان علمي بأنها موجودة كافياً، وبأني أستطيع أن أنظر إليها كلما أردتُ ذلك. لا يزال بوسعي أن أرى وجهها الفتيّ الجميل، بشرتها القمحيّة، وعينيها الواسعتين العسليّتين، الشَّعر الأسود الكثيف الذي كانت تربطه إلى الخلف غالباً، وأسنانها البيض، والابتسامة المبهجة التي أحببتُها أكثر من أي شيء آخر في العالم.

كان والد آرش الشَّخص الأكثر أهمية في منزلنا. كان يغادر المنزل محدثاً جلبة في الصَّباح وكنت أحاول البقاء نائماً حتى مغادرته. وسيكون الظلام قد حلّ مع وقت عودته. من المرجّح أنه كان يعمل عدة أعمال. كان يبدو متعباً على الدَّوام. فيما شارباه الأسودان متدليان أكثر مما كانا عليه في الصباح. كان يغفو أمام جهاز التلفزيون حتى وقت العشاء. ثم يتناول طعامه

(6) Su بالتركية تعني ماء.

t.me/yasmeenbook

بصمت، ويمسك بصحيفته، ويقول ليلة سعيدة. يصعد الدرج ببطء إلى غرفة نومهما التي كانت تقع مقابل غرفتي أنا وشادي التي انتقلَت الآن إلى الطابق الأرضي. ولطالما اشتكى دوماً من عدم قدرته على النَّوم.

كانت أُمّي تبدأ بالكلام حال مجيء والد آرش إلى البيت.

«ما الأخبار؟ كيف كان يومك؟».

لكنه كان يجيب بنبرة جدية: «لا شيء، كالمعتاد، عمل، عمل، عمل».

«ما الخطب؟ ألست على ما يرام؟».

«كُفّي عن استجوابي. أنا متعب وحسب».

كنتُ أشعر بأنها مُستاءة، لكنها لم تكن تنبس بأية كلمة. لا أعرف ما إذا كان كبرياء أم خجلاً ذلك الذي يجعلها تكفّ عن طرح الأسئلة.

كان آرش هو الوحيد المسموح له أن يقاطع هدوء والده وسكينته. كان يطرح عليه أسئلة عن واجباته المدرسية. وكلما كانت الأسئلة أكثر صعوبة كلما ازداد والده سعادة. ثم ينظر إلى أُمّي بفخر ويقول: «انظري كم هو ذكيّ ابني؟»، كان ينظر نحوي أحياناً ويقول: «هل تتذكرين كم كثير عدد الأناشيد التي كان بوسع آرش أن ينشدها عندما كان في هذا العمر؟».

كنت أعرف قصده. كان يشير إلى حماقتي ويعيِّر أمي. ناقشا مسألة نطقي طوال الوقت، وحاولا أحياناً إرغامي على الكلام. كان كلّ هذا الاهتمام بإعاقتي يضاعف من شعوري بالخوف. كنت أشعر بالغثيان ويأخذ قلبي بالخفقان. طالما أردت أن أهرب

t.me/yasmeenbook

وأختفي في غرفة مظلمة. كنت أذهب وأتقرفص في الزاوية، لكن الجميع كانوا يتحدثون في رأسي. كان بابي يشعر بالحزن لأنه لم يكن ذكياً مثل آرش وغير محبوب من قبل والده.

كان عاصي يقول بغضب: «ليذهب إلى الجحيم. لا يهمّ. بودّي لو أشبعت الجميع ضرباً. ما الجيد فيه بأيّة حال؟ لا أحبّ أياً منهم».

وكان بابي يقول: «لكني أحبّ أمي».

زاد كره عاصي لوالد آرش يوماً بعد يوم. وزاد ثقل لساني شيئاً فشيئاً عندما فهمت مدى بُكمي وعرفت أني لن أكون قادراً على الكلام على الإطلاق. كان عاصي وبابي الوحيدين اللذين فهماني وأحباني كما أنا. كان حضورهما نعمة. لم أكن واثقاً ما إذا كان واحدهما صبياً أم فتاة، لكن هذا لن يحدث فرقاً، كانا بالضبط كما يجب أن يكونا. استطعت التحدث واللعب معهما لساعات.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

6

مـرَّ شـهر علـى محاولـة قتـل الجـدّة، لكنهـا كانـت لا تـزال تتلـوى ألمـاً، لا سـيّما كلمـا رأت والـدي.

كانت تقول: «لا أستطيع تحريك يدي. لقد أصبحتُ عاجزة».

فيمـا لـم يصـدق عاصـي أيّـة كلمـة ممّـا تقولـه. كان يهمـس فـي أذنـي بخبـث: «إنهـا تكـذب. رأيتُهـا تتوضـأ للصـلاة بكلتـا يديهـا». لقـد كانـت مشـاعري مختلطـة إزاء مـا اقترفَتـه يـداي. لـم أنـدم بحـقّ رغـم العواقـب والخـوف الهائـل الـذي شـعرت بـه فـي مـا بعـد. كان ضميـري مرتاحـاً مثـل ضميـر قـاضٍ نزيـه يؤمـن بأنـه حكـم بالعـدل علـى جانٍ. كنـت واثقـاً مـن أن أبـي بطريقـة مـا كان يعـرف الحقيقـة، وكنـت سـعيداً نوعـاً مـا بشـأن هـذا، لكـن مـع ذلـك حاولـت أن أتـوارى عـن أنظـاره لبضعـة أيـام.

انتقلَت جدتـي إلـى منـزل العـم حسـين إلـى حيـن، وتقاسـمت أُمّـي وفتّانـة مسـؤولية العنايـة بهـا فـي مـا بينهمـا. فاسـتؤنفت العلاقـات بيـن العائلتيـن حكمـاً. ظلَّـت فتّانـة تسـأل أمـي: «مريـم، هـل عرفـتِ أخيـراً مـن أيـن أتـى الحجـر؟»، كانـت أُمّـي تجيـب بثقـة: «لا بـدّ أن أحدهـم رمـاه مـن الشَّـارع. ليـس لدينـا أي حجـر فـي منزلنـا». عشـتُ فـي سـلام وهـدوء فـي تلـك الأيـام. هدّأنـي الأخـذ بالثـأر إلـى حيـن. كذبَـت أُمّـي بالنيابـة عنـي وحاولـتُ أن أكـون ولـداً طيبـاً بالبقـاء قريبـاً منهـا بنـاء علـى طلبهـا. لكـن خسـرو كان مولعـاً بالاسـتفراد بـي، وكان كلمـا يمـرَّ بـي يقـول: «كيـف حالـك أيهـا الغبـيّ؟». أردتُ مهاجمتـه حقـاً، لكنـي تراجعـت. اكتفيـت بـأن بصقـت عليـه عـدة مـرات، وكل

t.me/yasmeenbook

مـرّة كان يهـرع إلـى أمـه صـارخـاً: «انظـري مـا الـذي فعلـه المعتوه!».

كانـت فتّانـة ترمـي أُمّـي بنظـرة هادفـة وهـي تهـزّ رأسـها، وكانـت أُمّـي تقـول: «خسـرو، إنـه خطـؤك لأنـك تزعجـه. لا بـدّ أنـك أسـأت إليـه، وطالمـا أنـه لا يسـتطيع أن يتكلـم فهـذه هـي طريقتـه فـي الدفـاع عـن نفسـه».

كانـت فتّانـة تستشـيط غضبـاً وتقـول لخسـرو: «فقـط ابـق بعيـداً عنـه حتـى يكفّـوا عـن إلقـاء اللـوم عليـك».

ذات يـوم قـررَت كلّ مـن فتّانـة وأمـي أن تُحمّمـا جدتـي. دخلـت النسـوة الحمَّـام وقالـت لـي أمـي: «اجلـس هنـا حتـى أعـود. لا تغـادر إلـى أي مـكان!».

جلسـتُ خلـف بـاب الحمـام. كانـت شـادي تتحـدث فـي غرفـة فرشـته. ضحكـت فرشـته مبتهجـة. اعتصـر قلبـي.

قـال بابـي: «شـادي تأخـذ فرشـته منَّـا بـكل ثرثرتهـا. لـم تعـد تحبّنـا ولـم تحضنّـا منـذ وقـت طويـل. هـي لا تحـبّ أن ندخـل غرفتهـا أيضـاً وتصحـب شـادي فقـط إلـى هنـاك».

كنت سئِماً وشعرت بالأسف على نفسي.

قال عاصي: «كم سيستغرق منهم هذا الحمَّام من وقت؟».

انتبهـت إلـى أن خسـرو كان ينادينـي مـن الأعلـى: «شـهاب تعـال إلـى هنـا، أريـد أن أُريـك شـيئاً».

كنـت أعـرف أن فـي جعبتـه خدعـة، لكننـي لـم أُقـاوم فضولـي. صعـدت الـدَّرج ببطء. كان منزلهـم مطابقـاً لمنزلنـا. كانـت جميـع المنـازل فـي هـذا الشَّـارع مبنيـة علـى الطـراز نفسـه، غرفـة ضيـوف، وغرفـة طعـام، وغرفتـا نـوم فـي الطابـق الأسـفل، وغرفتـا نـوم مـع

t.me/yasmeenbook

شرفة في الطابق الأعلى. كانت غرفة خسرو في فوضى كالعادة، أوراق وبطاقات مبعثرة في كلّ مكان، وكان يوجد على منضدته إناء كبير يحتوي على الغراء. بدا كما لو أنه كان يحاول صنع طائرة ورقية. دخلت الغرفة بحذر.

أغلق خسرو الباب خلفي وقال: «اجلس على السَّرير». ثم فتح درج مكتبه وأخرج سيجارة وأعواد ثقاب. قال متفاخراً كما لو أنه يعرض كنزاً: «هل تعرف ما هذه؟ إنها سيجارة. إنها جيدة جداً. سوف أُصبح مدخّناً عندما أكبر. حتى أني أعرف كيف أدخّن الآن. فقط راقبني». أشعل عوداً. حدّقت في لهبه الأصفر المزرق. وضع السِّيجارة بين شفتيه وأشعلها. ملأ دخانٌ أبيض الغرفة وبدأت تفوح في المكان رائحة تشبه رائحة عمّي. ثم خرج الدُّخان من النَّافذة المفتوحة. أغمض خسرو عينيه وقال: «إنها رائعة. خُذ، جرّب». أدرت رأسي ودفعت خسرو بعيداً. «قطٌّ جبان! لن يعرف أحد. فقط خذ نفساً. لا تقلق، لو كانت سيئة لما كنت فعلت ذلك بنفسي».

نظرتُ إلى الدُّخان المتصاعد، مذهولاً بهذا العمل السَّاحر الفذّ. وضع خسرو السِّيجارة بعناية بين شفتي وقال: «تظاهر أنك تشرب من مصّاصة واسحب بقوة». سحبت من السِّيجارة بكل قوتي. ملأ الدُّخان كياني كاملاً. شعرت بأن حرارة دماغي ترتفع وبالدخان الكثيف كريه الرائحة يسري في كامل جسدي. بدأت أسعل ولم أستطع أن أتنفس. بدأ لوني يزرقّ وصارت عيناي كما لو أنهما على وشك أن تخرجا من رأسي. كانت أحشائي تخرج مني. تقيّأت وأُغشي عليّ على الأرض.

t.me/yasmeenbook

صرخ خسرو: «اذهب إلى الجحيم أيها المتطفل القذر! انظر ماذا فعلت بغرفتي!»، وركض نازلاً الدرج. أفقتُ وتبعته مترنّحاً.

هرعت أُمّي من الحمَّام مرتعبة وهي تتصبّب عرقاً. تبعتها فتّانة أيضاً. قال خسرو باشمئزاز: «تقيأ الأبله في غرفتي مفسداً كلّ حاجياتي».

زمَّت فتّانة شفتيها تقزُّزاً وقالت: «أنت تعرف أن هذا الولد ليس طبيعياً ولا يمكن أن يسيطر على نفسه. لماذا تأخذه إلى غرفتك؟».

قالت أمي: «هو لم يتقيأ يوماً دونما سبب. لا بدّ أنه مريض». توجّهت نحو المكان الذي كنت واقفاً فيه إلى جانب الدَّرج، مترنحاً وشاحباً. تلمسَت جبهتي وسألتني: «ما الذي أصابك يا حبيبي؟»، كانت تحبّ أن تتحدث معي أمام الآخرين، كما لو أني سأُجيبها.

أخرجت فتّانة جدَّتي من الحمَّام وساعدتها على الجلوس. كانت ملابسها رطبة ومجعدة مثل ملابس أمي.

قال عاصي: «لم يُصب الحجر ساقيها. لماذا تعرج بتلك الطريقة؟ يا لها من مكروهة!».

ذهبت فتّانة إلى المطبخ وعادت بمكنسة وبعض الخرق ودلو ماء. كانت شفتاها لا تزالان مزمومتين تقزّزاً. قالت أمّي: «أعطني إياها. سوف أنظفها بنفسي». ناولتها فتّانة لها كما لو أنها كانت تنتظر هذه الكلمات. تمسّكتُ بتنورة أُمّي ورافقتُها إلى الأعلى. لم أستطع تحمُّل نظرات جدتي والآخرين المؤنِّبة ثانية إضافية واحدة. أغلقَت أُميّ الباب وبدأَت تنظّف البساط. كانت متجهّمة وبدت حزينة ومرهقة.

t.me/yasmeenbook

قال بابي: «انظر كيف جعلناها تبكي ثانية».

شعرتُ أنني راغبٌ في أن أدقّ عنق خسرو. نظرتُ من حولي ولاحظتُ إناء الغراء على مكتبه. كانت هناك فرشاة في داخله. أخذتُها وفركت بها سطح مكتبه كاملاً وكلّ ما عليه. كانت أُمّي حزينة جداً ومنهمكة بالعمل فلم تلاحظني. وحين رفعت رأسها وقفتُ أمام إناء الغراء خائفاً. واكتفت بالقول دون أن تلقي بالاً: «لماذا تقف هناك؟ اذهب واجلس». أخفضَت رأسها ثانية. أمسكتُ الإناء وأخفيتُه خلفي وتراجعتُ وذهبتُ وجلستُ على السَّرير. رفعتُ الأغطية وسكبت الغراء على السَّرير كله. ثم أخذت الملابس التي كانت مبعثرة على السَّرير ودسستها تحت الأغطية. كانت أُمّي قد أنهت التنظيف وقالت: «تعال لنذهب. لقد انتهينا اليوم». وبكل براءة أمسكتُ بطرف تنورتها ونزلنا الدَّرج.

عُدنا إلى البيت باكراً ذلك اليوم. ذهبَت أُمّي من فورها لتستحمّ، وهرعتُ إلى غرفتي. أغلقتُ الباب على شادي التي كانت تتبعني. شبكت يديّ بيدي عاصي وبابي وصرنا ندور حول الغرفة حتى أصابنا الدُّوار. شعرت بالعظمة.

في اليوم التالي أخبرَت فتّانة أُمّي عن الغراء، السَّرير القذر، وعن جميع الملابس التي توجب عليهم التخلص منها. سألَت أُمّي ببساطة: «لماذا وضع خسرو علبة الغراء في سريره؟». كان الجميع في ما يبدو ينتظر هذا السُّؤال وبدأوا جميعهم يتحدّثون في الحال، لكن صوت فتّانة كان أعلى من أي صوت آخر: «هذا هو بالضَّبط. يقول إنه لم يفعل ذلك. يجب علينا أن نعرف من كان في غرفة خسرو ذلك اليوم».

t.me/yasmeenbook

احتدَّت أمي: «ماذا تقصدين؟ دخلتُ غرفته لأنظّف. هل تقصدين القول أني...؟».

«لا، لستِ أنت، لكن ربما كان الأطفال هناك معك وفعلوا ذلك دون أن تنتبهي».

«هل تقصدين شهاب؟ مستحيل. كنت أراقبه طوال الوقت. لم أتركه بمفرده ولو للحظة واحدة. لم يكن هو. أنا واثقة من ذلك».

التفتَت ونظرَت نحوي وبدأت تحديقتها تتذبذب بالشَّك. هزَّت رأسها كما لو أنها تنفض الأفكار السَّيئة التي تسلّلت إليه.

t.me/yasmeenbook

7

في تلك الأيام لم أتمكَّن من فهم شهاب على الإطلاق. تحوَّل ابني الهادئ إلى صبي معقَّد فجأة، متقلِّب المزاج ويأتي على فعل أمور غريبة.

تساءلتُ في ما إذا كان عليَّ معاقبته، أو إذا كان معاقباً حقاً، وإذا ما كنَّا قد فشلنا في تربيته. كنتُ قد ضحيت بحياتي كاملة من أجل عائلتي. عملت ليل نهار في ذلك المنزل مثل خادمة تماماً. إذن ما الذي كان يفتقده؟ لماذا لم يكن آرش وشادي على نفس الشَّاكلة؟ كان آرش طالباً مجداً، مهذَّباً، دوماً الأول على صفِّه. لم يتسبب يوماً بمشكلة أكثر ممّا هو معتاد بالنسبة لأي طفل. وكانت شادي حلوة كالعسل، وذكية، وثرثارة. الحمد لله، وإلا لكنت فقدت عقلي من حياتي الرتيبة وحزني على شهاب.

لم يعُد بوسعي تحمل ناصر بعد الآن. فكّرت أحياناً أنه لم يستطع تحمّلنا أيضاً. كنت أحاول أن أستذكر المشاعر التي قادت إلى زواجنا، الوقت مفعم بالأحلام الحمقاء، عندما ظننا أننا نستطيع أن نغزو العالم بحصولنا على شهادة البكالوريوس في الكيمياء فقط. الأيام التي كان يمتزج فيها التوتّر الذي يسبق امتحان ما بقلق الحب، عندما كنت أغادر مسكني في الصباح غير واثقة من السَّبب الذي يثير هذا المغص في معدتي. أين ذهبت تلك المشاعر؟ بدت تلك الأيام بعيدة جداً. كنت أتحرَّى أعماق قلبي، كما لو أني أبحث عن قطعة قديمة من الملابس في خزانة مهجورة. كنت أجدها أخيراً متفاجئة، إذ بالكاد يمكن التَّعرف عليها بعد الآن، باهتة، وقد علاها الغبار.

t.me/yasmeenbook

لم أرغب حتى بأن ألمسها ثانية. هل هذا كلّ ما توقعته من الحياة، أنا، ابنة أحمد علي خان الوحيدة، بكل كبريائي؟ الفتاة التي أرادت أن تثبت أنها لا تقلّ شأناً عن أي فتى؟ أنا التي كرهتُ حياة أُمّي لأني شهدتُ حياتها وهي تخدم زوجها وخمسة أبناء مشاكسين طوال اليوم؟ كنت قد درست أكثر من إخوتي، وعملت بجدّ أكبر ممّا عمل أي شخص آخر في المكتب، أحاول نيل استحسان الجميع. متى توجَّب عليَّ أن أصبح زوجة عادية؟ هذه لم تكن الحياة التي رسمتُها لنفسي. لماذا خسرتُ أحلامي وآمالي كلها؟ من أجل من؟ هل يستحق هذا الحبّ الباهت مثل هذه التَّضحية؟ شعرت أحياناً بأن أميالاً تفصلني عن ناصر. لم يعُد يلاحظني وكان متعباً أو حزيناً على الدَّوام. مع ازدياد سوء مشاكل شهاب، بدا كما لو أن علاقتنا ازدادت برودة، كما لو أني كنت مسؤولة عن عجزه عن الكلام.

t.me/yasmeenbook

8

كنتُ قد تعلَّمت كيف أثأر من أولئك الذين أطلقوا علي لقبي الغبي والمتخلّف. كان الثَّأر يهدئ من روعي فأعود لألعب مع عاصي وبابي مرّة أخرى. كنَّا ندور نحن الثلاثة حول الغرفة ونضحك. لقد عُوقبتُ لكن هذا لم يكن مهمّاً. منذ أن قدم لي والد آرش مخبأً وحبسني في غرفتي ليوم كامل وليلة لأني أتلفتُ بدلته بالمقصّ، لم يعُد يخيفني أي شيء. لم يكن للأمر أن يسوء أكثر من ذلك. رغبت في أن أكون قادراً على إطلاق الشتائم. فعل جميع الأولاد الآخرين ذلك، وأردت أن أردّد تلك الكلمات السِّحرية أيضاً! في ذلك الحين لم أفهم سبب رغبتي الشَّديدة بقول الشَّتائم، لكني شعرت أنها طريقة عظيمة لتصفية الحسابات. لم تكن بحاجة إلى أن تكون شديد البأس، أو كبيراً، أو قوياً لاستخدام اللغة البذيئة، كنت بحاجة لأن تعرف كيف تتكلم فقط، أن تفتح فمك وتتفوّه بشيء لتغضب الشَّخص الآخر. يمكن للكلمات أن تكون قوية. إذا استخدمت الكلمة المناسبة في الوقت المناسب يمكنك أن تثير حنق الناس دون أن تكسر أو تدمِّر شيئاً. كما لو أن تلك الكلمات قد ابتُكرت من أجل الصِّغار والضُّعفاء من أمثالي.

كان بوسعي تمييز الكلمات المُهينة. كنت أصغي إليها بعناية وأحفظها. أحياناً كنت أعرف معناها، على سبيل المثال «ابن الكلب»[7]. مرّة عندما كان والد آرش غاضباً منه قال لأمي: «قولي لابن الكلب ذاك إني سئمت من سلوكه السيِّئ».

---

(7) «پدر سگ» تعني حرفياً أبوك كلب.

t.me/yasmeenbook

كانت حقيقة غضبه من آرش غريبة في حدٍّ ذاتها، لكن استعماله للشتيمة كان أكثر غرابة. ذهبنا إلى غرفنا. قال عاصي: «تفوّه والد آرش بشتيمة!».

قال بابي: «نعم، لقد قال إن والده كلب!».

قلت: «ذلك يعني أنه هو نفسه كلب!».

ضحكنا كثيراً ذلك اليوم. طفنا حول الغرفة نغني: «ابن الكلب، ابن الكلب...».

لكن كانت هناك بعض الكلمات التي لم أفهمها على الإطلاق، ولم أتمكن من معرفة السَّبب خلف غضب الناس لدى سماعها. ذات يوم قال أحد الأولاد لخسرو: «ابن القهوة»[8]، ونشب بينهما شجار وتبادلا الضَّرب. حاولت أن أعرف معنى هذا ولماذا كان أمراً سيئاً أن تكون أم أحدهم قهوة.

قال بابي: «القهوائي لون. ربما ترتدي أمه البُنّي دوماً».

قال عاصي: «وماذا في هذا؟ ما المشكلة في ذلك؟ كثير من النساء يرتدين البُنّي».

«ربما هو يكره ذلك اللون».

قلت: «أكرهه أيضاً. أريد أن ترتدي أُمّي اللون الزهري طوال الوقت، لكن ما كنت سأغضب كلّ هذا الغضب لو أنها ارتدت شيئاً بُنّياً». بقينا مشوشين إلى حين ثم قال عاصي: «ربما هو يقصد القهوة».

(8) في الفارسية، يبدو قول «تو مادر قهوه اي»، مشابهاً لقول «ابن القحبة».

t.me/yasmeenbook

كانت فتّانة تأتي أحياناً إلى منزلنا لتثرثر عن الجدَّة وعمِّي. كانت أُمّي تُحضِّر القهوة فتشربان الكمية كلها، ولا يقدّمن لنا شيئاً منها قط. قالت إنها لا تصلح للأولاد. ثم قد تنظران في فنجانيهما الفارغين وتنطقان بالكلام الفارغ. ذات مرّة قالت فتّانة لأمي: «خلال أسبوعين أو شهرين من الآن، سيجعلك شيء ما سعيدة للغاية».

انفعلت أُمّي كثيراً: «هل أنت واثقة؟ ربما سوف يبدأ شهاب بالكلام!».

لا أعرف لماذا ينتهي كلّ شيء دوماً ليكون حول مسألة نطقي. زمَّت فتّانة شفتيها وقالت: «لا أظنّ ذلك. يبدو أنه عن المال. ربما سوف تحصلين على بعض النقود». بدت أُمّي حزينة مرّة أخرى.

قال عاصي: «القهوة شيء سيّئ. تنظران إلى فنجانيهما وتتحدثان بالهراء. على الأمهات الامتناع عن شرب القهوة. لماذا لم يشرب والد آرش شيئاً؟ أو العم؟ هذا أمر سيّئ تقوم به الأمهات ولهذا السَّبب لا يسمحن لنا أن نشرب منها مطلقاً».

قال بابي: «يجب أن نفعل شيئاً كي تكفّ أُمّي عن شرب القهوة».

بعد بضعة أيام كنَّا نلعب في غرفتي عندما شممنا رائحة القهوة. اختلسنا النَّظر من الدَّرج ورأينا فتّانة وأمي جالستين في الصالة تشربان القهوة. عندئذ تماماً دخل خسرو. انقبض قلبي.

قال عاصي: «ماذا سيفعل إذا رآهما تشربان القهوة؟».

هرعتُ نازلاً على الدَّرج ووصلت إلى الطاولة. ومثل شخص بالغ عازم يوبّخ طفلاً صغيراً، رميت كلّ شيء عن الطاولة.

t.me/yasmeenbook

تحطمت الفناجين وانسكبَت بعض القهوة على فتّانة. صرخَت وقالَت: «ما خطبُك؟».

اكتفت أُمّي بالنظر إليَّ باضطراب ثم قالت بغضب: «ما الذي حلَّ بك؟ لماذا فعلت هذا؟ هل أنت مجنون؟».

تكلّفت فتّانة الابتسام: «هل هو مجنون؟ بالطبع هو كذلك! ما من طفل طبيعي يمكن أن يقدم على فعل مثل هذا الأمر».

نظرتُ إلى خسرو منتظراً منه أن ينهرهما، لكنه كان يمسك بطنه ويضحك بشدَّة. قال أخيراً: «أقول لكم طوال الوقت إنه مجنون وأنتم لا تكفون عن إنكار ذلك!».

كنت مضطرباً للغاية. لماذا لم ينزعج؟ ألم يضرب ذلك الولد الذي قال إن أمه تشرب القهوة؟

ضربتني أُمّي على قفا رقبتي وشدَّت أذني وجرتني إلى الأعلى وحبستني في غرفتي. قالت إنه ليس مسموحاً لي الخروج حتى هبوط الليل. كنت مشوّشاً للغاية حتى أني لم أغضب. أردت أن أكون بمفردي بأية حال.

قال عاصي بعد أن غادر الجميع: «إذن لم يكن هناك سوء في القهوة».

قال بابي: «لماذا إذن هي شتيمة؟».

قلتُ: «من يعلم».

قال عاصي: «لقد فهمت! أياً كان ما تنادي به أم أحدهم فهو أمر سيّئ. القهوة ليست سيّئة، لكن إذا قلت (أمُّك قهوة)، إذن فهي سيئة».

«إذن لو نقول (أمُّك شاي)، هل هذا سيّئ أيضاً؟».

t.me/yasmeenbook

«لابد أن يكون سيئاً للغاية لأن الشَّاي لا يمكن أن يكون أُماً لأحد!».

«هذا مضحك. الكبار مغفّلون! إنهم يبتكرون مثل هذا الأمور السَّخيفة». ضحكنا ثلاثتنا واستغرقنا في الضحك.

راح عاصي يستخدم كلّ شيء في الغرفة لتأليف كلمة فظّة ووجدنا ذلك مسلياً أكثر.

«أمّك كرسي، أمّك مكتب...».

قال بابي: «لا، يجب أن يكون شيئاً يمكن أكله أو شربه. أمّك رزّ محمَّص. أمّك يخنة».

وجدنا الأمر ممتعاً للغاية فلم نلاحظ دخول أُمّي للغرفة. نظرَت نحوي بقلق: «ما المشكلة؟ لماذا تضحك بتلك الطريقة؟ هل جُننت؟».

استطعت أن أرى رأس فتّانة خلفها. حاولت ألّا أجد الأمر مضحكاً. وضعتُ يدي أمام فمي ولزمت الصَّمت. لكن عاصي همس بخبث في أذني: «أمّك باذنجانة». لم أستطع منع نفسي وانفجرتُ بالضَّحك.

بدت أُمّي قلقة للغاية: «توقف عن الضَّحك بتلك الطريقة، أنت تخيفني. فتّانة ما الذي يحدث؟ لم يكن علي أن أضربه بقسوة. لم يكن علي أن أحبسه. ربما أثر هذا عليه».

ظلت أُمّي تراقبني طوال اليوم وكان عليَّ أن أحترس فلا أضحك في حضورها.

قال عاصي: «هؤلاء الكبار حمقى بحقّ. لماذا هي خائفة من طفل يضحك؟».

t.me/yasmeenbook

تلك الليلة عندما جاء والد آرش إلى البيت وروت له أُمّي القصَّة كاملة. حكت له عما فعلتُه، وأني وُبّخت وحُبست بعد ذلك، وكيف ضحكتُ بدلاً من البكاء والحزن. هزَّ والد آرش رأسه وقال: «علينا أن نجد إخصائياً. يزداد الأمر جدية كلّ يوم. هذه إشارة سيئة».

اغرورقت عينا أُمّي بالدموع وقالت: «حقاً؟ هل تظن أنه يعاني من مشكلة عقليّة؟».

«هل يمكن أن يكون شيئاً آخر؟».

«ربما أمر ما جعله سعيداً. أتمنى لو أنه يستطيع أن يخبرنا عمّا يدور في رأسه».

قال بابي: «إنها شديدة الحماقة. لو نستطيع أن نتحدث لكنا سألنا ماذا تعني (ابن القهوة) ولما كنا حطمنا الأطباق سدىً».

استسلمتُ أخيراً وقررت ألّا أبحث عن معنى كلمات الشّتائم. في النهاية، أنا غبيّ ولا يسعني فهم هذه الأمور. علاوة على ذلك، لم أكن بحاجة حقاً لأعرف معاني مثل هذه الكلمات، كان عليَّ فقط أن أعرف فيما إذا كانت تعني شيئاً فظّاً للغاية. وتمكنتُ من معرفة هذا من درجة الغضب الذي أحدثتُه. على سبيل المثال، بعد بضعة أسابيع عندما كنت مع أُمّي عند الجزّار، كان شخصٌ ما يصفُ بغضب شيئاً للسيد صادق. قال الرجل: «لو يمكنني فقط أن أمسك بذلك الدَّيوث!». عرفت أن هذه لا بدّ وأن تكون شتيمة. نظرت إلى أُمّي التي احمرّت خجلاً ونوت على مغادرة الدكّان.

قال السَّيد صادق: «انتبه لما تتفوه به، توجد سيدة وطفلها

t.me/yasmeenbook

هنـا». واعتـذر مـن أمـي. أدركـت أن هـذه كانـت الفعـل كلمـة فظّـة حقـاً. ردّدتهـا فـي رأسـي طـوال طريـق العـودة إلـم البيـت، كثيـرٌ مـن القـوة فـي هـذه الكلمـة الصَّغيـرة! بـدت جميلـة أيضـاً. بـدت صغيـرة ومـدورة، وقفـزت مـن فمـك مثـل بليـة.

قال بابي: «ماذا تعني؟».

«لا تعنـي شـيئاً. إنهـا فقـط سـيئة للغايـة، تشبه نوعـاً مـا (الأم القهوائيـة). ليس علـى النسـاء سـماعها. ألـم تعـرـ؟ كلمـات الشّـتائم التـي عـن الحيوانـات ليسـت بذلـك السُّـوء، لكـم الكلمـات التـي لا تعنـي شـيئاً سـيئة للغايـة. لـو تلفـظ أي مـن هـذه الكلمـات سـوف تخـرج جميـع النسـاء مـن الغرفـة وسـوف يغضب الرجـال غضبـاً شـديداً ويبـدؤون بالشـجار».

ذلـك اليـوم عاصـي، بابـي، وأنـا درنـا حـو الغرفـة لسـاعات ورددنـا هـذه الكلمـة التـي بـدت مثـل كُريّـة زجاجيـة بلونـي الزهـري والأزرق.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

9

في ذلك الصيف، حدثت معجزة أخرجتني من دائرة الضوء العامة التي كانت تدفعني إلى الجنون. لقد طغى العثور على زوج للعمة شاهين وخطط زفافها المتسرعة على كل شيء. كان الجميع سعداء وكانوا يثرثرون عن الزواج. كانت أمي وفتّانة وجدتي وعمتي شاهين يجلسن لساعات ويتحدثن عن فستان الزفاف والعشاء الاستعدادي وشتّى أنواع الأمور الأخرى. كانت فتّانة خياطة ماهرة، وكانت أُمّي تجيد التطريز بالخرز. عملتا هما الاثنتان على فستان الزفاف وكانت الغرفة التي عملتا فيها مليئة بقماش الساتان الأبيض والدانتيل، أقمشة رقيقة ملساء حوّلتها أصابع أُمّي وفتّانة السَّاحرة إلى فساتين رائعة كنت أراها فقط في الرسوم المتحركة والكتب المصوَّرة. أحببتُ بياض هذه الأقمشة الناصع وجمالها وتحرّقت حسداً عندما أدركت أنهم خاطوا فستان زفاف صغيراً لشادي أيضاً.

قال بابي: «هنيئاً لها. يحبّها الجميع لأنها تستطيع أن تتكلم، لكن لا أحد يحبنا».

كنّا نذهب إلى منزل عمي يومياً للعمل على الفستان. قبل يومين من موعد الزفاف لم أشعر أني على ما يرام.

قالت أمي: «لقد أُصيب بنزلة برد». ووضعت يدها الباردة على جبهتي. «حرارته مرتفعة، لا أستطيع تركه في البيت وحيداً. يحتاج إلى الراحة».

أجاب أبي العصبيّ كالعادة: «اليوم من بين كلّ الأيام! إنه يوم حفلة الحنَّة وهم بحاجة إليك هناك! قالت أُمّي إن الفستان ليس

t.me/yasmeenbook

جاهـزاً أيضـاً. إنهـا قلقـة مـن أنـه لـن ينتهـي خـلال يوميـن فقـط. إن لـم تذهبـي اليـوم فسـوف يقضّـون عليـك مضجعـك طـوال عمـرك».

«أعـرف. سـوف أذهـب. فقـط أتمنـى أن يبقـى آرش فـي البيـت اليـوم فأسـتطيع أن أتـرك شـهاب وأدعـه يرتـاح».

«ذلـك مسـتحيل! لا يمكـن لآرش أن يتغَّيـب عـن المدرسـة مـن أجلـه. إنـه ليـس مربّيـة لابنـك. قلتِ إن فرشـته سـتعتني بشـادي، إذن لـن تكـون هنـاك مشـكلة. خـذي معـك هـذا ودعيـه ينـام فـي زاويـة فـي مـكان مـا».

لطالمـا دعانـي بـ «هـذا»، كمـا لـو أنـي لا أمتلـك اسـماً. ولشـدّما كرهـتُ طريقتـه تلـك فـي الـكلام.

مددتنـي أُمّـي علـى أريكـة فـي الصالـة، وانطلقَـت تعمـل بنشـاط ونسـيَت أمـري تمامـاً. مـرّت السَّـاعات ببـطء. كنـت أشـعر بالسـأم. جلسـتُ أمـام التلفزيـون إلـى حيـن، ونمـت واسـتيقظت وكان أخيـراً وقـت الغـداء. تجمعـوا بعـد الغـداء جميعـاً فـي المطبـخ لغسـل الأطبـاق. أردت أن أبقـى قـرب أمـي، لكنهـا أرسـلتني إلـى خـارج المطبـخ وقالـت: «اذهـب، ابتعـد مـن الطريـق حبيبـي. اذهـب واسـتلقِ، وسـوف أوافيـك هنـاك».

شـعرتُ بالتَّعـب. كنـت أعـرف أنهـا سـتعود إلـى الغرفـة حيـث كـنَّ يخِطـن الفسـتان. فتحـتُ البـاب. كان الفسـتان موضوعـاً علـى الأرض. جلسـت قربـه وأمسـكت بأحـد أطرافـه. ضغطـت وجهـي علـى القمـاش. بـدا ناعمـاً وبـارداً، تمامـاً مثـل غطائـيّ المخملـي فـي البيـت الـذي لا أنـام بدونـه. كانـت تنـورة الفسـتان واسـعة جـداً حتـى أنـه كان بوسـعي أن أبسـط جسـدي كامـلاً فوقهـا. جلسـت فـي وسـط التنـورة ولففـت بقيـة القمـاش حـول سـاقي. سـرت بـرودة لطيفـة فـي جسـدي.

t.me/yasmeenbook

أصبحَت عيناي المحمومتان ثقيلتين. ألقيتُ برأسي بين طيّات الفستان ونمتُ نوماً عميقاً. استيقظتُ في رعب على صراخ عمتي شاهين. كانت جميع النسوة واقفات فوقي، ينظرن نحوي بعيون غاضبة حاقدة. بدأتُ أرتجف. كان بوسع أي واحدة منهن أن تخنقني في تلك اللحظة. بعد بضع ثوانٍ تحوّلت نظراتهن الباردة المريرة نحو أُمّي التي كانت واقفة بالباب. شعرتُ بارتجافها أيضاً.

قالت جدَّتي بصوتها الأجش: «انظري ما الذي فعله! الفستان كلّه ملطّخ ومجعّد. انظري إلى طبعات قدميه!»، وانخرطت عمتي بالبكاء.

قالت فتّانة: «كنت أعرف أنه سيفعل شيئاً من هذا القبيل».

اكتفت أُمّي بالنظر بارتباك. شحب وجهها. تقدَّمت، تناولت الفستان وتفحّصَته.

«سوف أُصلحه بنفسي. سوف يكون جيداً كما لو أنه جديد. أعدكنّ».

«لا حاجة إلى ذلك! أخشى أنك ستزيدينه سوءاً. سوف نُصلحه بأنفسنا».

«ليس لديكن وقت. ألا ترغبن بالذهاب إلى مُصفِّفة الشَّعر؟ ولديكن الكثير من الضُّيوف الليلة. سآخذه إلى البيت، أُنهيه وأُعيده بحالة جيدة كما لو أنه جديد. لا تقلقن. سوف أزيل البقع ببعض الرغوة وسأقوم بكيّه. لا تتضايقن».

كانت شادي غافية في غرفة فرشته، لذا عدت أنا وأمي إلى البيت، حاملين الفستان في كيس بلاستيكي كبير. غسلَت أُمّي

t.me/yasmeenbook

الفستان بصمت وتركَته يجفّ. كرهتُ ذلك الفستان، وكرهت العمَّة شاهين، وزفافها.

قال عاصي: «لماذا هم شديدو الحماقة؟ لماذا لا يدركون أننا لم نرغب بتخريب الفستان، فقط خلدنا إلى النوم فوقه؟».

علَّقت أُمّي الفستان على الباب. جلسَت أمامه وأنهت تثبيت الخرز. بدت مستاءة. رنَّ الهاتف. نهضت لتجيب وسمعت صوتها تقول: «لا تقلقي، يبدو جيداً. زالت آثار البقع. أرجوك لا تقولي شيئاً. لم يقصد أن يفعل هذا، صدقيني. هو مريض وكان نعساناً. أراد أن يستريح عليه فحسب».

الأحاديث على الجانب الآخر دفعت أُمّي لأن تبكي بصمت. شعرتُ في داخلي بكُره عظيم. لماذا يستدرون دموعها باستمرار؟ بدا أنها تزداد عجزاً أكثر فأكثر كلّ يوم، وهذا ما جعلني أستشيط غضباً. نظرتُ من حولي. رأيت مقصّاً على الأرض. تناولتُه. كان ثقيلاً وكبيراً على يدي الصَّغيرتين. فتحتُه بصعوبة، ووضعت قماش الفستان بين الشَّفرتين، وضغطتهما معاً. بعد بضع محاولات ظهر ثقب كبير في الفستان.

قال عاصي: «هذا هو العقاب الذي يستحقونه!».

كان بابي قلقاً وقال: «ماذا سترتدي العمَّة شاهين الآن؟».

قال عاصي: «يستحقون ذلك لأنهم أبكوا أُمّي».

t.me/yasmeenbook

10

صرختُ بشكل لا إراديّ عندما رأيت الشَّق في الفستان. رمى شهاب المقصّ لدى سماعه صوتي. كنت أرتعد من رأسي حتى أخمص قدمي كما لو أني موصولة بسلك مكهرب. وضعتُ يدي على فمي لأمنع الصُّراخ، بينما كانت عيناي تجحظان من رأسي. قلت: «أوه يا إلهي! ما الذي فعلتَه!»، وهجمتُ عليه. ركض نحو الدَّرج بأسرع ما استطاعت ساقاه الصَّغيرتان على حمله. اندفع إلى الأعلى، أغلق الباب وحاول إقفاله، لكني كنت أعرف أنه لن يستطيع فعل ذلك. ركضتُ خلفه بساقين مرتعشتين. وصلتُ إلى منتصف الدَّرج فقط، وتوجّب حينها عليَّ أن أتمسك بعمود الدرابزين لكي أستعيد توازني.

صحت: «انزل إلى هنا، أيها الشَّقي! ما الذي سوف أفعله معك؟ سوف تقضي عليَّ». بعد القليل من الصِّياح والصُّراخ كان كلّ غضبي نافداً وكنت على وشك البكاء. جلستُ على الدَّرج، وضعتُ رأسي بين يديّ وشرعتُ أبكي. لا أعرف كم طال بكائي عندما شعرتُ بيد شهاب الخفيفة الصَّغيرة على شعري. كنت أعرف أنه لا يحتمل رؤيتي أبكي، لكن لم أُدرك أنه كان مستعداً حتى لأن يُعاقَب ويوبَّخ كي يوقفني عن البكاء.

ما الذي كان يُفترض بي فعله معه؟ نظرتُ إليه. كانت عيناه العسليتان الواسعتان مغرورقتين بالدُّموع، وقد جعل الحزن على وجهه معدتي تتقبض. كان يتألم أيضاً واستطعتُ أن أشعر بذلك. عانقته وقلت: «لماذا؟ لماذا تثير الكثير من المتاعب؟ لطالما كنت

t.me/yasmeenbook

ولـداً طيبـاً. مـا الـذي دهـاك؟». دلّـى رأسـه. «أعـرف أنـك تفعـل كلّ هـذه الأمـور كـي تنتقـم، لكـن هـذا سـوف يزيـد الطيـن بلّـة فقـط. هـل تـدرك مـا الـذي فعلتَـه بـي للتـوّ؟ هـل تظـن أنـك بهـذا تؤلـم العمَّـة شـاهين فقـط؟ فـي كل أمـر سـيّئ تُقـدم عليـه أنـت تؤذينـي أكثـر ممّـا تـؤذي أي شـخص آخـر. ألا تحبنـي؟ ألا تحبنـي؟».

انفجـر بالبـكاء وسـالت الدُّمـوع علـى وجنتيـه. اختبـأ فـي ذراعـي. «إذا كنـت تحبّنـي، كُـفَّ فقـط عـن فعـل هـذه الأمـور. أخبرنـي إذا كان أحـد مـا يُزعجـك وسـوف أعالـج الأمـر بنفسـي. لسـتَ بحاجـة إلـى فعـل أي شـيء». نظـر إلـيَّ بغرابـة وأدركـت خطئـي. «لا، لسـتَ بحاجـة لقـول أي شـيء. سـوف أعـرف مـا إذا كان أحـد يزعجـك، والأكثـر أهميـة، أن الله يـرى ويسـمع كلّ شـيء أيضـاً، وسـوف يلقّنهـم درسـاً أفضـل ممّـا يمكنـك أن تفعـل. سـوف يعتنـي بـك. فقـط تمالـك نفسـك، ودع الله ودعنـي أتعامـل مـع كلّ شـيء، حسـناً؟ هـل سـتعدُني؟ فقـط لـو أنـك تحبّنـي قليـلاً سـوف تتوقـف عـن فعـل هـذه الأمـور. وإلا سـوف أمـوت حزنـاً. لقـد كـدت أمـوت عندمـا رأيـت الفسـتان. هـل تريدنـي أن أمـوت؟ عندئـذ لـن يكـون لديـك أم».

ضغـط رأسـه علـى كتفـي. فتحـت يديـه الملفوفتيـن حـول عنقـي برفـق، نظـرت فـي عينيـه وقلـت: «إذن تعِدُنـي؟ صحيـح؟»، هـزّ برأسـه. «تعِـد أنـه لـو يؤذيـك أي شـخص، سـوف تأتـي إلـيَّ مباشـرة؟»، هـزّ ثانيـة. وهدأنـا نحـن الاثنـان.

نهضـتُ وعـدت إلـى الفسـتان. نظـرت إلـى الشّـق بخـوف. كان الخيـار الوحيـد هـو أن أفصـل التَّنـورة عـن القسـم الأعلـى واسـتبدل القطعـة المعطوبـة. ذهبـت إلـى المطبـخ وسـكبت لنفسـي قليـلاً

t.me/yasmeenbook

مـن الشَّــاي لأسـتعيد بعضــاً مـن طاقتـي المهـدورة. قفـزتُ بعـد بضـع دقائـق فجـأة. أيـن شـهاب؟ مـاذا لـو كان يتسـبب بالمزيـد مـن المشـاكل؟ هرعـت إلـى الغرفـة ورأيتـه يحـاول إعـادة وصـل القطعـة المقصوصـة بيديـه الصَّغيرتيـن. اغرورقـت عينـاي بالدُّمـوع وقلـت: «لـن ينجـح بتلـك الطريقـة، يـا عزيـزي. لا تقلـق بشـأنه. أعـرف مـاذا يجـب علـيَّ أن أفعـل كـي لا يكتشـف أحـد الأمـر».

أخـذت العلَّاقـة عـن البـاب، انتزعـت الفسـتان، وبـدأت أفكّ خياطة التَّـورة. جلـس قربـي وصـار يراقبنـي بفضـول وقلـق. فـردتُ التَّـورة علـى الأرض. انفتحـت طبقاتهـا الكثيـرة ورأيـت أن القطعـة المعطوبـة تقـع قـرب خـط الـدَّرزة. قطعـتُ شـريطاً طويـلاً مـن القمـاش وأعطيتـه لشـهاب. «إليـك بهـا، لكـن احـرص علـى ألّا يراهـا أحـد». لكنـه عصـر قطعـة القمـاش باشـمئزاز ورماهـا فـي سـلَّة المهمـلات. جلبـتُ ماكينـة الخياطـة وبـدأت أطـوي التَّـورة وأدرز خـطّ الالتحـام.

لـدى سـماع صـوت بـاب المـرآب ينفتـح هـرع شـهاب إلـى النَّافـذة. همسـتُ: «اذهـب إلـى غرفتـك واسـتلقِ». هـرع صاعـداً الـدَّرج. دخـل ناصـر وآرش. حاولـت أن أتصـرّف بشـكل طبيعـي وقلـتُ: «لقـد عدتمـا إلـى البيـت باكـراً اليـوم!».

«لقـد طلبـتِ منـي أن أجلـب آرش إلـى البيـت باكـراً كـي نتمكـن مـن الذهـاب إلـى حفلـة الحنَّـة».

«أعـرف، لكنـي ظننـت أنـك ستنسـى».

«مـا الـذي تفعلينـه؟ ألـم يجهـز الفسـتان بعـد؟».

«إنـه جاهـز، لكنـه تلطَّـخ قليـلاً. جلبتُـه لأنظّفـه، لكنـه ازداد سـوءاً. توجَّـب علـيَّ أن أسـتبدل قطعـة. فـي الفسـتان الكثيـر مـن الطيـات فلـن ينتبـه أحـد. فقـط احـرص علـى ألا تُفشـي الأمـر».

t.me/yasmeenbook

«أنت مهملة للغاية! سيّئة مثل طفلك».

«ماذا تقصد، مهملة؟ الحوادث تحدث. كنت قلقة بشأن شهاب».

«لماذا؟ هل حدث أي شيء ثانية؟».

«لا، الأمر فقط هو أنه مريض. أنا قلقة عليه. لقد كان نائماً طوال اليوم».

«هذا مريح. على الأقل لن يتسبّب بالمزيد من المتاعب. عليك البدء بالاستعداد إذا كنت تريدين الوصول إلى الحفلة في الوقت المناسب».

«لا، اذهب أنت أولاً. عليَّ أن أُنهي الفستان قبل أن يكتشف أمره أحد».

«ماذا؟ ماذا سأقول لهم؟ هم بحاجة إلى مساعدتك هناك».

«ليسوا بحاجة إلى مساعدتي. أفضل ما يمكنني فعله من أجلهم هو إنهاء هذا الفستان. لقد أنجزنا كلّ شيء هذا الصَّباح. إكرام خانم وابنتها قادمتان للمساعدة أيضاً. شادي بقيت مع فرشته. اذهب واجلبها وأخبرهم أن شهاب مريض وأن عليَّ البقاء معه. سوف يسرّهم عدم وجود الأولاد هناك بأية حال. إذا كانوا بحاجة إلى مساعدة في تقديم العشاء، اتصل بي وسوف آتي».

ذهب آرش وجلب شادي، لكنه قال إن فرشته توسلت إليه أن يعيدها هذا المساء لأنهم تمرنوا على رقصة يرغبون بتقديمها للضيوف. حمَّمتُها وألبستُها وربطت شريطة زهرية اللون حول شعرها الجميل. وضعتُها بين ذراعي ناصر ورافقتهما إلى الباب. عندما استدرتُ رأيت شهاب ينظر خلفهما بحسد.

t.me/yasmeenbook

كان الظلام قد حلَّ عندما انتهيتُ من إصلاح الفستان، لكن كان لا يزال علي القيام بأمور كثيرة. كان عليَّ أن أنهي تثبيت الخرز. كنتُ مرهقة وكانت عيناي مجهدتين. كنت غارقة في التَّفكير حتى أني نسيت أمر شهاب تماماً، لكنه ظهر حاملاً زجاجة ماء وقطعتي حلوى. ركض عائداً إلى المطبخ وجلب كأساً أيضاً. أدركت أنه بطريقة ما أراد أن يفعل شيئاً من أجلي. شعرت بالأسف عليه. «هل تريد المساعدة؟»، هزّ رأسه. شربت الماء وقلت بكل ما بي من حزن وتعب: «مساعدتك الأكبر قد تكون في التحدث إليّ. فقط قل كلمة واحدة. قل (أُمّي)...». مسحتُ الدُّموع عن خدِّي وشرعت أعمل على الفستان ثانية.

بعد بضع لحظات سمعت صوتاً ناعماً مفعماً بالعاطفة: «أُمّـي!».

بدأ قلبي يخفق بسرعة ونظرتُ نحوه غير مصدِّقة. «ماذا قلت؟ هل كنت أنت؟»، وضعتُ يديّ على كتفيه. بدأت الدُّموع تتدفّق على خدّيّ مرّة أخرى وتوسّلتُ: «قلها ثانية، فقط مرّة أخرى!». رنَّ الهاتف وجعلني أقفز. كنت لا أزال أضحك وأبكي عندما رفعتُ السَّماعة.

«ناصر، هل تعلم ما الذي حدث؟ شهاب ناداني للتوّ (أُمي)! أقسم إنها الحقيقة. صوته جميل. لقد قال فقط (أمي) هكذا فجأة... نعم، سآتي في الحال. قل لهم ألّا يقدموا العشاء حتى آتي للمساعدة. نعم، الفستان جاهز تقريباً. سوف أُحضره غداً. سنرتدي ملابسنا ونأتي».

t.me/yasmeenbook

أخـذتُ حمّامـاً سـريعاً وارتديـت ملابسـي. عقـدتُ شـعري المبلّـل ووضعـت قليـلاً مـن أحمـر الشَّـفاه الفاتـح. نظـر شـهاب نحـوي وعلـى شـفتيه ابتسـامة عذبـة. بـدت سـعادتي دومـاً أنهـا تسـعده أيضـاً، كمـا لـو أن روحينـا بشـكل مـا كانتـا مترابطتيـن معـاً. كنـت سـعيدة للغايـة، ولبثـتُ أتحـدث باندفـاع. «الحمـد للّه! كنـت أعـرف ذلـك. كنـت أعـرف أنـك لا تعانـي مـن مشـكلة. الآن سـوف أكـون فخـورة أمامهـم جميعـاً وأمنعهـم مـن أن يكفـوا عـن ثرثراتهـم الخبيثـة وإسـاءاتهم المبطَّنـة».

أمسكتُ بيده وتوجّهت إلى منزل حسين باعتزاز.

t.me/yasmeenbook

كان لوجه أُمّي المُتعَب والمُجهَد تأثير كبير عليّ، حتى أني رغبتُ بفعل أي شيء لتخفيف ألمها. هذا جعلني أنسى خوفي من الكلام، فتحت فمي وقلت بيُسر: «أُمّي». بدا الصَّوت المألوف غريباً لأذنيّ. هل كان هذا صوتي حقاً؟ سعادتها شرحت صدري. بدت جميلة جداً كلما كانت سعيدة. لكن شيئاً فشيئاً بدأتُ أخشى انفعالها وردّ فعلها الاستثنائي. في الطَّريق إلى منزل العم حسين قال عاصي: «لماذا أخبرَت والد آرش بأننا تكلمنا؟ ماذا لو أخبرَت الآخرين أيضاً؟».

انتابني الخوف وسحبتُ يدي من يدها. أردت أن أعود إلى البيت. نظرَت أُمّي إليَّ بسعادة. أمسكَت بيدي ثانية وقالت: «لنذهب يا عزيزي. لنذهب يا فتاي العذب». سكتوا جميعاً حال دخولنا. هؤلاء كانوا الناس الذين لم يلاحظوني عادة، لكنهم لم يستطيعوا الآن أن يشيحوا بأنظارهم الفضولية عني. بدأ قلبي يخفق بعنف. حتى أُمّي كانت متفاجئة بعض الشَّيء. هرعت فتّانة إلى الأمام بخبث. ركعَت أمامي وقالت مبتسمة: «أوه يا إلهي! شهاب! سمعت أنك تكلّمت. كن فتى لطيفاً وقل (فتّانة)، أسمعني صوتك».

كم بدا وجهها المغطى بالمساحيق عن قرب مخيفاً. اختبأتُ خلف أمي. «هيا، قل شيئاً». شعرتُ بالسخونة. سحبَت أُمّي يدي وقالت: «دعيه وشأنه. أنت تضايقينه».

«ألم تقولي إنه تكلم؟ حسناً، أُريد سماعه يقول اسمي».

t.me/yasmeenbook

«أنت تخيفينه».

«لم أفعل شيئاً!».

تطلع إليّ خسرو باستهزاء. تقدَّم أبي. وقرّب وجهه من وجهي.

«الآن وقد قلت (أمّي)، أسعِدني وقل (أبي)».

كان الجميع ينتظرون. شعرتُ كما لو أني غير قادر على التَّنفس وكان قلبي يخفق بسرعة أكبر. أُمّي، منبع الأمل والحماية الوحيد عندي، قد أفشَت بسري. لقد أخبرَت الجميع عن شيء كان يُفترض به أن يكون سرّاً بيننا. سحبتُ يدي من يدها وهُرعت نحو منزلنا، معاهداً نفسي على أني لن أرتكب هذا الخطأ ثانية قط، وأني لن أشعر بالأسف عليها مطلقاً.

ولّت تلكم الأيام والجميع يتحدّثون عني، ثم انتهى كلّ شيء فجأة. بعد حين اعتقد الجميع، بمن فيهم أمي، أنه على الأرجح كانت تتخيّل، ذلك لأن رغبتها بسماع صوتي كانت عظيمة. تركوني وشأني، ومرة أخرى تراجعتُ إلى عالم صمتي الآمن.

t.me/yasmeenbook

12

انقضى الشَّهر الأول من الصَّيف كله في شؤون الزواج والحفلات التي تبعته. وبسبب دروسه المتعددة لم يكن لدى آرش وقت لحضور هذه المناسبات، ويبدو أنه لم يرغب بالذهاب على أية حال. فقد فضَّل البقاء في البيت، يقرأ ويشاهد التلفزيون ويرسم، أو ينفِّذ مشاريع فنّية. بدا لي أنه هو أيضاً كان كارهاً للتواصل والتَّحدث مع الآخرين. صديقه سامان، الذي كان مثله تماماً ويضع نظارة كبيرة على عينيه الصَّغيرتين، كان يأتي لزيارتنا غالباً. وكانا يتحدّثان باستمرار عن أمور جديَّة، وليُثبتا نظرياتهما كانا يُفكّكان أحشاء أجهزة الراديو والمكانس الكهربائية وأجهزة أخرى، وبالطبع لم يكن هذا العمل مزعجاً في نظر أحد! قال أبي: «ابني يجري التَّجارب. إنه فائق الذَّكاء. سوف يخترع شيئاً ذات يوم».

كانت أُمّي تنتهز فرصة وجود آرش في البيت وتتركني معه لتحضر الحفلات تلك جميعها، مصطحبة شادي معها. وكان آرش يتركني لوحدي عادة. ولا يرى أني مستحق لعنايته، مثله في ذلك مثل أبي. كانوا يتجاهلونني جميعاً بطريقة ما، وهذا ما جعلني أشعر بأني غير مرغوب فيه. وكانوا عندما يستعدون للخروج يسود المنزل إحساس بالإثارة، وكنت أتبعهم من غرفة إلى أخرى. كانت أُمّي تجرّب عدداً من الفساتين، فتختار بالتالي واحداً لترتديه. ولكم تمنّيت لو أنها تفعل هذا طوال اليوم فلا يتوجّب عليَّ مطلقاً أن أتعامل مع الصَّمت الثَّقيل الذي يسود

t.me/yasmeenbook

المنـزل عنـد مغادرتهـم. كانـت تُقبّلنـي وتقـول: «كان ذلـك لذيـذاً». وطالمـا اعتـادوا على تقديم عشاء لذيـذ لنـا كرشـوة فـي الليالـي التـي كانـوا يخرجـون فيهـا. «اجلس وارسـم شـيئاً جميـلاً عندمـا نغـادر، ثـم اخلـد إلـى النَّـوم».

لكنـي لـم أشـعر برغبـة فـي فعل شـيء فـي ذلـك المنـزل الصَّامـت. كنـت أرسـم بضـع خطـوط مشـدودة خاليـة مـن المعنـى. ويومـاً بعـد يـوم أصبحـتُ أكثـر تعلقـاً بصديقـيّ المتخيَّليـن.

قـال عاصـي: «فليذهبـوا إلـى الجحيـم جميعـاً». لكـن بابـي كان حزينـاً للغايـة.

t.me/yasmeenbook

13

حـدث أمـرٌ غريـب عصـر أحـد أيـام الصَّيـف الدَّافئـة. جـاءت فرشـته إلـى منزلنـا. كانـت تضـع وشـاحاً جميـلاً. قـال عاصـي: «مـا الـذي فعلَتـه؟ إنهـا تبـدو أجمـل». وعلـى غيـر عادتهـا، لـم تهـرع إلـى شـادي حـال دخولهـا. بـدلاً مـن ذلـك، بحثَـت عنـي ونـادت باسـمي، كمـا اعتـادت أن تفعـل منـذ وقـت طويـل. خرجـتُ مـن خلـف البـاب. عانقتنـي. أحببـتُ أن أكون بيـن ذراعيهـا. استنشـقتُ نفسـاً عميقـاً من عطرهـا وأصغيـت بسـرور إلـى مـا قالتـه. خاطبتنـي أولاً، ثـم نظـرت إلـى أمـي: «هـل سـتأتي معـي إلـى الحديقـة؟ مريـم، أريـد أن آخـذ شـهاب إلـى الخـارج. هـل توافقيـن؟».

نظرت أُمّي إليها بارتياب، «شهاب! لماذا هو؟».

«مـا الخطـب فـي ذلـك؟ أحبّـه. ألا تتذكريـن كـم اعتـدت أن ألعـب معـه؟ سـنذهب لنتمشّـى فـي الحديقـة فقـط ونعـود».

«كلا. أخشـى أن يحـدث شـيء وأنـا فـي الواقـع لسـتُ فـي مـزاج لتحمُّـل المتاعـب. لا بـأس لـو رغبـتِ بـأن تأخـذي شـادي معـك، لكـن ليـس شـهاب، سـوف أكـون مرتاحـة أكثـر إذا بقـي هنـا معـي».

«أقسـم أنـي سـأعتني بـه. لـن يحـدث شـيء. كنـت أفكّـر فـي شـهاب كثيـراً مؤخـراً. نحـن لا نمنحـه مـا يكفـي مـن الاهتمـام. منـذ أن بـدأت شـادي تتحـدث بعذوبـة بالغـة، لقـد نسـيتُ كلّ شـيء حـول شـهاب. يمكننـي أن أعـرف مـن عينيـه أنـه منزعـج منـي وأريـد أن أصلـح الأمـر معـه. مـن فضلـك اسـمحي لـي. سـوف أجـيء كلّ بضعـة أيـام وأصحبـه لبعـض الوقـت». واصلـت أُمّـي النَّظـر إليهـا بطريقـة غريبـة. أردتُ

t.me/yasmeenbook

الخروج مع فرشته بكل كياني. أي معجزة جلبت لي هذه الفرصة السِّحرية؟ جذبتُ يد أُمّي ونظرتُ إليها بعينين متوسّلتين. أرادت أن تقول لا، لكن نظرتي المبتهلة جعلتها تستلم. قالت: «لستُ واثقة. أنا قلقة من أنه سيتسبب بالمزيد من المتاعب».

«لا تقلقي، لن يضايقني. أليس صحيحاً يا شهاب؟»، هززتُ رأسي. «جيّد جداً، إذن أسرع واستعد حتى نتمكّن من الخروج». كنت مسلوب العقل من شدَّة الفرح. هرعت إلى الحمَّام وغسلت يديّ، وجهي، وقدميّ، مولياً اهتماماً خاصَّاً لركبتيّ. جاءت أُمّي وساعدتني. ارتديت سروالاً قصيراً أزرق اللون مع القميص ذي المربعات الزرق والبيض الذي كانت رائحة الجِّدة لا تزال تفوح منه. سمحتُ لأمي أن تفرّق شعري إلى الجانب مستعملة مشطاً مُبللاً. قالت فرشته: «تبدو وسيماً. حتى أنه أجمل من شادي، أليس كذلك؟».

أمسكتُ بيد فرشته. خرجنا من الباب وقد جعلني صوت شادي وهي تنوح خلفنا، سعيداً وفخوراً نوعاً ما.

قال بابي: «مسكينة شادي، أرادت الانضمام إلينا أيضاً».

قال عاصي بقسوة: «لا تستطيع! بالإضافة إلى أنها كانت في الخارج بالفعل اليوم مع أمي».

«ذلك لا يُحتسب. إنها تأخذنا معها عندما تتسوّق وتدعو ذلك خروجاً. هي تظن أننا حمقى».

كانت هذه النزهة مختلفة عن المرّات التي أخرج فيها مع أمي. كان الأمر كما لو أني هربت من قفص. شعرت بالخفَّة. التفتُّ ونظرتُ إلى فرشته لأرى ما إذا كانت سعيدة مثلي. أردت

t.me/yasmeenbook

أن أشكرها بعينيّ، لكنها كانت تنظر إلى مكان آخر. بدا عليها أنها قلقة وأنها نسيت أمري تماماً، مع أنها كانت تُمسك بيدي. سحبتُ يدها قليلاً لأجذب انتباهها، لكنها قالت بصبر نافد: «اسمع شهاب، إذا أحسنت التصرف وأصغيت إليّ سوف أشتري لك المثلجات في طريق العودة، اتفقنا؟».

تجمّدتُ. بدت كما لو أنها تساوم. كان هذا تماماً مثل شيء قد يقوله خسرو. ربما كانت تخطط لأن تسخر مني؟

عبرنا الشّارع ودخلنا الحديقة. أخذتني فرشته إلى الملعب دون أن تنبس بكلمة. بدت أكثر توتراً من قبل وظلت تنظر من حولها. شعرتُ أنها كانت تبحث عن شخص ما. بعد حين مرّ بنا شاب وهمس بشيء ما. ابتسمَت فرشته وقالت لي: «اذهب والعب شهاب. سوف أجلس على هذا المقعد وأنتظرك». حرّرت يدي. مشيتُ نحو الملعب لكني صرت ألتفتُ إلى الخلف باستمرار وأنظر إليهما بفضول. جلسَت فرشته قرب الشاب الغريب على المقعد. بدا كما لو أنهما يعرفان بعضهما البعض. كنت قد أخذتُ أفهم السَّبب وراء لطف فرشته المفاجئ تجاهي. كان كلّ انتباهي منصبّاً عليهما. جلستُ على الأرجوحة قليلاً، ثم وقفتُ قرب الزحاليق. درتُ حول العمود. لم ينظرا نحوي أيضاً. تعبتُ ولم أعرف ماذا أفعل سوى ذلك. سرت عائداً نحوهما بخجل. قالت فرشته: «ما المشكلة شهاب؟ ألا تريد أن تلعب بعد الآن؟»، هززت رأسي وحاولت الجلوس قربهما.

قال الشّاب: «ماذا لو ذهب وأخبر الجميع؟».

«لا تقلق. لا يستطيع الكلام». ثم همسَت بشيء في أذنه.

t.me/yasmeenbook

دليّت رأسي. كنت أعرف أنهما كانا يتحدثان عن غبائي وعن عدم قدرتي على الكلام. لم أكن غاضباً بقدر ما كنت حزيناً.

كان الظلام يحلّ عندما ودعته فرشته أخيراً. كانت منفعلة طوال طريق العودة وظلَّت تتحدّث وتضحك. حتى أنها منحتني قبلة واشترت لي مثلجات لذيذة. منذ ذلك الحين أصبحت هذه النُّزهات جزءاً من وتيرتنا اليومية. كانت أُمّي سعيدة ولشدّما ظلت تشكر فرشته. استمتعتُ بالخروج واللعب في الحديقة وتناول المثلجات، لكنني لم أشعر بأي امتنان نحوها. اصطحابها لي إلى الخارج كان حجَّة لها لتغادر المنزل وتلتقي بشاب طويل الشَّعر، عرفتُ الآن أنه يُدعى رامين. كانت كلما ظهر رجال شرطة الآداب(9) تتظاهر بأنها تلعب معي، كما لو أن تواجدها في الحديقة فقط هو من أجلي. كانت علاقتنا حقاً تدبيراً أفادها أكثر ممّا أفادني، لكننا كنا راضيين به كلانا، ولم أُخطّط لتغيير ذلك الأمر.

ذات يوم جاءت فتّانة إلى منزلنا بعد انتهائها من التَّسوق وسألت أمي: «هل فرشته حقاً تأخذ شهاب إلى الحديقة كلّ يوم؟».

«نعم، هي تأتي بدقَّة تامة وتأخذه. لماذا؟».

«لا شيء، كنت فقط أتساءل. إنّها صبورة بحقّ، أليست كذلك؟».

«في الحقيقة كنتُ معارِضة نوعاً ما للأمر لكنها أصرَّت».

«هذا لأن ابنتي لطيفة للغاية. فهي تقول إنه أمر جيدٌ ولصالح شهاب».

---

(9) فرع من قوى الشرطة في إيران مسؤول عن منع نشاطات تتعارض مع الشريعة الإسلامية بما فيها الاتصال بين أفراد لا تربطهم صلة قرابة مع الجنس المقابل.

t.me/yasmeenbook

وضعت يدي على فمي كي أمنع نفسي من الضَّحك بصوت عالٍ.

قال عاصي: «فتّانة غبية للغاية. هي تظن أن فرشته تذهب إلى الحديقة من أجلنا!».

لم أحبّ رامين، لكن لم أكن أملك الخيار. كنتُ أُراقبهما بارتياب من خلف الأشجار. وكانا يُمسكان بيد بعضهما البعض خفية. كان كلّ منهما يسند رأسه على رأس الآخر عندما يكونان واثقين أن ما من أحد يراهما، وكنتُ أضحك. لم أفهم لماذا فعلاً يفعلان هذه الأمور بكثير من الخوف. وكلما ظهر رجال الشُّرطة كان يمتقعان، فيسير رامين في الطريق المعاكس، بينما فرشته تركض خلفي. صرتُ أميّز حتى رجال الشُّرطة السِّريين، وكنت أفزع إلى فرشته حالما تقع عيناي عليهم.

ذات يوم كانت فرشته ورامين مستغرقين عميقاً في محادثة، ولم يلحظا اقتراب رجال الشُّرطة. حاولت أن أصرخ لكن صوتي علق في حلقي، تماماً كما هو الحال دائماً. هرعت نحوهما. اختطفت يد فرشته وسحبتُها بكل قوتي. قالت متفاجئة: «ما الذي تفعله؟»، أشرت نحو الشُّرطة. وحالما رآهم رامين قفز وراح يركض في الاتجاه المعاكس. اختبأنا فرشته وأنا خلف الأشجار. رمت شالاً عريضاً أسود على رأسها وسحبت وشاحها الملون. كان رجال الشرطة أسرع من رامين فلحقوا به، وأمسكه واحد منهم من قفاه وركل أخرَّ ساقيه، فخرّ رامين ساقطاً على الأرض.

رأينا الأحداث برمَّتها من بعيد. شعرت بالألم في عنقي وفي ساقي أيضاً. جرّوا رامين وبعض الأشخاص الآخرين خارج

t.me/yasmeenbook

الحديقة. تابعناهم من بعيد. كانت هناك حافلتان خارج الحديقة: واحدة من أجل الفتيان، والأخرى ممتلئة بالفتيات الباكيات، تتحدّث واحدتهن إلى الأخرى وتبتهل إلى الحراس في الوقت نفسه. دفعوا رامين إلى الحافلة. لم أرغب في أن تراه فرشته وهو في هذه الحالة المذلَّة. سحبتُ يدها. بدأت الحافلة تتحرك ومرَّت بنا. نظر رامين نحو فرشته. كان هناك دمٌ على طرف فمه. شعرتُ بالأسف عليه. ظلّت فرشته تمسح دموعها طوال الطريق إلى البيت. لم تشترِ لي المثلجات، لكن لا يهمّ.

قالت: «هل رأيت كم هو شاب لطيف؟ لقد سلَّم نفسه كي لا نتورط في المشاكل. فلاحقوه وفوّتونا. ما الذي سيفعلونه به الآن؟ لو جلدوه، سأموت بالتأكيد». وانفجرت بالبكاء مرّة أخرى.

t.me/yasmeenbook

14

مـرَّت عـدة أيام لـم نسـمع فيهـا مـن فرشـته. تفاجـأت أُمّـي وظلّـت تسـأل: «لمـاذا لـم تعُـد تأتـي فرشـته لتصحبـك؟ هـل فعلـت أمـراً ضايقهـا؟»، هـززتُ كتفـي. ظهـرَت مـرّة أخـرى عصـر أحـد الأيـام. قالـت أمـي: «ظننـتُ أنـك انتهيـت مـن أمـر الذَّهـاب إلـى الحديقـة. بأيَّة حـال، الأمـر منطقـيّ. قريبـاً سـوف تفتـح المدرسـة أبوابهـا والآن صـار الظـلام يحـلّ فـي وقـت أبكـر. الطقـس بـارد نوعـاً مـا أيضـاً. عليـك ألّا تكلفـي نفسـك هـذا العنـاء».

ضحـك عاصـي وقـال: «إنهـا لا تزعـج نفسـها! إنهـا تفتقـد ذلـك الفتـى. سـوف تعـاود الابتسـام حالمـا تـراه مـرّة أخـرى». اسـتعدّيت بسـرعة البـرق. كان الفضـول يقتلنـي لرؤيـة راميـن بعـد جلـدِه.

هرعنـا إلـى الحديقـة. كـدت أسـقط أرضـاً مـن الضَّحـك حالمـا رأيت راميـن. توجـب علـيَّ أن أضـع يـدي علـى فمـي. ضحـك كلّ مـن عاصـي وبابـي بصـوت مرتفـع فـي أذنـي. قـال بابـي: «انظـر إليـه! لمـاذا حلـق شـعر رأسـه؟».

بـدا وجهـه أنحـف مـن قبـل وكان يطأطـئ رأسـه بحـرج. نسـيت فرشـته أن ترسـلني إلـى الملعـب. أسـرعت نحـوه وقالـت: «أوه يـا إلهـي! مـا الـذي فعلـوه بـك؟».

«لا تنظـري إلـيّ. أبـدو رهيبـاً. أخشـى أنـك سـتكرهينني بهـذا الشـكل».

«هـل هـذا هـو السَّـبب الـذي جعلـك غيـر راغـب بـأن أراك؟ تبـدو وسـيماً دومـاً مهمـا كانـت الظـروف. لا يمكنـك أن تتخيّـل كـم قلقـت عليـك».

t.me/yasmeenbook

ضغطتُ يدي على فمي ثانية كي لا أضحك بصوت عالٍ. كان عاصي وبابي يتدحرجان على الأرض ضاحكَين. اختفيت خلف المقعد.

قال رامين: «لا يمكننا الاستمرار بهذا الشَّكل بعد الآن. لقد حكموا عليَّ بأربعين جلدة مع وقف التنفيذ».

«ماذا يعني هذا؟».

«توسَّل والدي إليهم ألّا يجلدوني، لذا قالوا إنّهم إذا ألقوا القبض عليَّ مرّة ثانية فسوف يجلدونني أربعين جلدة بالإضافة إلى أي حكم جديد».

«أوه يا إلهي!».

«وشكرتُ الله مئة مرّة لأنك أفلتِّ، وإلّا فمن يعلم ما الذي كان سيحدث».

«لكن كيف سنرى بعضنا البعض بعدُ؟ سأموت إذا لم أستطِع أن أراك بعد الآن. لقد أُصبتُ بالجنون في هذه الأيام القليلة الماضية».

«أنا أيضاً، لكن الوضع خطير للغاية الآن في الحديقة. علينا العثور على مكان آمن للقاء».

«أين على سبيل المثال؟».

«علينا أن نجد منزلاً. لدى صديقي إسماعيل شقَّة. سوف يُعيرني المفاتيح فيمكننا اللقاء هناك بين حين وآخر».

«ماذا؟ في مثل هذا العمر ولديه شقَّة؟».

«هو ليس في مثل عمرنا، إنه أكبر سناً، لكنه بالغ السَّخاء. نحن صديقان مقرّبان. إنه يملك متجراً صغيراً في شارعنا. وتقعُ شقته في الطابق الذي يعلو المتجر».

t.me/yasmeenbook

«لا، أنا خائفة للغاية. هذه ليست فكرة جيدة».

«ماذا لو أمسكوا بنا في الشَّارع أو الحديقة أو في مطعم؟ ماذا لو جُلدنا؟ لا أقول إننا سنقدم على فعل أي أمر خاطئ». قفز رامين فجأة وقال: «إنهم قادمون... في الوقت نفسه غداً عند البقالة». وأسرع مبتعداً.

جلسنا، فرشته وأنا، على المقعد فترة من الوقت. لم أشعر برغبة في اللعب. نظرت فرشته إلي وقالت: «ما الذي عليَّ فعله الآن؟»، هززتُ كتفي.

مرَّ يومان دون أخبارٍ من فرشته. اعتقدتُ أن نزهاتنا إلى الحديقة انتهت وأني لن أراها ثانية. لكن قبل ظهر اليوم الثالث رنَّ جرس بابنا. كانت فرشته. نظرتُ إليها متفاجئاً. قالت أمي: «هل تغيّرت خططك؟ ألن تذهبي إلى الحديقة عصراً بعد الآن؟».

«إنها تزدحم حقاً في أوقات العصر بشكل يمنع هذا الطفل من اللعب. ظننت أنه سيكون من الأفضل لو ذهبنا صباحاً».

عندما غادرنا المنزل قالت فرشته: «أسرع شهاب، الوقت يتأخر». لكننا لم نسِر باتجاه الحديقة. بعد الركض لبعض الوقت واجتياز عدَّة شوارع، وصلنا إلى متجر بقالة صغير على ناصية، متعبَين يتصبّب منا العرق. وإثر إيماءة من المالك مشينا إلى نهاية المتجر. كان هناك عددٌ من المقاعد وطاولة نصف دائرية مركونة تجاه الحائط. رفعتني فرشته على واحد من المقاعد واستندَت هي على الآخر ونظرَت من حولها. ظهر رامين.

قال عاصي: «يبدو مثل سيخ كباب!». ضحكتُ ونظر رامين وفرشته نحوي متفاجئين. غمزَت فرشته رامين وأشارت إلى

t.me/yasmeenbook

رأسها. كنت أعرف معنى الإيماءة. شعرتُ بالدم يتدفّق في وجهي، فاحمرّ لوني وأخفضت عينيّ.

قالت فرشته: «ما الذي سنفعله؟».

«لو أمسكوا بنا هنا لن يكون لدينا مخرج. سوف يغلقون البقالة وسوف يتورَّط إسماعيل المسكين في المشاكل. لنذهب إلى الشَّقة في الأعلى».

«لكنه غير لائق بالنسبة لك ولي أن نكون بمفردنا في منزل غريب. ما الذي سيظنه إسماعيل؟».

«لا شيء، هو يعرف أننا نحبّ بعضنا بعضاً ولا نستطيع أن نلتقي في الشَّارع أو في مطعم. لذا لا نملك الخيار». أومأ نحوي وواصل: «كما أن لديكِ مُرافق، فما الذي تقلقين بشأنه؟».

كنت قد تضايقتُ من قبل عندما أشارت فرشته إلى رأسها لتُظهر ما ظنّته بي، لكني بسماع هذه الكلمات هدأتُ وبدأت أشعر بالفخر. تقدَّم نحونا رجل قبيح في حوالي الثلاثين من عمره له شاربان كثّان وشعر مجعد. ناولني مخروط مثلجات وقال: «اذهبوا إلى الأعلى قبل أن تتسبّبوا لي بأية مشكلة. فلو أنّهم يلقون القبض عليكما هنا فسوف أقع في مشكلة كبيرة». أشار رامين إلى باب وقال: «الدرج هناك قرب دورة المياه. سوف أذهب أولاً وأنت اتبعيني بعد بضع دقائق». قالت فرشته بصوت مرتعش: «حسناً، سوف نأتي حالما يُنهي شهاب المثلجات».

«لا هذا سوف يستغرق وقتاً طويلاً. يمكن لشهاب أن يبقى في الأسفل هنا وينتهي من تناول المثلجات حتى نعود».

«كلا. أنا لا أذهب إلى أي مكان من دونه».

t.me/yasmeenbook

«ممتاز! إذن دعيه يجلب المثلجات إلى الطابق الأعلى قبل أن ينال مني السأم».

غادر رامين. أكلتُ قليلاً من المثلجات دون شهية تُذكر. نظر الرجل ذو الشَّعر المجعَّد إلينا ولوَّح لفرشته كي تصعد إلى الأعلى. كانت متردّدة، لكنها نهضَت أخيراً وقالت: «لنخرج من هنا شهاب». نهضَت وأمسكَت بيدي. غادرنا المحل. صاح الرجل في إثرها لكنها لم تمنحه أي اهتمام. كنا قد وصلنا إلى الانعطافة عندما سمعنا رامين يغذُّ الخُطى خلفنا. حاولت أن أسرع أكثر لكن فرشته تباطأت. وصل رامين إلينا مقطوع الأنفاس: «ما الذي حدث؟ لماذا غادرتِ؟».

«لا أستطيع القيام بذلك. لا يُعجبني إسماعيل. إنه ينظر إليَّ بشكل غريب، وهذا ما أربكني».

«تجاهليه. المسكين سمح لنا باستعمال شقته، ألا تثقي بي؟».

«أثق بك، لكني لا أحبّ ذلك المكان».

«إذن ماذا سنفعل؟ هل تعرفين مكاناً آخر يمكننا الذَّهاب إليه؟ أو هل تريدين أن ننهي علاقتنا فتمتنعي عن رؤيتي؟».

«لا، لا... لا أطيق أن أكون بعيدة عنك».

«أنا أيضاً. سوف أُجنّ إن لم أرَكِ. لا نستطيع أن نلتقي في الشَّارع، إذن ليس لدينا خيار. لدي الكثير ممّا أود أن أخبرك به. لا تستطيعين أن تتخيلي الأمور التي حدثت لي. أصبحت الشرطة مرتابة حول مكالماتنا الهاتفية أيضاً. كم من وقت طويل مضى منذ أن تحدّثنا بالضبط؟ فقط تعالي إلى هناك هذه المرة، وإذا لم يعجبك الأمر فلن نذهب ثانية».

t.me/yasmeenbook

عصبَرت فرشته يدي، وبخطوات متردّدة عادت نحو متجر البقالة. هذه المرة ذهبنا مباشرة إلى خلف المتجر. كان الدَّرج معتماً ورائحته كريهة. سددتُ أنفي بإصبعيّ. مررنا عبر باب معتم عند أعلى الدَّرج ودخلنا غرفة كبيرة. كانت قذرة وتعمُّها الفوضى، وتفوح فيها رائحة دخان السجائر. كانت الثِّياب متناثرة في كلّ مكان على الأثاث، وكان هناك مخدَّة وبعض الأغطية المكومة على أريكة، أطباق قذرة على الطاولة ومنافض كبيرة طافحة هنا وهناك. هيكل بلاستيكي قبيح وبضع لوحات بغيضة كانت معلقة على الجدران. كان هناك أصيص فيه زهور ميتة على التلفزيون. كرهت كلّ شيء في الغرفة وافتقدت منزلنا النظيف المشرق. قطّبت فرشته وقالت: «لماذا تبدو بهذا الشكل؟».

«إنها مأوى لعازب. ما الذي كنت تتوقعينه؟ إنه لا أحد معه، يعمل طوال اليوم وليس لديه الوقت لينظّف».

لاحظتُ أن رامين كان لا يزال ممسكاً بمخروط المثلجات الذائب خاصّتي. وضعه أمامي وفتح التلفزيون وقال: «كن ولداً جيداً، شاهد التلفزيون وانهِ تناول المثلجات». جلسا خلفي تماماً على الأريكة. تحدثا أولاً عن الشرطة، المحكمة، مخاوفهما، وأمور أخرى، لكن بعدئذ خفت صوتاهما ولم يعُد بوسعي فهم ما كانا يقولانه. عندما توقفا عن الكلام التفتُّ ونظرت إليهما. كانت فرشته قد خلعت الوشاح والمانتو[10] ووضعت رأسها على كتف رامين. وكان كل منهما ممسكاً بِيد الآخر، وكان رامين يتنشّق

---

(10) قطعتا الحجاب الرسميتان المفروضتان على النساء في إيران، والوشاح هو غطاء الشعر أما المانتو فهو معطف ما دون الركبتين، والاسم مأخوذ من الفرنسية Manteau.

t.me/yasmeenbook

شعرها بانفعال. تمنيت من كل قلبي لو كنا جالسين في الحديقة بدلاً من ذلك.

حدث الأمر نفسه في اليوم التالي. هذه المرة وضع رامين شريطاً في جهاز تشغيل أشرطة الفيديو ورفع الصوت. «هذا فيلم عظيم يا شهاب».

نظرتُ إليهما بارتياب. جلستُ أمام التلفزيون وحاولت الإصغاء إلى ما كانا يقولانه، لكنهما لم يُصدرا أي صوت. التفتُّ. يا إلهي! بشكل تلقائي وضعتُ يدي على فمي والتفتُّ، لكن كلّ انتباهي كله كان منصبّاً عليهما. لا أعرف لماذا نهضت فرشته عن الأريكة فجأة. وقفتُ أيضاً. أمسكتُ يدها وسحبتُها إلى الباب. توسّل رامين بها: «ما الخطب؟ ما الذي حدث؟ لم أقصده. أحبك. أحتاج إليك».

«أعرف. ولهذا السبب لا أريد أن ألتقي بك هنا بعد الآن».

«أقسم أني لن أفعلها ثانية».

«من الأفضل لو نلتقي في الحديقة. عليَّ الذهاب. وداعاً، أراك غداً في الحديقة».

كنت فخوراً بفرشته. أمسكتُ يدها وهبطنا الدَّرج. تركتني فرشته أتقدمها. كان الهواء في الخارج نظيفاً وأخذت نفساً عميقاً.

في اليوم التالي ذهبنا إلى الحديقة تماماً كالسابق. أخذتني فرشته إلى الملعب ونظرَت من حولها بقلق. كان رامين خلف الأشجار يراقبنا من بعيد. أشار لفرشته ألّا تنظر نحوه. كانت مرتبكة. لم أستمتع باللعب في الملعب. نزلتُ عن الأرجوحة وأخذتُ بيد فرشته. عدنا متهاودين إلى البيت.

t.me/yasmeenbook

صارت فرشته يوماً بعد يوم تبدو أكثر حزناً ووحشة، إلى أن حلّ يوم كان الحرّاس منهمكين فيه بأمور أكثر أهمية، فحظي كلّ من فرشته ورامين بفرصة الجلوس معاً في الحديقة والتَّحدث إلى حين. كانت عيونهما تشعُّ سعادة، وكنت سعيداً أيضاً. إذ كلّما كانا معاً في الحديقة شعرتُ بإحساس الراحة. في طريق العودة تحدّثت فرشته معي بسعادة، وأخبرتني عن أحلامها وأسرارها. أصغيت إليها بحذر. كنت أعرف أنها لم تتوقع مني أن أجيب، لكنّها أرادت فحسب أن تجد من يسمعها. قالت في النهاية: «لا أستطيع التوقف عن رؤيته، يا شهاب! أتمنى لو كان اللقاء في الحديقة آمناً! هل يمكنك أن تراقب من أجلنا وتُعلمنا في حال قدوم رجال الشُّرطة؟»، هززتُ رأسي موافقاً. شعرتُ بالفخر، وكنت راغباً بفعل أي شيء من أجلها طالما أنهما لن يعودا إلى تلك الغرفة المقرفة.

مع ذلك، في اليوم التالي بدت الحديقة آمنة. طوّقتُ مقعدهما مثل حارس أمنيّ يستمّر بالمراقبة. لمحتُ بعض المراهقين يركضون مروراً بي خائفين. خفتُ، ومثل رجل تحرٍّ في فيلم، اختفيت خلف شجرة. دخل رجال الشُّرطة من شارع أعلى الحديقة وانتشروا فجأة في جميع أنحائها. ركضتُ بأسرع ما يمكن ووصلت إلى فرشته. قفز كلاهما حالما شاهدا وجهي المرتعب.

قال رامين: «هل هم هنا؟»، ركض خلف شجرة لكن حارساً كان يختبئ هناك طوال الوقت ألقى القبض عليه. ظهر واحد آخر خلف فرشته وقال بصوت غاضب: «حتّي خطاك، لنذهب!»، كان كلاهما بلون الكركم. وأظن أني بدوت مثلهما على الأرجح.

t.me/yasmeenbook

قالت فرشته بصوت مرتعش: «أُقسم أننا لم نكن نفعل شيئاً!».

«امضي!».

تقدّمنا، مرتجفين خوفاً إلى مدخل الحديقة. بدت شفتا رامين زرقاوين عندما قال: «دعهما يذهبان. إن الذنب ذنبي».

«صه! سوف نقتادكم جميعاً الآن».

دفع الحارس رامين كي يحثّه على الإسراع. تعثَّر رامين وسقط. وقف ثانية ذليلاً. كانت فرشته تبكي، وأشحت ببصري كي لا أراه في هذا الحال من الذلّ. كان الأمر كما لو أنني كنت أخجل من إذلاله. عند مدخل الحديقة سلموا فرشته إلى عربة للنساء، كان لها حارستان اثنتان. فكّرَت فرشته أن النساء سوف يكن أكثر تفهماً وبدأت تتوسّل وتبكي أكثر. لكن بدا أنهما كانتا أكثر صرامة من الرجال. دفعتاها إلى الحافلة. كنت على وشك أن يُغمى عليّ من شدَّة الخوف. تمسّكتُ بفستان فرشته وصرخت مرعوباً. تقدَّم الضَّابط المسؤول الذي كان رجلاً في منتصف العمر نحونا. توسّلت فرشته له: «من فضلك يا سيدي لم أفعل شيئاً. هذا الطفل أبكم ولا يستطيع الكلام. جلبتُه إلى الحديقة وقد أُصيب الآن بنوبة قلبية. من فضلك دعني آخذه إلى البيت!».

قالت المرأة المسؤولة عن الحافلة: «عودي إلى الدَّاخل!»، والتفتت إلى الضابط المسؤول قائلة: «إنها تكذب. أعرف هذا النموذج. دعني أتولَّ أمرها». صار صراخي يتعالى أكثر دون أن أعرف حتى كيف كنت أفعل ذلك. نظر الحراس إلينا بعدم يقين. قفزَت فرشته من الحافلة وقالت: «سوف يفقد وعيه! إنه مصاب بالصرع أيضاً».

t.me/yasmeenbook

قال الرجل المسؤول: «خُذيه إلى البيت».

«لا يا سيدي! كله تمثيل. انظر إلى حجابها! سوف أُهدّئ الولد بنفسي. دعني فحسب».

«زهراء، دعيها تذهب. أنتِ، امضي وغادري، لكن لا تدعيني أُمسك بك هنا ثانية».

تلقّفَت فرشته يدي وركضنا معاً نحو البيت باكيين طوال الطَّريق. عندما وصلنا إلى هناك قالت فرشته: «سوف نذهب إلى بيتي أولاً. أُمّي ليست هناك. سوف أنظّفك ثم آخذك إلى منزلك».

أخرجَت فرشته مفاتيحها وفتحت الباب بهدوء. لم يكن ثمة أحدٌ في الداخل. ارتمت على سريرها في الطابق الأعلى وبدأت تنتحب. جلستُ على الأرض وأسندتُ رأسي إلى الجدار. كنت مرهقاً للغاية فلم أستطع أن أتحرك. هدأ كلانا بعد بضع دقائق. كانت فرشته جالسة على السَّرير وقالت: «يا إلهي! هل رأيت كيف ضربوا رامين المسكين؟ ماذا عن السياط التي سوف يجلدونه بها؟ يا إلهي؟ لن يكون قادراً على تحمّلها. سوف يموت بالتأكيد!». وبدأَت تبكي مرّة أخرى. ذهبتُ نحوها. شعرتُ بالأسف عليها. لاطفتُ شعرها. عانقَتني وقالت: «ما الذي سنفعله الآن؟ هل يتوجّب علينا أن نبلّغ أهله كي يتمكنوا من متابعته؟»، مدَّت يدها وتناولت الهاتف ثم اتصلت برقم ما. بعد بضع لحظات قالت وهي تُحاول أن تضفي على صوتها طابع شخص أكبر سناً: «أوقف الحراس ابنك رامين في الحديقة اليوم. ينبغي عليك الذهاب ومساعدته على الخروج». ووضعت السَّماعة.

t.me/yasmeenbook

توقّفت نزهات الحديقة إلى حين. كانت فرشته مكتئبة ومتوترة وتتجادل في البيت على الدوام. كانت تأتي إلى منزلنا وتبكي تحت أية ذريعة. تعبت فتّانة معها. قالت ذات يوم لأمي: «لا أعرف ما الذي حلَّ بها. إنها كثيرة التشكي وفي مزاج سيّئ على الدوام. هل تذكر شيئاً ما عندما تأتي إلى هنا؟».

«لا والله. إنها تقول فقط إن خسرو يُزعجها وإنها متضايقة. ثم تذهب إلى غرفة شهاب».

«هراء! مسكين خسرو. إنه ليس ملاكاً، لكنه ليس سيّئاً كما تدعي أيضاً».

بعد عشرة أيام ظهرت فرشته سعيدة ومبتهجة ثانية، ترتدي وشاحاً ملوناً وتضع بعض الزينة. قالت: «انهض شهاب! مرَّ وقت طويل منذ أن خرجنا آخر مرّة». نظرت أُمّي نحوها متأملة. «هل أنت ذاهبة إلى الحديقة ثانية؟».

«أنا سئمة. سوف تفتح المدارس في غضون بضعة أيام، ولن يكون بوسعي اصطحاب شهاب في نزهة بعد الآن. علينا أن نستغل فرصة هذه الأيام القليلة المتبقية».

مرّ ألف سؤال في عقلي. ما الذي حدث الآن؟ هل خرج رامين؟ أليسا خائفَين من الذهاب إلى الحديقة ثانية؟ سيُغمى عليّ فيما لو رأيت الحراس ثانية.

حالما أُغلق الباب خلفنا كنت وحيداً مع فرشته، وقفتُ ساكناً، سحبتُ يدها وحدّقتُ بها. حدّقَت فرشته بي وقالت: «ماذا؟ لنذهب. هل أنت خائف؟»، هززتُ رأسي. «لا تخف. نحن لسنا ذاهبين إلى الحديقة. نحن ذاهبان إلى البقالة لنرى رامين

t.me/yasmeenbook

ثم نعود. هذا كلّ شيء». شوّهتُ تعابير وجهي مُبدياً الاشمئزاز وهززتُ برأسي. «ماذا يمكنني أن أفعل؟ ليس لدينا مكان آخر لنلتقي. ليس لدي الخيار. أنا أفقد صوابي. أشتاق إليه كثيراً. ألا تشتاق إليه على الإطلاق؟»، هززتُ رأسي ثانية. ضحكَت وقالت: «هذا لأنك لا تحبّه. أنت حتى لا تعرف ما هو الحبّ. كنت أفكّر به طوال الوقت. إنه فتى رائع. لقد كان يُفكّر بي أيضاً. كنت قلقة للغاية عليه. هل تعرف كم جلدة جلدوه؟ فتى مسكين! كان كله خطئي. إنه اليوم الأول الذي غدا قادراً فيه على مغادرة المنزل. عليَّ أن أراه. قال إن الأطباء أخبروه أنه قد يصاب بفشل كلوي بسبب السِّياط التي تلقّاها! لم يكن هذا ليحدث لو أني لم أمتنع من الذهاب إلى شقّة إسماعيل».

قال عاصي: «يا لها من كارثة! منذ الآن سوف يتوجب علينا مداومة الذهاب إلى هناك».

ذلك اليوم كانت فرشته ورامين سعيدَين للغاية. عرض عليها رامين آثار السياط بفخر. تطلّعت فرشته إليه بقلق وسألته: «هل تؤلمك؟»، أخبرها ببطولة عن كلّ ما حدث، وهي بدورها أثنت على شجاعته.

اعتادت فرشته تدريجياً لقائه في تلك الغرفة القذرة، لكني سئمتُ من هناك. كرهتُ إسماعيل الذي أرادني أن أجلس في حضنه تحت أية ذريعة. وشعرت بالضيق من أن فرشته ورامين كانا دوماً ملتصقين ببعضهما البعض. ذات يوم قال رامين: «شهاب اذهب إلى الطابق الأرضي وهات لنا شراباً». لم أحبّ الذهاب إلى الأسفل لوحدي. كنت خائفاً من إسماعيل. تجاهلته

t.me/yasmeenbook

واستدرت. أخذ رامين يدي وقال: «هيا، كن فتى طيباً. لقد وضع جانباً مثلجات بشكل خاص من أجلك أيضاً. كدماتي لا تزال تؤلمني. اذهب واجلب لنا شيئاً. أنا أموت عطشاً». نظرتُ إلى فرشته التي كانت جالسة بصمت. لم أستطع أن أفهم أي شيء من عينيها.

ذهبتُ إلى الطّابق الأرضي خائفاً. أشرت إلى المشروبات. وبابتسامة مخيفة ناولني إسماعيل قنينة وكأسين. بعد عدد من الدرجات لاحظت أنه كان يتبعني. أوقعتُ القنينة من الخوف وركضتُ على الدرج. بدا وجهه القبيح مخيفاً أكثر في سلم الدرج المعتم. كان على وشك أن يمسك بي عندما أعلنَت الأجراس أعلى باب البقالة عن قدوم زبون جديد. عاد إسماعيل إلى مكانه. صعدتُ إلى الأعلى بساقين مرتعشتين. أدرتُ مقبض الباب لكنه كان مقفلاً. ركلت الباب. كان انزعاجي يتصاعد. جلست خلف الباب وبدأتُ أبكي.

قال بابي: «نحن بائسون جدّاً. يمكن للجميع أن يفعلوا بنا ما يريدون لأننا ليس بوسعنا الكلام. لا أحد مهتمّ بنا».

كنت مستاءً من فرشته لسماحها لرامين بالقيام بذلك وعدم فتحها للباب. بعد بضع دقائق فتحَت الباب وهي تُمسك بوشاحها والمانتو، بينما تتجادل مع رامين. كان شعرها مشعثاً. وضعت وشاحها على سلم الدرج وارتدت المانتو في المحل. قفزتُ إلى الباب قبلها. بكيتُ طوال طريق العودة إلى البيت ولم تهدّئني ملاطفاتها. لم أعُد أثقِ بها بعد الآن. في الداخل شعرتُ أنها غدرَت بي وقرّرتُ ألّا أخرج معها ثانية مطلقاً. سوف أختبئ كلما

t.me/yasmeenbook

أتت، ومرة عندما حاولَت أن تُرغمني على الخروج معها صرختُ، تمسّكتُ بعمود الدرابزين وصرختُ. كانت أُمّي متفاجئة بردّ فعلي لكنها ساعدتني بأية حال.

غادرَت فرشته وانتهى لهو الصَّيف خاصتّي. كنتُ قد تعلّمتُ الكثير خلال هذا الوقت، أشياء كانت أيضاً متقدّمة جدّاً بالنسبة لعمري. كان عقلي مشغولاً. لم أفهم تماماً الكثير ممّا حدث. أحياناً كنّا نتحدث عاصي وبابي وأنا عن الأمر بارتباك. حاولت تمثيله مع شادي مرّة، لكن يَخ! شعرتُ بالقرف وقلتُ لعاصي: «أف، فمها مليء باللعاب!».

t.me/yasmeenbook

15

بدأ الأولاد المدرسة من جديد واستأنفَت حياتنا وتيرتها القديمة. لم تعاود فرشته رؤية شهاب ثانية. لا أعرف ما الذي حدث بينهما، لكن شهاب لم يعُد راغباً بالخروج معها بعد الآن. أصبح أكثر هدوءاً وانطواءً، حتى أنه لم يعُد يعدو حول الغرفة ويلعب ألعابه الغريبة. ولم يعُد يريني الرسومات التي يرسمها، وعندما رأيتها بالصدفة في بعض المرات القليلة، لم أستطع أن أفهم شيئاً على الإطلاق من خطوطها المتشابكة. مرّة عندما رآني أنظر إلى واحدة اختطفها ومزقها، وأحسست أن هناك شيئاً لم يكن ينبغي عليَّ رؤيته. مع ذلك، كان قلقي الأساسي هو علاقته بوالده. كان ناصر رجلاً مُحترماً ومجتهداً، وقد كرّس حياته لعائلته، لكنه كان يفتقر إلى شيء ما، شيء كان يجب أن يتعلّمه في طفولته.

لم يكن يعرف كيف يُعبّر عن حبّه. فقد كان يجد التعبير عن المشاعر أمراً سخيفاً، وكان يشعر بالخجل من أن يقول ذلك. وكان يعتقد أن أي شيء لا يعتمد على منطق محض، هو عديم الفائدة وغير ضروري. كان مثالياً، ولم يغفر مواطن الضعف عندي، أو عند أطفالنا على حدٍّ سواء. حاول آرش جاهداً تلبية رغبات أبيه حتى أنه ذهب إلى حد الهوس بالكمال. وقد دفن نفسه في الوظائف المدرسية والمدرّسين الخاصّين. وكان حديث ناصر عنه مليئاً بالفخر، وكان ثناء الجميع على جهوده قد جعله مهووساً بالمدرسة أكثر وأكثر. كان ناصر مقتنعاً أن شهاب قاصر عقلياً،

t.me/yasmeenbook

فأعظم تطلّعاته حول آرش بشكل أكبر. كما لو أن الطريقة الوحيدة التي يمكنه من خلالها التعامل مع وصمة العار من إنجاب طفل متخلّف، كانت في أن يجعل من ابنه الآخر عبقرياً.

كيف يمكن لمثل هذا الشَّخص أن يتفهّم وضع شهاب؟ فها لم تربطهما رابطة عاطفية صحية، كما أنهما كانا يزدادان تباعداً يوماً بعد يوم، وكنت مرتبكة وقلقة، أجرّب جميع أنواع الحيل لأخلق بينهما اتصالاً. ذات يوم ناولتُ طبق فاكهة لشهاب وطلبتُ منه أن يأخذه إلى والده، فخبط الطبق على الطاولة.

«شهاب، ما الخطب؟ وصل والدك إلى البيت للتوّ وهو متعب. خُذ له بعض الفاكهة واجلس قربه. إنه يفتقدك».

لم يبدُ مسروراً. ناولته الطبق مرّة ثانية.

«اذهب يا بُني لا تكُن شديد العناد. خذ هذا إلى والدك. ألا تحبّه؟».

ضغط شفتيه معاً ورمى الطبق. تحطم إلى أشلاء.

صاح ناصر: «ما كان ذلك؟».

نظرت إلى شهاب في ارتباك. ركض واختفى في غرفته.

«لا شيء... لقد أوقعتُ طبقاً».

t.me/yasmeenbook

16

كانت أمّي تُغيظني كلما تحدّثَت عن والدي. قال عاصي: «يا لها من بلهاء! هو ليس والدنا، إنه والد آرش. أُمّي تستطيع الكلام، وهي ذكية للغاية فيمكنها أن تعرف كلما أردنا شيئاً، إذن لماذا لا يمكنها أن تفهم هذه الحقيقة البسيطة؟ ألا تعرف أن الأطفال الجيدين، الطبيعيين، الأذكياء، الجميلين ينتمون إلى آبائهم، والأولاد البكم، القبيحين، المرضى والعاجزين عن الكلام ينتمون إلى أُمهاتهم؟ لو أنها تنتبه قليلاً إلى والد آرش لكانت ستفهم. لكن عقلها دوماً في مكان آخر. هي دوماً قلقة بشأننا. لا تلاحظ أنه عندما يناديه والد آرش، يقول دوماً: «تعال إلى هنا، يا بُني»، ويقدّم آرش بفخر على أنه ابنه أنّى ذهب. وهو عندما ينظر إليه تمتلئ عيناه باللطف والبِشر. لكنه لا يحب النظر إلينا على الإطلاق. لا يحبّ أن يرينا للآخرين. يقول لأمي دوماً: «تعالي وخذي ابنك»، قاصداً أن هذا ابنك وليس ابني. لماذا لا تفهم هذه الأمور؟ نحن لسنا بحاجة إليه بأية حال، أُمّي كافية بالنسبة لنا».

أنا حقاً لا أعرف متى وأين أصبحنا، والدي وأنا، منفصلين كثيراً عن بعضنا البعض. أول ذكرى عن انفصالنا تعود إلى اليوم الذي جلبوا فيه شادي إلى البيت. كان أبي يحملها بين ذراعيه بمحبة. برقت عيناه. اعتدت الذَّهاب إليه في ذلك الحين حال وصوله إلى البيت. كنت أذهب إلى الباب وأرفع ذراعي حتى يتمكن من حملي. كان أعلى وألطف مكان لرؤية العالم هناك في ذراعيه. كان يقول: «الآن أعطني قبلة»، وكنت أطيعه بسرور. كان

t.me/yasmeenbook

والـدي لا يـزال لـم يتخلّ بعدُ عـن التحـدث إلـيَّ ولـم يعـرف أنـي كنـت معاقـاً. لكـن فـي ذلـك اليـوم بالـذات، لـم يحملنـي مهمـا أطلـتُ رفعـي لذراعـي وأنـا أدور حولـه. حتـى أنـه لـم ينتبـه إلـي.

قبَّل شـادي أخيـراً ووضعهـا فـي مهدهـا. وعندمـا حاولـتُ تقبيلهـا أيضـاً لكـي أسـترعي اهتمامـه، دفعنـي جانبـاً. وقفـتُ قريـه يخالجنـي شـعورٌ بالعجـز والوحـدة. بـدأَت شـادي تبكـي. قفـز أبـي كـي يُحضـر أمـي، وداس علـى قدمـي الصَّغيـرة. صرخـتُ متألمـاً لكنـه كان قـد ذهـب ليجلـب رضّاعـة شـادي. عندمـا عـاد رمقنـي بنظـرة بـاردة وقـال: «لمـاذا تصـرخ؟»، لـم يلاحـظ حتـى أنـه داس علـى قدمـي. فـي اليـوم التالـي تسـاءلَت أُمـي: «لمـاذا قدمـه مرضوضـة؟»، قـال والـدي الـذي كان قـد بقـي فـي البيـت للمسـاعدة لبضعـة أيـام: «مـن يعلـم؟ ربمـا ارتطمَـت بمـكان مـا».

أظهـر لـي هـذا النقـص فـي الاهتمـام فـي ذلـك الوقـت الحسـاس أنـي لا أملـك مكانـاً فـي قلـب والـدي. بـدأتُ ابتعـد عنـه خوفـاً مـن أنـه قـد يدوسـني ثانيـة. بعـد أن عـاد إلـى البيـت عـدّة مـرات ونسـي أن يحملنـي غيـر منتبـه إلـى ذراعـي المرفوعتيـن، جلسـتُ أمـام المـرآة المثبّتـة علـى بـاب الخزانـة، ونظـرتُ إلـى نفسـي، فوجدتُنـي صغيـراً وعاجـزاً، وعاهـدت نفسـي أنـي لـن أحيّيـه مطلقـاً بقبـلات سـعيدة مـرّة أخـرى.

كنـتُ كلمـا اسـتغرقتُ وقتـاً أطـول للمبـادرة بالـكلام، ازداد والـدي بُعـداً عنّـي. كمـا لـو أن حضـوري يشـكّل إهانـة لشـخصيّته، وإسـاءة لفخـره ورجولتـه. كان ينظـر إلـى بارتبـاك متسـائلاً لمـاذا حبـاه اللّه بمثـل هـذا الابـن. هـو لـم يتكلـم معـي ثانيـة قـط. ربمـا ظـنَّ أن التحـدث

t.me/yasmeenbook

إلى شخص عاجز عن التجاوب أمر سخيف. أنا لا أقول إنه فعل كلّ هذا عن قصد، لكن وجودي أحرجه، وفهمت هذا على الرغم من صغر سنّي.

أتذكّر أوّل مرّة صُحِبت فيها إلى أخصائي بمشاكل الكلام. كانت الغرفة معتمة وكل شيء فيها بُنّي اللون. كانت هناك صورة مخيفة معلَّقة على الحائط بدت مثل فراشة رسمها رجل مجنون. كانت شادي تبلغ من العمر ثمانية عشرة شهراً ويمكنها أن تقول الكثير من الكلمات. كان كلّ تعبير طفوليّ من تعابيرها مثل صفعة على وجهي. وكان الجميع يتوجّه نحوي مستجوباً، ويتساءل: «لماذا أنت لا تستطيع الكلام؟ إنها أصغر منك وتتكلم». أصبحت مسألة الكلام تدريجياً مصدر قلق مستمرّ لي. وكلما احتجتُ لأن أقول شيئاً كان قلبي يخفق بجنون، كنت أسمع صوت صفير، وكانت الأصوات من حولي تخفت ويغدو من الصعب فهمها. قال الأبُ للطبيب: «يكاد يبلغ الرابعة من عمره ولا يستطيع الكلام بعد. فيما أخته البالغة من العمر سنة ونصف السنة يمكنها التحدث مثل البلبل». قالت أُمّي تلقائياً: «دقّ الخشب»، وقرعَت على مكتب الطبيب.

واصل والدي: «يقول طبيبه إنه لا يعاني من أية مشكلة وإنه سيبدأ عاجلاً أم آجلاً، لكنني أظن أن الوقت تأخر كثيراً. ربما يجب أن نفعل شيئاً».

«هل يعاني من أية مشاكل أخرى؟».

قالت أمي: «مؤخراً بدأ يبلل نفسه ثانية مع أنه توقّف عن فعل ذلك منذ وقت طويل».

t.me/yasmeenbook

نظـرتُ إليهـا مجفـلاً. لـم أسـتطع أن أصـدّق أنهـا تُحرجنـي بهـذه الطريقـة أمـام شـخص غريـب. كان ذلـك قـد حـدث مرتيـن فقـط وكان كلـه خطؤهـا بأيـة حـال. لـم تكـن قـد انتبهَـت وتأخّـرَت فـي الوصـول إلـي، لـذا حـدث مـا لـم يكـن يجـب أن يحـدُث.

«الأطفـال عـادة يفعلـون ذلـك للفـتِ الانتبـاه. هـل تهتمّيـن بـه اهتمامـاً كافيـاً؟».

قـال الوالـد: «نحـن نفعـل كلّ مـا بوسـعنا مـن أجلـه. لكـن يبـدو أن لديـه مشـكلة فـي هـذه الناحيـة أيضـاً. هـو بـارد للغايـة وفاتـر الشُّـعور. لـم يبـدُ يومـاً سـعيداً برؤيتـي، حتـى عندمـا كنـت بعيـداً لوقـت طويـل. وهـو يحـاول أن يبتعـد كلمـا حاولـتُ أن أعانقـه. لا يسـمح لـي بتقبيلـه ولا يعتـرف لـي بـأي جميـل. أشـتري لـه ألعابـاً لكنهـا لا تجعلـه سـعيداً حتـى ولـو للحظـة. لا ينظـر إليهـا علـى الإطـلاق».

قالـت أمـي: «هـذا ليـس صحيحـاً. هـو يلعـب بهـا فـي غيابـك. هـو فقـط لا يلاحظهـا فـي البدايـة كمـا لـو أنـه لا يميزهـا علـى أنهـا شـيء جديـد. أحيانـاً أفكّـر أنـه فقـط يتصـرّف بعنـاد».

قـال والـدي: «لكـن لمـاذا؟ إن ولـداً فـي هـذا العمـر لا يعـرف مـاذا يعنـي أن يكـون عنيـداً».

سـأل الطبيـب: «هـل يعانـي مـن أيـة مشـكلة بدنيـة؟ هـل بـدأ المشـي فـي وقتـه؟ هـل يمكنـه السـماع جيـداً؟».

أجابـت أمـي: «أنـا لسـت واثقـة. بـدأَت شـادي المشـي قبـل أسـبوعين مـن عيـد ميلادهـا الأول، لكنـه بـدأ عندمـا كان فـي عمـر خمسـة عشـر شـهراً. لا أعـرف عـن سـمعه. فحصـه الطبيـب وقـال إن سـمعه جيـد وهـو يفهـم عندمـا أتحـدث إليـه. لكـن أحيانـاً عندمـا

t.me/yasmeenbook

يشاهد الرسوم المتحركة أو يلعب لا يسمعني عندما أناديه. لديه هذه الألعاب الغريبة التي يلعبها. يركض حول الحوض لساعات وهو ينظر إلى السماء ثم يتوقف فجأة وبعد لحظة يبدأ بالركض مرّة أخرى. يبدو مجنوناً! يدوّخني لكنه لا يصغي عندما أطلب منه أن يتوقف».

تقدم الدكتور إلى الأمام: «ضعه على السَّرير».

لا أحبّ الأطباء. إنهم متقلبو المزاج. أحياناً قد يعطونك حلويات، وفي أحيان أخرى قد يحقنونك بإبرة دونما سبب، مُدّعين أنها لا تؤذي على الإطلاق! إن ذلك القول يغضبني أكثر من الإبرة ذاتها. ويجعلني راغباً في أن أغرز الإبرة فيهم، فقط لأرى ما إذا كانت تؤلم أم لا. كان لطبيبي شعر جميل أبيض. وكان لطيفاً وقصير القامة. لكنه بشاربيه الكثّين، الداكنين، وكبيري الحجم ذكّرني بشخصية شرير من الرسوم المتحركة. لم يكن محبوباً على الإطلاق. لا سيّما أنه ناقش جميع مواطن ضعفي مع والديّ أمامي وجعلهما يقارناني بشادي وبإنجازاتها. رفعني أبي عن الأرض. لم أحبّ الجلوس على أسرّة الفحص. صلّبتُ ساقيّ فلم يعُد قادراً على إجلاسي. أرغمني على الجلوس بنظرة قاسية.

قال للطبيب: «انظر! لا أفهم لماذا هو حرون للغاية أحياناً». لم يُجِبه الطبيب وبدأ يفحص أذني، حلقي، قلبي، ومعدتي. كانت السَّماعة باردة وجعلتني أرتجف.

«ابقَ ساكناً!». رفع السَّماعة وقرّب وجهه من وجهي وقال: «يمكنك سماعي، أليس كذلك؟».

t.me/yasmeenbook

نظـرت إلـى شـاربيه الأسـودين. كانـت اثنتـان مـن الشـعيرات البـارزة مـن أنفـه بيضـاوان. قـال بابـي: «يبـدو مثـل مخـاط!»، أردت أن أضحـك. ظلّ الطبيـب يتحـدث لكـن كلّ انتباهـي كان منصبـاً علـى شـاربيه اللذيـن كانـا يتحـركان للأعلـى والأسـفل بطريقـة مقرفـة. فكّـرت ربمـا أنهمـا ليسـتا شـعيرتين بيضاويـن فـي النهايـة وكانتـا حقـاً مخاطـاً خارجـاً مـن أنفـه. أشـحت بوجهـي.

ناداني الطبيب باسمي وأدار وجهي ثانية وقال: «انظر إلي».

أشـحت بوجهـي بقـوة. قـال بابـي: «أفّ.. لمـاذا لا ينظّـف أنفـه؟ هـذا مقـرف!».

أدار وجهـي ثانيـة: «انظـر هنـا يـا بُنـي. صفـق بهـذه الطريقـة». صفـق بيديـه معـاً مُصـدراً ضجـة مرتفعـة. «دعنـي أرى تصفيقـك».

نظـرت إليـه بمـرارة. قـال بابـي: «أبلـه! هـو يظـن أننـا فـي عمـر شـادي ونحتـاج لأن نلعب ألعـاب التصفيـق». شـعرتُ بالإهانـة. صالبت ذراعـيّ وأدرت رأسـي بعيـداً.

كان غضـب الطبيـب يتعاظـم. ومـن صالة الانتظار سـمعنا أصوات الأطفـال وهـم يبكون ويتصارخـون. أقحمَت موظفة الاسـتقبال رأسـها وقالـت: «أيهـا الطبيـب إنهـم يُحدثـون جلبـة فـي غرفـة الانتظـار. لا يـزال هنـاك الكثيـر مـن المرضـى ينتظـرون. وأنـت لـن...».

أشـار لهـا الطبيـب أن تذهـب إلـى مكتبهـا، ثـم التفـت نحـوي وقـال بقسـوة: «هـل فهمـت مـا طلبـتُ إليـك فعلـه؟ صفّـق بيديـك معـاً».

أشـحت برأسـي وضغطـت ذراعـي المتصالبتيـن بشـدّة علـى صـدري.

كان انزعـاج الطبيـب باديـاً. فـكّ ذراعـيّ بسـهولة. لكـنّ الجهـد الـذي بذلـه ليضـم كفّـيّ معـاً بالقـوة، وتهجُّمـه علـى مسـاحتي

t.me/yasmeenbook

الشَّخصية، وانتصاره الأخير علي، جعلتني أمتقع. كان عليَّ الدفاع عن نفسي. أحنيتُ رأسي نحو يد الطبيب التي كانت تمسك بيدي بشدّة، وعضضتها بأسناني الصغيرة الحادة بقوة.

صاح الطبيب متألماً وأفلت يدي. كان عليَّ أن أركض هارباً. مع أن السرير كان مرتفعاً، قفزت وركضت نحو الغرفة الأخرى. نظر والداي مصدومين. نهض والدي ليتبعني، لكن الطبيب قال: «دعه يذهب ليس مهماً. إنها ليست فقط مشكلة في النطق. أظن أنه يعاني من مشاكل عقلية أيضاً. علينا القيام ببعض الاختبارات. سوف تكون باهظة الثمن بعض الشيء. يمكنك أن تسأل موظفة الاستقبال عن المزيد من المعلومات. اتصل للحصول على موعد عندما تقرر القيام بها». وفتح الباب كما لو أنه لم يستطع الانتظار ليتخلص منا. حملت أُمّي شادي بسرعة، حملت حقيبة يدها وغادرَت الغرفة. وصل أبي إليّ ببضع خطوات، ثم حملني وغادرنا.

لم يعيدوني لإجراء الاختبارات. كانت أُمّي معارضة للأمر منذ البداية. قالت: «هذا الطبيب لا يفقه شيئاً. الطبيب طبطبائي كان على حق، فقد قال إنه لا يعاني من سوء، وإنه سيبدأ الكلام من تلقاء نفسه في وقت ما». غيرّ أبي رأيه عندما عرف كلفة الاختبارات. لكنه كان الآن مقتنعاً أني أعاني من مشكلة عقلية تسبّب عدم الكلام عندي. احتفظ برأيه لنفسه بالطبع لأنه لم يرغب في أن يشهد على ردّ فعل أُمّي المؤلم. أخيراً، ولكي يتّخذ قراراً نهائياً حول صحّتي العقلية، قرّر أن يجرب مرّة أخيرة ليرغمني بطريقة ما على الكلام، أو ينطق بحُكمه النهائي في مسألة ما إذا كنت سأبقى مُعاقاً إلى الأبد.

t.me/yasmeenbook

تضاعفت مشاكلي منذ ذلك الحين. كان والدي يأتي إلى البيت من العمل متعباً. كان يغتسل ثم يناديني. ولكم حاول أن يكون هادئاً ومبتهجاً، لكن كرهه للمسؤولية التي أخذها على عاتقه كان واضحاً. كان يُجلسني بالقرب منه بصبر زائف ويقول: «شهاب، قل (تفاحة)، (تفاحة)!». كنت أضغط شفتيّ معاً وأحدّق بالأرض مستعداً لأن أركض عند أول فرصة. كان أبي يكرّر: «افعل مثل هذا وقل (آ)». ويبدأ صوته بالارتعاش، دالاًّ على توتره الداخلي، وكان يخيفني أكثر وأكثر. ثم يبدأ الجدال: «إنه سهل، فقط قُل (تفاحة)! ألا تفهمني؟».

كان لساني ينعقد تماماً. وقلبي يخفق بسرعة، كنت أضغط شفتي معاً، مؤلمٌ جداً التحدّث مع هذا الرجل. كانت شادي تحرّر نفسها من أي مكان كانت أُمّي تحبسها فيه، وتركض نحونا. أو ربما قد تتركها أُمّي تذهب عن قصدٍ فتأتي وتنقذني. كانت تشقّ طريقها ضاحكة نحو ذراعَي والدي دون أيّ احراج. فتفتر شفتاه عن ابتسامة ويقول لأُمّي التي كانت قد أتت لتبعد شادي: «دعيها تبقى، إنها لا تزعجني». ثم يحتضنها ويقبّل رأسها. لم أودّ مشاهدة هذا المشهد على الإطلاق. بعد ذلك كان الدرس يتغير. لكن والدي الذي لم يستسلم بعد كان يواصل: «قل (تفاحة)».

ثم تصيح شادي باعتزاز: «تفاحة!». ولو لم تكن بين ذراعيه، لكنت لطمتُها على رأسها.

«فقط أصدر صوتاً فأعرف أن لديك صوت. ماذا تقول القطة؟».

فتنطلق شادي بصوتها الثاقب قائلة: «مياو!»، وقد تستمرّ

t.me/yasmeenbook

بالتباهـي ويصبـح أبـي مسـتغرقاً معهـا أكثـر فأكثـر ناسـياً أمـري، ومانحـاً إياي فرصـة للهـرب والاختبـاء فـي غرفتـي. بعـد حيـن، تركنـي أبـي وشـأني وانتهـت دروسـنا البائسـة.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

17

كان الخريف في أيّامه الأخيرة حين جاءت فرشته في حوالي السَّاعة الرابعة من بعد الظُّهر. كانت تبدو شاحبة وأكثر نحولاً. ركضتُ على الدَّرج لكني جلستُ قرب الدرابزين لأسمع ما تقول.

طلبَت فرشته من أمي: «قولي لشهاب أن ينزل. أريد أن أصحبه إلى الخارج». تطلّعت أُمّي إليها متفاجئة وقالت: «ما الذي يجري مرّة أخرى؟ لماذا تريدين أن تصحبيه إلى الخارج؟ بدأت المدرسة ولقد تناهى إلى مسمعي أن لديك الكثير من الواجبات المدرسية. الطقس بارد في الخارج وقد أخذ الظلام يهبط باكراً. أظن أن هذه النزهات لم تعُد فكرة جيدة بعد الآن».

«فقط أريد أن أستريح قليلاً في الحديقة. سوف آخذ كتبي وأدرس بينما يلعب شهاب. لقد سئمت من المنزل. يمكنني الدراسة بشكل أفضل خارجاً في الهواء الطلق».

قال عاصي: «يا لها من كذوبة! لا نذهب معها!».

قالت أمي: «أنا لست واثقة. ما تفعلينه يعود إليك وإلى والديك. لكن لا أظن أن لدى شهاب رغبة حقيقية بالذَّهاب».

«هل يمكنني أن أسأله بنفسي؟».

ركضتُ إلى غرفتي، اختبأت تحت البطانية وتظاهرتُ بأني نائم. دخلَت فرشته. جلسَت قرب السَّرير وقالت بصوت هادئ: «انهض! كُفَّ عن التصرف مثل ولد مزعج. إنه ليس وقت القيلولة. لنذهب إلى الحديقة». أدرتُ لها ظهري. «أعِدُك بأننا سنذهب إلى الحديقة فقط. رامين يرغب برؤيتك حقاً. لقد اشترى لك سيارة جميلة. هيّا! لقد تأخّرت».

t.me/yasmeenbook

أثار صمتها المفاجئ فضولي. اختلستُ النَّظر من تحت الغطاء . كان لونها شاحباً وهي تنظر إلى أُمّي الواقفة بالباب. لم نكن واثقين كم طال وقوفها هناك وماذا سمعَت. تمتمت فرشته: «إنه يتظاهر بالنوم».

نظرت أُمّي إليها بارتياب وقالت: «دعيه يفعل. أنت تعرفين كم هو عنيد. لن يفعل شيئاً لا يريد فعله. فقط سيتسبّب لك بالمتاعب لو أنك أرغمتِه على الذهاب. إذا كنت تشعرين بالملل في البيت، فقط ابقي وادرسي هنا».

ضحك عاصي وقال: «أُمّي حمقاء للغاية!»، دسسنا رؤوسنا تحت البطانية وضحكنا.

نهضَت فرشته بحزن وربتت على ظهري عبر الغطاء وقالت: «إذن سوف تتركني في حيرة أيضاً...»، ثم غادرت.

كانت الظلمة على وشك أن تخيّم عندما ضغط أحدهم على جرس الباب. ضغطت أُمّي زرّ فتحِ الباب فانفتح. جاء خسرو راكضاً إلى الصالة. قال حالما رآني: «أوه! إذن لقد عدت؟ أين فرشته؟ لماذا لم تأتِ إلى البيت؟»، صرخ: «فرشته! أين أنت؟ أسرعي! سيكون أبي في البيت قريباً».

تقدَّمت أُمّي وقالت: «خسرو، ما الأمر؟ هل تبحث عن فرشته؟».

«أوه مرحباً! نعم. لماذا تتوانى هنا؟ قولي لها أن تأتي إلى البيت».

«فرشته ليست هنا».

«إذن كيف عاد شهاب إلى البيت؟ ألم يكن معها؟».

t.me/yasmeenbook

«لا. فرشته جاءت ساعة العصر لتأخذه، لكنه لم يذهب. ألم تعُد بعدُ؟».

«إذن مع من ذهبت؟».

«ربما ذهبت بمفردها. أرادت أن تذهب إلى الحديقة لتدرس».

أسرع خسرو بالخروج من المنزل دون أن يقول وداعاً. وعاود الظهور بعد خمس دقائق مع فتّانة.

«مريم، أين فرشته؟».

«لا أعرف. جاءت إلى هنا مع الغروب لتأخذ شهاب، لكنه لم يكن بحالة جيدة ولم يرافقها. اعتقدت أنها عادت إلى البيت».

«لا، لم تعُد! ماذا سأفعل؟ سوف نكون في ورطة لو عرف والدها».

«ليس الوقت متأخراً كثيراً. كانت تحمل معها كتبها. أرادت أن تدرس».

أجابت فتّانة بخيبة أمل: «الطقس بارد ومظلم في الخارج! يا لها من كاذبة. مثل حسَني الذي لم يذهب إلى المدرسة، وعندما ذهب كان يوم جمعة!»[11].

«ربما ذهبت لتدرس مع صديقة لها».

«أية صديقة؟».

«كيف لي أن أعرف؟ أنت تعرفين صديقاتها. أليس لديك أرقام هواتفهن؟ اتصلي بهن وانظري ما إذا كانت هناك؟».

«في مثل هذا الوقت من الليل؟».

---

(11) مثل فارسي عن فِعل الأشياء في غير وقتها.

t.me/yasmeenbook

«لا تنتبه الفتيات للوقت مطلقاً عندما يكنّ معاً».

قال خسرو: «ربما ذهبت إلى سوسن ثانية. رقمها في دليل الهاتف. لنتصل بها».

«حسناً. آسفة لإزعاجك يا مريم. من فضلك لا تُخبري ناصر. الحمد لله أن أمه عادت إلى البيت، وإلا لكانت سريت الأمر إليه. سوف تظهر على الأرجح قريباً أينما كانت».

«أعلميني عندما تعود».

«حسناً».

التفتت أُمّي إليَّ حال مغادرتهما: «أنا مسرورة أنك لم تذهب معها. لماذا لم ترغب بالذهاب؟ هل تعرف أين هي؟»، هززت كتفي.

بعد ساعة وصل أبي وآرش إلى البيت. كان آرش المسكين مرهقاً للغاية وبالكاد يستطع أن يمشي. هرعت أُمّي إليه وساعدته في خلع حقيبة الظهر خاصّته وقالت: «اذهب واغتسل. العشاء جاهز. أنت متعب للغاية، ألست كذلك؟».

ظل آرش ينوس برأسه الوسنان على العشاء. قالت أمي: «آرش، تناول طعامك واذهب إلى النوم».

«لا أستطيع. يجب عليَّ أن أدرس من أجل اختبار الغد».

«لا، عزيزي. اذهب للنوم. أنت مرهق للغاية لتدرس الآن. سوف أوقظك باكراً غداً».

تناول آرش بضعة ملاعق وجرّ نفسه إلى غرفته.

سألَت أُمّي والدي: «لماذا تثقل عليه كثيراً؟ لماذا يحتاج إلى دروس إضافية في الرياضيات؟ إنه يُبلي بلاء حسناً في المدرسة».

t.me/yasmeenbook

«لا، ليس صحيحاً! لقد حصل على علامة (ب) في الرياضيات».

«تلك علامة جيدة في مستواه. هو لم يعُد في مدرسة ابتدائية بعد. وإن مواده أكثر صعوبة الآن. فلا يمكنه الحصول دوماً على علامة ممتاز (أ)».

«بالطبع يستطيع! على ابني المشاركة في أولمبياد الرياضيات. إن لم نعتنِ به الآن لن يحصل مطلقاً على الجائزة الأولى».

«وما المشكلة في هذا؟ صحّته أكثر أهمية من أية جائزة! لماذا تهتمّ كثيراً حول كسبِه للجائزة الأولى بأية حال؟».

«أنا قلقٌ حول مستقبله. على هذا الولد أن يكون فخرنا وفرحنا».

«إذن هذا هو! مستقبله مجرّد عذر. أنت فقط تفكّر بنفسك. تريد أنت تتباهى وتُخبر الجميع أنه الأول في صفه. أنت لا تهتم إذا ما انهار تحت كلّ هذا الضَّغط».

تناولَت أمّي الأطباق بغضب ووضعَتها في حوض الجلي. قال عاصي: «حسناً فعلَت! أُمّي حقاً ذكية أحياناً». كنت أفرّش أسناني عندما رنّ جرس الباب. تناول أبي سماعة الهاتف الداخلي وأصغى إلى المنادي. قال: «إنه أخي! ما الذي يفعله هنا في هذا الوقت من الليل؟»، فتح الباب الذي أقفله للتوّ. دخل عمي وخسرو وفتّانة جميعهم. قال أبي: «ما الذي يحدث؟».

«أنا هالكة! فرشته مفقودة!».

سألت أُمّي فتّانة: «ألم تكن عند صديقتها؟ هل اتصلت؟».

«نعم، اتصلنا بكل الأرقام الموجودة في دفتر عناوينها. لا أحد يعرف أين هي!».

t.me/yasmeenbook

سأل أبي: «ألم تقل إلى أين هي ذاهبة؟ هل ذهبت دون أن تطلب الإذن؟ متى ذهبت؟».

«لا أعرف! اسأل أمها!».

انفجرت فتّانة بالبكاء. «ذهبت لتأخذ شهاب إلى الخارج كما اعتادت أن تفعل. فتاتي المسكينة لطيفة للغاية أرادت أن تفعل شيئاً من أجل هذا الطفل. اعتقدَت أنها تستطيع أن تحمله على الكلام. منذ بداية الصيف وهي تُمضي عدة ساعات يومياً محاولة أن تعلمه بعض الأشياء. كنت أطلب منها أن تتوقف، أن تولي اهتماماً أكبر لواجباتها المدرسية. قلت لها إنه مضيعة للوقت. لكنها كانت تشعر بالأسف عليه. قالت إن على أحدهم أن يفعل شيئاً. أرادت أن تسعد عمها. اليوم عندما أتت لتأخذ شهاب لم يذهب معها. لا أعرف أين ذهبت!».

كانت أُمّي متفاجئة وأجابت بحدَّة: «ماذا تقصدين، كلّ يوم؟ لقد مضت أكثر من ثلاثة أشهر على آخر مرّة ذهب فيها شهاب معها!».

«ماذا. ألم تأخذ شهاب إلى الحديقة؟ لقد أتيتُ وسألتك بنفسي مرّة!».

«ذلك كان في الصَّيف. كانت تأتي وتأخذه إلى الحديقة خلال مدة شهر، أو شهر ونصف. لكن شهاب لم يعُد بعدئذٍ يرغب بالذهاب، وحينما جاءت عصر اليوم. لم يرغب شهاب بمرافقتها هذه المرّة».

حدّق كلّ من عمي، وفتّانة، وخسرو بأُمّي بارتباك. استوعب عمي الوضع قبل البقية وتضاعف غضبه. التفَت إلى فتّانة وقال:

t.me/yasmeenbook

«إذن أين كانت تذهب عصر كلّ يوم؟»، بدأت فتّانة تتلعثم. شحب لونها وقالت: «أنا حقّاً لا أعرف! مريم هل أنت واثقة؟ ربما أخذَته من الشارع وأنت لم تلاحظي».

كان غضب أُمّي واضحاً الآن: «ما الذي تقولينه؟ منذ متى يخرج أطفالي إلى الشَّوارع دون علمي؟ أنا أتحقّق كلّ خمس دقائق. كيف يمكن أن يذهب لساعتين دون أن أنتبه؟ لا! أينما ذهبَت فهي قد ذهبت بمفردها وليس مع ابني».

صرخ عمي في وجه فتّانة: «الذَّنب كله ذنبك، يا امرأة! أسلوبك في تربية أولادك، كلّ واحد أسوأ من الآخر! أي نوع من الأمهات أنت؟ كانت ابنتك تخرج لساعتين كلّ يوم وأنت لم تعرفي قط مقصدها؟».

«ما الذي تنتظره مني؟ هي ليست فقط ابنتي! لماذا لم تنتبه بنفسك؟ ابنتي المسكينة أرادت أن تساعد ابن أخيك. هل توقّعتَ مني أن أرفض؟».

«ألم تفهمي بعد أنه كان مجرد عذر؟».

تقدم والدي وقال: «هذا ليس وقت جدال. المسألة الأهمّ الآن هي العثور على فرشته. هل لديك أي فكرة أين يمكن أن تكون؟».

«لقد اتّصلتُ بجميع صديقاتها وهي ليست عند أية واحدة منهن».

«ماذا عن العائلة؟ ربما هي في منزل جدتها؟».

قالت فتّانة: «لا! لو عرفوا فسوف يكون الأمر مريعاً. مريم من فضلك احتفظي بهذا لنفسك. لا تدعي أحداً يعرف».

t.me/yasmeenbook

«لا تقلقي. أنا لا أرى أحداً مطلقاً بأية حال، ولا أمضي ساعة كلّ يوم على الهاتف مع عائلة زوجي معطية إياهم تقريراً عن كلّ ما يجري!».

كانت فتّانة مبلبلة. قال والدي: «قد تذهب إلى أحد الأقارب إذا كانت متضايقة. هل تجادلتما أنتما الاثنتان؟ هل كانت منزعجة قبل أن تغادر؟».

«لا، لم نتجادل. أنا فقط قلت لها أن تترك هذا الطفل وشأنه. قلت إنه لو كان قابلاً للتحسّن لكان تحسّن الآن. لم تُجِبني. لم تكن على طبيعتها مؤخراً. إنها أكثر انطوائية ولقد فقدَت الكثير من وزنها. إنها مكتئبة. اعتقدتُ أنه كان بسبب كونها قلقة بشأن شهاب». تكلّفت أُمّي الابتسام. قال عمي: «أظن أن علينا أن نتصل بأُمّي. نحن لسنا بحاجة إلى قول أي شيء. سوف نعرف من نبرة صوتها إذا كان شيء ما يحدث».

قالت فتّانة: «تحدثتُ إليها لساعة عصر اليوم. سوف ترتاب لو أتصل ثانية. ربما يجب على مريم أن تتصل بها».

«أنا؟ سوف تكون أكثر ارتياباً لو اتصلتُ لأني لا أتصل بها إلا إذا كان لدي شيء هام أودّ أن أقوله».

قال والدي: «هل تريدني أن أتصل فقط لأرى كيف حالها؟».

قال عمي: «نعم، ناصر، اتصل أنت. سوف تُخبرك إذا كانت تعرف شيئاً».

تناول أبي الهاتف وتحدَّث إلى الجدَّة والعمَّة شاهين. اتصلت فتّانة بأخواتها أيضاً لكن كل هذا كان عديم الجدوى. بدأت فتّانة تبكي. ظلّ عمي يذرع غرفة الجلوس بقلق. كنت مشوشاً.

t.me/yasmeenbook

كان عاصي وبابي صامتين أيضاً. قال والدي: «يجب أن نتصل بالشُّرطة».

قالت فتّانة: «اللهم خذ روحي.. لا!».

قفزت أُمّي فجأة كما لو أنها وجدت حلاً: «أعرف! ربما أخذوها».

«من أخذها؟».

«شرطة الآداب! لا تقلقي. إنه أمر تافه. هم يوقفون هذه الأيام المراهقين والمراهقات باستمرار في الحديقة».

«من أجل ماذا؟».

«لأسباب مختلفة، أهمّها الحجاب غير اللائق».

قال والدي: «مريم على حقّ. ربما ذهبت إلى الحديقة بعد أن غادرت من هنا. ألم ترَ كيف يجمعون المراهقين كلّ ساعة ويأخذونهم إلى المخفر».

قال عمي بغضب: «تلك الفتاة السفيهة! سوف ألقّنها درساً! كيف كانت مكتسية؟».

حاولت أُمّي أن تهدّئه: «ليس الأمر أن تكون المرأة مكتسية بشكل غير ملائم لكي تجد شرطة الآداب عيباً فيها».

«إذن ماذا الآن؟».

قال أبي: «لا شيء. سوف نراجع المخافر ونعثر عليها».

«سوف أقتلها».

«اهدأ يا أخي. لنعثر عليها أولاً».

قالت أمي: «حسين أغا، لا تزعج نفسك. كلّ ولي أمر هذه الأيام لديه مراهق، أوقفت شرطة الآداب ابنه. عندما كنت لا

t.me/yasmeenbook

أزال أعمل في المكتب كان لدى كلّ واحد من زملائي قصَّة عن أولادهم وكيف قبضت عليهم شرطة الآداب. هذه الأمور شائعة الآن كثيراً. لا تحمّل الأمر أكثر ممّا يحتمل. يجب أن تقدّر النِّعمة إذا عثرت عليها هناك، قد يكون أسوأ بكثير». حدّق الجميع بأمي كما لو أنهم كانوا يتخيّلون شيئاً مريعاً.

أرسلوا خسرو إلى البيت كي يتمكّن من إعلام الجميع إذا ما عادت فرشته، أو إذا كان هناك اتصال هاتفي. غادر أبي وعمي بالسيارة للتحقّق في مخافر شرطة مختلفة. بقيَت فتّانة مع أُمّي كي لا تفقد صوابها من شدَّة القلق. غطّت شادي في النَّوم على الأريكة دون أن يلاحظ أحد. حملَتها أُمّي وصعدت إلى الطابق الأعلى. ركضتُ إلى غرفتي وتظاهرتُ بالنَّوم. أضجعَت أُمّي شادي في سريرها، ثم جلسَت على سريري. خلعَت جواربي ودثّرتني. ربتت على رأسي وقبّلتني بنعومة على خدي. لكم أحببتُ ذلك.

t.me/yasmeenbook

18

استيقظتُ في منتصف الليل على صوت جرس الباب وأصوات تتحدّث. أنا لست على يقين ما إذا كنت قد نمت على الإطلاق. صعدتُ الدرج. كانت أُمّي وفتّانة تستجوبان أبي وعمي.

«ما الذي حدث؟ هل عثرتما عليها؟».

كنت جالساً في العتمة، متّكئاً على الدرابزين. كان عمي محدودب الظهر وقد ساعده أبي في الجلوس على الأريكة. شدَّت فتّانة شعرها وبكت. «ما الذي حدث له؟».

«لا شيء، تشنّج ظهره ثانية. لم نستطع العثور عليها».

سألَتهما أُمّي بقلق: «ألم تكن هناك؟ أين ذهبتما؟».

«في كلّ مكان. ذهبنا إلى جميع مخافر الشُّرطة. حتى أننا سألنا في جميع مستشفيات هذه النواحي. كان علينا أن نُعلم الشُّرطة. لا أحد يعرف شيئاً. نحن سنذهب إلى المشرحة في الصَّباح».

صرخت فتّانة وأغمي عليها على الأريكة.

قالت أمي: «انتبه لما تقوله في حضرة المرأة المسكينة!».

بدا كما لو أن تلك الليلة الصعبة لن تنتهي مطلقاً. فردوا غطاء على الأرض فتمدّد عمّي على سطح قاس. استلقى محدقاً بالسقف. جلس البقية على الأريكة. لم تتوقّف فتّانة عن البكاء. وقفتُ وعدت إلى غرفتي.

استيقظتُ باكراً بفعل كابوس في اليوم التالي، أتصبّب عرقاً. كانت شادي لا تزال نائمة والهدوء يعمّ المكان. خرجتُ من

t.me/yasmeenbook

الغرفة وفتحت باب غرفة نوم والديّ برفق. لم يكونا قد ناما في سريرهما. كنت أخشى أنهما غادرا المنزل. هبطتُ الدَّرج بهدوء. شعرتُ بالاطمئنان عندما رأيت أبي نائماً على الأريكة. ذهبتُ إلى المطبخ باحثاً عن أُمّي، لكنها لم تكن هناك. شعّ ضوءٌ خافت من تحت باب غرفة آرش. أقحمت رأسي في الغرفة. كان جالساً خلف مكتبه يدرس. كانت أُمّي ممدّدة على سريره. دخلتُ ببطء ووقفت إلى جانب السَّرير. تفاجأت أمّي لرؤيتي. «لماذا أنت مستيقظ في هذا الوقت المبكّر؟ الساعة لا تزال السَّادسة والنِّصف! لقد نمتَ حقّاً متأخراً ليلة الأمس». استلقيتُ إلى جانبها وضغطت نفسي عليها. شعرتُ بالأمان قربها. التفت آرش وسألها: «هل كان مستيقظاً عندما جاء عمي؟».

«نعم، لكني لم أنتبه متى خلد إلى النَّوم».

«إذن كلّ ذلك (القلق) على شهاب كان كذبة؟».

قالت أمي: «كنتُ مرتابة منذ البداية».

«إذن لماذا سمحتِ لها أن تأخذ شهاب إلى الحديقة؟».

«لأن فرشته مختلفة عن البقية. إنها فتاة عذبة. وعندما كان شهاب صغيراً أحبّته بحقّ».

«نعم، لكن ما أن أتت شادي حتى انصرفَت عنه. إذن ما الذي سيحدث الآن؟ هل سيجدونها؟».

«الله وحده يعلم. وحتى لو وجدوها، فمن يعلم في أية حال قد تكون. علينا الآن أن نصلي فقط. ليكن الله في عون فتّانة المسكينة».

«هل سيوصلني أبي إلى المدرسة اليوم؟».

t.me/yasmeenbook

«كلا يا أمّي. دعه ينام قليلاً. كان مستيقظاً طوال الليل وعليه أن يقلّ عمك عند الساعة الثامنة. ينتظرهما يوم شاقّ».

«حسناً، سوف أذهب إلى المدرسة بمفردي. لدي حصَّة لغة إنجليزية بعد الظهر، لذا فليس عليه أن يقلني أيضاً. سوف أعود إلى البيت في ما بعد».

«لا تحضر حصّة ما بعد الظهيرة. لا أحب أن تأتي إلى البيت لوحدك في المساء».

«أنا لست فتاة. لن يخطفني أحد!».

«أعرف، لكن فقط لا تحضرها هذه المرة! هل ستُطبق السماء على الأرض».

«أودّ ذلك، لكن أخشى أن أبي سوف يغضب مني إن لم أذهب».

«سوف أتولّى أمره. فقط أسرع بالعودة إلى البيت. قد نحتاج إلى مساعدتك هنا».

لم أتمكن من تناول الفطور. شعرتُ بقلبي يضطرب. ما الذي حلَّ بفرشته؟ هل فعل لها رامين شيئاً؟ ما الذي فعلاه في تلك الغرفة بأية حال؟ أتمنى لو أنهما لم يذهبا قط إلى تلك الشَّقة القذرة. لماذا لا يسمح لهما الحرّاس بالذهاب إلى الحديقة؟ لقد أحسنا التصرّف فيها ولم يفعلا قط أي شيء سيّئ. لقد كانا يتحدّثان وحسب.

جاءت فتّانة إلى بيتنا بعد مغادرة أبي وعمي. كانت لا تزال تبكي. حاولت أُمّي مواساتها لكن كان واضحاً أنها لم تصدّق حتى ما قالته بنفسها. جلبت أُمّي صينية الفطور إلى الصالة. أجلست شادي أمامها وأطعمتها. قالت فتّانة: «من الذي يمكنني التحدّث

t.me/yasmeenbook

معه عمّا حلّ بنا؟ يا لها من فضيحة! يا له من بؤس! ما الذي فعلتُه من خطيئة لتحلّ بي هذه المصيبة؟».

حاولت أُمّي مرّة أخرى تهدِئتها بكلمات مليئة بالأمل. وللمرة الأولى تصرّفتا كما لو أنهما صديقتان. لم ترغب أي منهما أن تثبت تفوقها على الأخرى. لم تتبادلا الهمز واللمز. كانت كلتاهما مكروبتين وحزينتين بحقّ. شعرت بأن قلبي يحترق على فتّانة. كانت شادي تلعب وتتجاهل الفطور. كانت أُمّي تتحدث إلى فتّانة وقد نسيت أمر الخبز المحمَّص والمربى في يدها. قالت فتّانة: «إذن كانت تكذب كلّ مرّة عندما قالت إنها ذاهبة إلى الحديقة؟ متى توقَّف شهاب عن الذهاب معها؟».

«منذ وقت طويل. أظن أن هذا حدث في شهر آب. عادا ذات يوم وعرفتُ أن شهاب كان يبكي. عندما جاءت فرشته لتصحبه في اليوم التالي رفض حتى أن ينزل ليراها. وعدَته بالمثلجات والألعاب، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. كنت متفاجئة بعض الشي من إصرار فرشته المفرط».

«ما الذي حدث بحسب ظنك؟».

«سألتُ فرشته فقالت إن شهاب كان يلعب على الأراجيح وكان جالسة على الأرض قربه، لكن حينها رأت بعضاً من صديقاتها، فذهبت معهن لتشتري شيئاً من كشك للطعام. فاستاء شهاب عندما لاحظ أنها ذهبت. واعتقد أنها تركَته فلم يعُد يخرج معها بعد ذلك».

«يبدو هذا صحيحاً».

t.me/yasmeenbook

«لا أعرف. شهاب دوماً حسَّاس إزاء أن يُترك بمفرده. في ذلك الوقت عندما اعتدتُ على الذَّهاب إلى العمل كان يبكي طوال اليوم عند مغادرتي، كما لو أنها المرة الأولى التي يُترك فيها بمفرده. أظن أنه دوماً يخشى من أننا سنتركه لوحده. كنّا كلما ذهبنا إلى الخارج يمسك بيدي بشدّة، كما لو أنه خائف من أني سأهرب! لكن غضبه نحو فرشته استمر لوقت طويل. أظن أنه لا بدّ وأن يكون له سبب آخر».

«أتمنّى لو أنه يستطيع الكلام. أتمنّى لو أنه كان سبباً مختلفاً».

احتدّت أمي: «مختلف كيف؟».

«آسفة! أرجوك لا تتضايقي. لا أستطيع أن أمنع نفسي. لا أشعر أني بخير على الإطلاق. من فضلك لا تستائي مني. أنت سندي الوحيد الآن. أقصد فقط أنه سيكون أمراً عظيماً لو كان بوسعه الكلام. ربما يعرفُ شيئاً قد يساعدنا».

«انتظري! أطعمي شادي فطورها وسوف أذهب وأتحدَّث إليه».

كنت جالساً على السُلّمة الدنيا طوال هذا الوقت، أرهف السمع إليهما.

قال عاصي: «ما الذي علينا فعله؟ هل علينا أن نخبرهم؟ هل علينا أن نأخذهم إلى البقالة؟».

قال بابي: «لا! هل تتذكر كيف كانت خائفة من أن يعرف أحد بأمر المكان؟ ماذا لو أخبرناهم وعرف عمّي بالأمر؟ قالت إنه إذا عرف فقد يقتلها».

واصل عاصي: «وإسماعيل! ماذا لو أنه أراد أن يعانقنا أو يتبعنا ثانية؟ لكم أكرهه».

t.me/yasmeenbook

توجَّهت أُمّي نحو الدَّرج. ركضتُ إلى الأعلى، دخلت غرفتي، واختبأت تحت بطانيتي سريري العبِث الذي لم يكن لديها الوقت لترتيبه ذلك اليوم. سحبَت البطانية عني برفق وقالت: «شهاب، عزيزي، انهض. أعرف أنك لست نائماً».

جلستُ لكن أبقيت على رأسي منخفضاً، ولم أنظر إليها. وضعَت أُمّي إصبعيها تحت ذقني ورفعت وجهي ببطء. نظرَت في عيني وقالت: «شهاب، هل تفهم ما الذي حدث. أظن أن أحداً قد خطف فرشته. علينا أن نجدها. هل ستساعدنا؟».

قال عاصي: «نحن؟ نساعدهم؟ نحن؟ لكننا أغبياء ولا يمكننا الكلام!».

واصلت أمي كلامها: «عزيزي، سوف أطرح عليك بضعة أسئلة وأريدك فقط أن تصغي إليّ. ولو أحببت فيمكنك أن تومئ برأسك إذا كنتُ محِقّة، حسناً؟ هل ذهبتُما أنت وفرشته فقط إلى الحديقة؟»، فسّرَت حركة رأسي الخفيفة على أنها «لا». «هل ذهبتُما إلى مكان آخر سوى الحديقة؟»، زممتُ شفتيّ معاً وأدرت وجهي بعيداً. «أوه، آسفة، لم أطرح السُّؤال عليك بشكل صحيح. هل تعرف أين يقع المكان الآخر الذي ذهبتما إليه؟»، طرفتُ على نحو تلقائي. بدت أُمّي منفعلة للغاية. «هل يمكنك أن تأخذني إلى هناك؟»، أظن أن الخوف الذي شعرتُ به كان منعكساً في عينيّ لأنها سألَت: «هل أنت خائف؟»، هززتُ برأسي. «لا تخف، سوف أكون قريبك. لن أدع أحداً يؤذيك. يمكننا حتى أن نتّصل بوالدك». أصبحتُ أكثر خوفاً. دفعتُها بعيداً وحرّرت وجهي من يديها. «حسناً، حسناً، لن نخبر أحداً. سنكون فقط أنا وأنت.

t.me/yasmeenbook

أعِدُك. حسناً؟ هل تأخذني إلى هناك؟ ألا تريد أن نعثر عليها؟ سيكون أمراً رائعاً إذا ما عثرنا عليها وأنقذناها. سيكون الجميع سعداء وسوف يدركون أي فتى صالح أنت».

لم يعنِني أن يُدرك أحدٌ آخر مدى صلاحي سوى أمي. غيّرَت أمّي بسرعة قميصي المتّسخ المجعّد ثم نزلنا إلى الأسفل. كانت فتّانة تحمل كوب حليب، تحدّق بالدَّرج. كانت شادي تحاول شرب الحليب، لكن فتّانة لم تكن منتبهة ولم تقُم بإمالة الكوب لها. ارتدت أُمّي المانتو وقالت: «فتّانة، ظلي مع شادي. شهاب وأنا سنعود قريباً».

«هل يعرف مكانها؟».

«سنرى».

«سآتي معك. سأُجنّ لو بقيت هنا».

«لا، لا تستطيعين. ماذا سنفعل بشأن شادي؟ قد تتصل فرشته أيضاً. على أحدهم البقاء هنا ليجيب على الهاتف. سأعود عاجلاً».

«هل يمكننا أن نثق حقاً بهذا الطفل؟».

«يمكننا أن نشكّ به لو أردتِ، وأن أبقى هنا بدلاً من ذلك. من يعلم ما إذا كانت حتى في المكان نفسه الذي ذهبت إليه مع شهاب قبل ستة أشهر».

«لا، لا! من فضلك، سامحيني. اذهبي، قد تجدين مفتاح الحل!».

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

19

اتَّكلتُ على شهاب. أمسك بيدي وتقدّمني بفخر في الشَّارع. كان سعيداً لأن يؤخذ على محمل الجدّ، وهذا ما قهر خوفه. بعد أن اجتزنا بضعة شوارع بدأَت يده ترتجف في يدي وأصبحَت خطواته أبطأ.

«ما الأمر يا بُني؟ هل وصلنا؟ ما الخطب؟ هل أنت خائف؟ لا تقلق، أنا هنا، فقط أرني المنزل».

أشار بيد مرتجفة إلى مبنىً.

«أي واحد؟ البناء الأحمر؟»، هزّ برأسه، تقدّم خطوة إلى الأمام وأشار إلى لافتة فوق البناء. متجر البقالة؟ هزّ ثانية. «شهاب، عزيزي، هل أتيت إلى هنا مع شخص آخر؟ هل كنت أنت وفرشته فقط؟»، هزّ رأسه بما يعني (كلّا)! «حسناً، إذن كان هناك شخص آخر أيضاً. من كان؟ هل كان رجلاً؟ هل ستتعرف إليه إذا ما رأيته؟ هذا مهم للغاية». هزّ رأسه بما يعني (نعم). «فتى جيد. كلّ من يظن أنك غبي فهو حمار!».

مشيتُ نحو البقالة. سحب يده من يدي. «ما الخطب؟ لنذهب ونرى ما الذي يجري. يمكنك البقاء هنا إن كنت خائفاً وسوف أعود».

بعد أن مشيتُ بضع خطوات ركض نحوي وأمسك بيدي ثانية. توقفتُ أمام متجر البقالة. كان مغلقاً. نظرت من حولي متفاجئة وقلت لنفسي، أي نوع من المتاجر هذا حتى يكون مغلقاً في مثل هذا الوقت من اليوم؟ «إذن ما الذي سنفعله الآن؟ إنه مغلق. هل

t.me/yasmeenbook

أنت واثق من أن هذا هو المكان الصَّحيح؟»، هزّ رأسه بعنف. «حسن جداً. لا يوجد أحد في الداخل. علينا أن ننتظر». هزَّ برأسه. «ربما علينا أن نعود ثانية لاحقاً». بدا شهاب متوتراً. ظل يهزّ برأسه ولم أستطع أن أفهم ماذا كان يحاول أن يقول لي. ترددتُ قليلاً ثم أمسكتُ بيده وقرّرت أن أعود إلى البيت. سحب يده من يدي وركض عائداً إلى المتجر. ضرب بعنف على الباب بيديه الصَّغيرتين. تراجعتُ ولم أدرِ ماذا يجب أن أفعل. قلت: «ما الذي تفعله؟ ألا تستطيع أن ترى أنه مغلق؟ لا يوجد أحد هنا، لماذا تضرب على الباب؟»، ظل يضرب ويركل الباب دون أن يولي اهتماماً لي. «هل تظن أن هناك أحد هنا؟»، هزّ برأسه، مسروراً من أني فهمت أخيراً ما كان يحاول قوله لي. بدأتُ أساعد بالقرع على الزجاج ومشبّك الباب الحديدي بمفاتيحي. حاولتُ أن أنظر إلى الدَّاخل عبر السَّتائر البيض التي كانت مسدلة بحرص.

مرَّ رجل وقال: «ألا ترَين أنه مغلق؟ اذهبي وتسوقي من مكان آخر!».

أشحتُ عنه وواصلت القرع على الباب.

بعد حين مدّت امرأة تقيم في البيت المجاور رأسها من النافذة وصارت تتذمّر: «يا لها من وقاحة! يا سيدة، ألا ترَين أنه مغلق؟ توقّفي عن إحداث هذه الجلَبة الكبيرة!».

«إنها مسألة مُلحَّة».

«إنّه ينام عادة إلى ما بعد الظُّهر».

«هل ينام هنا في المتجر؟».

«نعم، أظن ذلك».

t.me/yasmeenbook

«أنا آسفة، لكن يجب عليَّ أن أوقظه».

«هل تركتِ شيئاً هنا؟».

كنت مسرورة لامتلاكي عذراً: «نعم، كلّ ما أملكه هو في حقيبتي التي تركتُها هنا الليلة الماضية». ابتسم لي شهاب ابتسامة رضىً. هزّت المرأة رأسها وعادت إلى الدَّاخل وأغلقت النافذة. واصلتُ القرع على الباب مستعملة مفاتيحي. كان الأمر سُدى. كنت محبطة للغاية.

التقط شهاب حجراً أبيض من حديقة الرصيف الصَّغيرة واستعمله لضرب المشبّك. قلت: «لا فائدة. لنذهب. سنعود خلال ساعة».

رمى حجراً آخر بغضب. فنفذ عبر المشبّك وحطم الزجاج. كنت مندهشة واستدرتُّ. حاول شهاب أن يختبئ خلفي. بعد بضع لحظات جاء إلى الباب مترنّحاً رجل أشعث الشَّعر. أبهره الضوء السَّاطع. صاح بصوت خشن: «ما الذي يجري هنا؟ ماذا تفعل؟»، توقَّف زوج من السَّابلة تائقين لجدال. تمالكتُ نفسي.

كان الرجل يفتّش في سلسلة مفاتيحه عن مفتاح المشبّك. أخيراً فتح الباب وبدأ يصيح ثانية: «انظري ما الذي فعلتِه، أيّتها الوقحة! عليك أن تدفعي الثَّمن. هل ظننتِ أني سأدعك تفلتين بفعلتك؟»، قفز للأمام وأمسك بمعصمي. سحبتُ يدي من قبضته وقلت بصوت مهزوز: «عار عليك!».

«عليكِ أن تدفعي ثمن الزُّجاج! من تظنين نفسك؟».

«ممتاز، سأدفع. لكن أولاً عليك أن تجيب على أسئلتي. هل جاءت فتاة تدعى فرشته إلى هنا بعد ظهر البارحة؟».

t.me/yasmeenbook

تجمّد الرجل. توقّف ثم قال: «يأتي ويذهب مئة شخص هنا كلّ يوم. هل تنتظرين مني أن أعرف أسماءهم كلّهم؟».

«لكن هذه الفتاة مختلفة. يقول هذا الطفل إنك تعرفها جيداً جداً».

أخفض الرجل بصره وأخيراً لمح شهاب الذي كان يسترق النظر من خلفي. كان مأخوذاً. ظلّ ينظر من حوله. نظر إلى الناس الذين كانوا قد تجمعوا وقال: «إلى ماذا تحدّقون؟ انتهى العرض!»، واصل بصوت أخفض: «ليس على هذا الطفل أن يحشر أنفه في أمور الآخرين، بالإضافة إلى أنه لا يستطيع أن يتكلم!».

شعرتُ بثقة أكبر. لقد أتينا إلى المكان الصحيح. قلت: «إذن، يبدو أنك تعرف هذا الطفل جيداً أيضاً! وأنت مخطئ. هو لا يتكلم إلى أناس مثلك، لكن يمكنه أن يتكلم جيداً جداً معي ومع الشُّرطة».

أربك ذكر الشرطة الرجل. تحرّك جانباً وقال: «ادخلي. لنرَ ماذا تريدين».

دخلتُ بتردّد. كنت خائفة، مع أني تظاهرت بكوني مطمئنة.

«ليس لدي ما أقوله لك. فقط أخبرني أين فرشته؟».

«كيف لي أن أعرف؟ ليس الأمرُ كما لو أن جميع المسيئين الهاربين يلوذون بي».

«أعرف أنها كانت هنا».

«يأتي الكثير من الناس إلى هنا. لا أعرف أي واحدة هي. كما ترَين، ما من أحد هنا الآن. خذي نظرة».

t.me/yasmeenbook

أجلتُ النَّظر من حولي. كانت هناك مخدة وغطاء على مقعد بمحاذاة الجدار. بدا كما لو أن الرجل أمضى الليل هناك. مشيت إلى نهاية المتجر، لكن لم يكن هناك مكان للاختباء. لم أكن واثقة ماذا أفعل. ترك شهاب يدي وركض خلف مساحة المتجر الرئيسية. تبعه الرجل وركضت خلفهما. كان الظلام دامساً في الخلف هناك. لم أستطع أن أرى بوضوح. فجأة رأيت الرجل يقف على سُلّمةٍ في منتصف الطريق إلى الأعلى، ممسكاً بشهاب الذي كان يكافح تحت إحدى ذراعيه.

صرختُ: «دعه أيّها الوسخ!».

رمى الرجل شهاب نحوي. أمسكت به في الهواء وقلت بصوت مرتجف: «هل ستُسلّم فرشته أم تريد أن أتصل بالشرطة؟».

«وكيف لي أن أعرف أنك لم تتّصلي بهم بالفعل؟ أو ربما ستتصلين بهم لاحقاً؟».

بتُّ الآن مقتنعة أن فرشته هنا. وبدا كما لو أنه أراد أن يعقد صفقة. قلتُ بصوت أهدأ: «لا أريد أن أُحرج الفتاة. أنا لم أخبر والديها بعد. إن سلّمتها لي فسوف آخذها إلى البيت وأخبرهم أنها كانت تقيم مع صديقة لها. لن أذكر شيئاً عنك لأنه سيزيد الأمر سوءاً بالنسبة للفتاة. لكن إن لم تُطعني في الحال، فسوف أتصل بكل مخافر الشرطة في البلدة. سوف تتمنى لو أنك لم تضع عينيك عليها. من الأفضل أن تدعها تأتي معي لمصلحتك. لو أتت الآن سيكون كما لو أن شيئاً لم يحدث. لكن لو استمر هذا وقتاً أطول فسوف يتوجّب عليك أن تتعامل مع والدها وعمّها».

t.me/yasmeenbook

كان الرجل صامتاً. كان يتبصر في خياراته. قال بعد بضع لحظات: «ممتاز! لكن لو ذكرتِ أي شيء عنّي أو عن هذا المتجر، فلن أتركك بسلام».

«اذهب واجلبها إلى هنا قبل أن يأتي أحد».

صعد الرجل الدرج، فتح الباب وقال: «أسرعي. اجلبي حاجياتك واخرجي من هنا ولا تعودي أبداً. انصرفي!».

خرجت فرشته شعثاء الشَّعر. وقفَت في العتبة شاحبة، نحيلة، مضطربة، وخائفة. تبعها فتى في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره وخرج من الغرفة. بديا صغيرين جداً ورقيقَين.

«أوه فرشته! ما الذي تفعلينه هنا؟».

سألَتها بصوت مرتعش: «هل أنت بمفردك؟».

«نعم. لا تقلقي. لنذهب. الجميع يبحثون عنك. ما الذي فعلتِه؟».

«لن آتي! أنا خائفة!».

«لا تخافي. سوف نذهب إلى منزلنا. لن أدع أحداً يعرف أين كنت سوى أمك. سأقول إنك كنت مستاءة منها وذهبتِ لتبقَي مع صديقتك. لكن عندئذٍ شعرتِ بالخطأ واتصلتِ لتعلمينا».

أفلتَت فرشته بلطف يد الفتى ونزلت الدَّرج غير واثقة. ساعدتُها على ارتداء المانتو والوشاح. كانت فرشته تبكي بصمت طوال طريق العودة. أمسك شهاب يدها بفخر وقادها إلى البيت.

t.me/yasmeenbook

البلبلة التي كانت قد بدأت الليلة السَّابقة تبدلت مع وصول فرشته. صفعَتها فتّانة بشدَّة ثم أغمي عليها. سكبَت أُمّي الماء على وجهها واستعادت وعيها أخيراً. بكت فرشته دون توقُّف. انفجرت فتّانة بالبكاء وعانقتني للمرة الأولى في حياتي. قبّلتني وقالت: «بارك الله فيك يا حبيبي. لقد جعلك القدرُ ملاكي الحارس».

أرسلت أُمّي فرشته لتستحمّ، ثم روت القصَّة كاملة لفتّانة. أصغت مذعورة وظلّت تشدّ شعرها وتخمش خدّيها. قالت أخيراً: «مريم، أتوسّل إليك، من فضلك لا تقولي شيئاً لوالدها. سوف يقتلها إذا سمع أياً من هذا».

«لا تقلقي. سنقول إنها كانت مستاءة منكِ وذهبت لتبقى مع صديقتها. تأخَّر الوقت ولم تستطع العودة وحيدة في المساء. قررت أن تزعجَك أكثر، وبالتالي أمضت الليل هناك دون أن تخبرك. لكنها ندمت على ذلك هذا الصَّباح، فاتصلت وأخبرتنا عن مكانها». كانت أكاذيب أُمّي مثالية، وكنت فخوراً بها.

قال عاصي: «أمّ لطيفة! لدينا أمّ شجاعة. لماذا لا تستطيع الوقوف في وجه أبي والجدَّة؟».

قالت فتّانة: «في أي مكان تظنّينهما؟ أنا قلقة على حسين. كان ظهره يؤلمه حقاً».

«سوف يتصلان في أية لحظة الآن. طلبتُ من ناصر أن يتّصل بنا قبل الظهر».

t.me/yasmeenbook

نزلت فرشته إلى الطابق الأرضي وكان شعرها مبلّلاً وتبدو شاحبة على نحو رهيب وجلست أمام أُمّي وفتّانة. قالت فتّانة: «ما الذي فعلِته؟ ألم تدرُكي أيّ عناء سنتجشم؟ ألم تفكّري بالفضيحة؟».

بدأت فرشته تبكي وأشارت أُمّي لفتّانة بأن تكفّ عن الكلام. ثم قالت بصوت مرتفع: «فرشته، لا أظن أنك بخير. هل تريدين أن تأخذي إغفاءة؟».

سألَت فرشته باكية: «ما الذي سيحدث الآن؟».

أجابت أمّها بحقد: «ما الذي تظنين أنه سيحدث؟ لقد فضحتِنا! ما الذي سأقوله لوالدك؟».

«سأقتل نفسي!».

قالت أمّي: «ما الذي تتحدثين عنه؟ إنه ليس بذلك الأمر الجلل. لقد تجادلت مع أمّك وبشكل طفولّي هرعت إلى منزل صديقتك دون أن تخبري أحداً. ندمتِ هذا الصباح على ذلك واتّصلت بنا».

«أخشى الذّهاب إلى البيت».

«إنها على حق. فتّانة دعيها تبقى هنا لبضعة أيام. سوف تعود إلى البيت عندما تهدأ الأمور قليلاً وتخفّ حدَّة غضب والدها».

«نعم، أظن أن تلك فكرة جيدة».

رنَّ الهاتف وأسرعت أُمّي لتجيب. قالت بصوت متحمس: «بالطبع فعلنا! لدينا أخبار عظيمة... نعم، أقسم، إنها جالسة هنا أمامي... نعم، إنها بخير. كانت في منزل صديقتها. اتصلت هذا الصباح... لم أستطع أن أخبرك لأني لم أكن أعرف أين

t.me/yasmeenbook

تكون». تغيرت نبرة أمي: «مرحباً حسين أغا. أخبار جيدة... ما هذا الذي تقوله! يجب أن تكون مبتهجاً لأنها بخير...».

أقفلوا سماعة الهاتف في الطرف الآخر. وضعت أُمّي السماعة ببطء. سألتها فتّانة: «ماذا قال؟».

«إنه غاضب للغاية. لا ألومه، لكن هذا لن يدوم. علينا أن نُبقي على فرشته بعيدة عنه إلى حين. فرشته، اذهبي إلى الأعلى واستلقي في سرير شهاب. ابقي بعيداً عن والدك الآن».

نظرت فرشته إلي. نهضت بسعادة وأخذتُ يدها وقدتُها إلى الأعلى. استلقت فرشته على سريري. حاولتُ أن أجذب الغطاء عليها.

قالت: «لا تفعل!»، انفجرت بالبكاء ثانية. لم أكن غاضباً منها الآن. جلستُ قربها وبرفق لاطفت شعرها.

«أنا مدمّرة. أنا فتاة سيئة للغاية. أبي على حقّ في كونه يرغب بقتلي».

هززتُ رأسي باهتياج وقبّلتها على وجنتيها المبلّلتين. جلست فرشته وعانقتني بشدة.

«شهاب، ليس لي سواك. الشّخص الوحيد القريب مني، الوحيد الذي يعرف كلّ شيء. أنا واثقة من أنك تفهم كلّ شيء. أنت تعرف أني لم أرغب بالذهاب إلى هناك، أقسم بالله أني لم أفعل! قاومت بكل ما أملك من قوة».

بدأنا فرشته وأنا نرتجف حالما سمعنا باب المرآب. دخل عمي إلى البيت صائحاً: «أين بنت المحروق تلك؟».

t.me/yasmeenbook

توسّلت فتّانة به: «حسين، من فضلك اهدأ. إنها نائمة في الأعلى. اجلس واشرب قليلاً من الماء».

«لن أهدأ قبل أن أقتلها! كيف تجرؤ على الهرب من منزلي؟ يعلم الله ماذا كانت تفعل! لست بحاجة إلى ابنه تتظاهر بأنها في الحديقة وتبقى طوال الليل في الخارج!».

«أخي، اهدأ. فكّر بظهرك. عليك أن ترتاح أو أنك ستصاب بالشلل».

«كيف بوسعي أن أرتاح؟ لن يسمحوا لي! أعمل جاهداً طوال اليوم من أجل هذه الثُلّة الجاحدة وانظر كيف يعاملونني في النهاية!».

قالت أمي: «حسين، إنه ليس بالأمر الجلل. اجلس وسوف أخبرك ما حدث. لا تُحمّل الأمر أكثر ممّا يحتمل».

بدأ خسرو يتحدث للمرة الأولى: «ماذا تعنين بقولك (ليس بالأمر الجلل)؟ من يعلم أين كانت ومع من كانت؟».

قالت فتّانة بغضب: «اسكت خسرو! كانت في منزل صديقتها تدرس كلّ هذه الأوقات، بدلاً من الذهاب مع شهاب إلى الحديقة لأنها كانت مستاءة للغاية من مضايقتك لها».

«كيف لي أن أكون هادئاً؟ أنا أخوها في نهاية المطاف».

قالت أمي: «وماذا يعني؟ لو كنت أخاً جيداً ما كنت لتزعجها كثيراً، وتجعلها تهرب إلى منزل صديقتها».

«أنا؟ ما علاقة الأمر بي؟ لم أفعل شيئاً؟».

«تعرف جيداً ما الذي فعلته، كف عن الإنكار. حسين، من فضلك، اجلس واشرب هذا. ناصر، ساعده على الجلوس».

t.me/yasmeenbook

في غضون هذا كله، كانت فرشته ترتجف وهي تُمسك بي بشدّة. كنت أتنفس بصعوبة. عندما هدأت الأصوات في الطابق الأرضي، ارتخى ذراعا فرشته وتمكّنتُ من سحب نفسي وعانقتها. استلقت فرشته على السَّرير. نزلتُ على الدرج ببطء، وقفتُ قرب أُمّي وأمسكتُ بتنورتها. أشعر بالراحة كلما لمست شيئاً يخصّها. قالت بنبرة رفيقة: «حسين أغا، هؤلاء الأولاد في عُمر حرج. علينا أن نكون مرنين معهم. إنه لأمر لا يصدق. كيف يمكن لأصغر الأمور أن تزعجهم كثيراً. ردود أفعالهم طائشة وطفولية، لكن الأمر ينتهي بهم نادمين في الحال».

«فرشته فتاة حساسة. انخرطت في شجار مع أمها، وخسرو كان يزعجها أيضاً، لذا فرّت إلى منزل صديقتها، لأنها اعتادت كما يبدو على فعل هذا. لكن حينها ندمت وعادت. هذا كلّ شيء».

«هذا كلّ شيء؟ لقد مرّت عليَّ ليلة كالجحيم. كدتُ أصاب بنوبة قلبية وأنا أنظر إلى الجثامين في المشرحة طوال اليوم، أفكّر بكل أنواع الأفكار. لقد متّ وعدت إلى الحياة مئة مرّة. والآن تقولين (هذا كلّ شيء)؟».

«إنها طفلة. لم تُدرك ما الذي كانت تفعله. أنت قطعاً على حقّ وهي لن تفعل مثل هذا الأمر ثانية قط. لكن الآن، أنا ممتنة أن كلّ شيء انتهى على ما يرام. ابق هادئاً وكن شاكراً. فكِّر في صحتك».

ناولَته فتّانة الكأس وقالت باكية: «أنت مُحقّ في غضبك. لكن مريم على حقّ أيضاً. هؤلاء الأولاد في عمر صعب. كان الأمر خارجاً عن إرادتها. إنها مبتئسة للغاية الآن، ظلّت تبكي وتعتذر».

t.me/yasmeenbook

«أين كانت بالضَّبط بأية حال؟».

«في منزل صديقتها كما قلتُ».

«أية صديقة؟ ألم تتصلي بهن جميعاً ليلة الأمس؟».

تقدم خسرو وقال بغضب: «أبي، إنهن يكذبن! أية صديقة؟ اتصلت بهن جميعاً بنفسي. ما اسمها؟ أعطني عنوانها، وسوف اذهب وأسألها بنفسي».

توقّف قلبي للحظة. ماذا لو أن عمّي وافقه وقرّر الذهاب معه؟

ارتجف صوت أُمّي قليلاً: «خسرو، توقّف عن كونك مجلبة للضرر! هل تظن أنك تعرف جميع صديقاتها وزميلاتها؟ ذهبتُ إلى منزلها. أهلها أناس طيّبون. وقد تحدّثتُ مع والدتها».

كان حسين مُتعباً لكن مضطرباً: «لماذا لم يتّصلوا بنا البارحة إذا كانوا أناساً طيبين؟».

قالت أمي: «أمها لم تدرك أنك لم تعرف بمكانها. اعتقدَت أن فرشته قد أخذت إذنك لتُمضي الليلة عندهم».

قال خسرو: «أقسم إنها كذبة! من أين صديقتها هذه؟ لماذا لم يرها أحدٌ من قبل؟».

«في الحقيقة شهاب يعرفها. ذهب إلى هناك عدة مرات مع فرشته. كان يعرف الطريق إلى المنزل وأخذني إلى هناك بنفسه. ما كنت لأجده دون مساعدته».

تحولت جميع العيون صوبي.

قال خسرو بتأفّف: «هو؟ هذا الأبله؟ قلت لك إن الأمر كله كذبة! هذا الأبله لا يعرف شيئاً. أتحدّاك أن تأخذني إلى هناك لو تستطيع!». تقدّم نحوي، أمسك معصمي وجرني إلى الباب

t.me/yasmeenbook

الرئيسي. نظرَت أُمّي وفتّانة مرعوبتين. لم تعرفا ماذا تفعلان. «تعال لنذهب، أيها الأبكم. لن أدعك تذهب حتى تريني منزلهم».

كان كياني كلّه يموج بالغضب. ومرّ أمام عينيّ كلّ ما فعله بي. بكل الكره والقوة المكلومة في جسدي الصغير، سحبتُ يدي من يده وصحت: «ابن القهوة، أيها الدَّيوث!».

كانت تلك أسوأ كلمات أعرفها. كنت أستعملها في رأسي أحياناً لأشتم الأنذال. من خلال الصَّمت الذي تبع أدركتُ هذه المرة أنها لم تكُن في رأسي وأني في الحقيقة تفوّهت بها بصوت مرتفع. كان خسرو جافلاً. وقفت ساكناً لبضع ثوانٍ ثم ركضتُ على الدَّرج لأهرب من تحديقاتهم. كنت بحاجة إلى مكان هادئ لاستوعب ما حدث للتوّ. سمعت صرخات فرح أُمّي من خلفي.

«لقد نطق! هل سمعت كلامه؟».

قهقه عمي: «نعم لقد فعل! ويا له من كلام!»، وانفجر ضاحكاً. كان ضحكه مُعدياً وانضم الآخرون إليه. احتفظوا برباطة جأشهم أولاً لكن سرعان ما تضاعفت ضحكاتهم. نظرتُ إليهم متفاجئاً من أعلى الدرج. كانت الدموع تسيل على وجه عمي. ظل يمسحها وقال: «ناصر، إذا كانت هذه هي الطريقة التي سيتكلم بها ابنك فلربما من الأفضل أن يبقى ساكتاً! بخلاف ذلك سوف يمرّغ اسم عائلتنا في الوحل!».

كان والدي لا يزال متفاجئاً ولم يستطع تصديق الأمر: «من أين تعلم هذه الكلمات؟».

«حيث يتعلّمها جميع الأطفال».

t.me/yasmeenbook

ذهبتُ إلى غرفتي لكن فرشته كانت نائمة هناك ولم أستطع الانفراد بصديقيَّ. فتحتُ الباب على الشُّرفة. وقفت في زاوية إلى حين. من الأعلى هناك رأيت عائلة عمي تغادر. أمسك والدي ذراع عمي. لم يبدُ غاضباً بعد الآن، وظلت فتّانة تشكره. فيما بدا خسرو منزعجاً.

هدأتُ حال مغادرتهم. صعدتُ الدرج إلى السَّطح وجلست. كنت مرهقاً للغاية.

قال عاصي: «لقد شتمتَهم».

«نعم! ولقد سمعوا! هل خرج الصَّوت من فمي؟».

«هل رأيت كيف فوجئوا؟ كانوا جميعاً صامتين. كما لو أنك صفعت خسرو».

قال بابي: «تلك كانت كلمات بذيئة، أليس صحيحاً؟».

«نعم. سأل والد آرش من أين تعلمناها».

شعرتُ بالخفة كما لو أن ثقلاً أزيح عن كاهلي.

لقد خطوتُ الخطوة الأولى. شمس الشِّتاء كانت ممتعة للغاية. كلّ شيء بدا لي جميلاً. مشيتُ إلى حافة السَّطح ونظرت إلى حديقة الفناء الخلفي الكبيرة والمليئة بالأشجار. كانت شجرتان اثنتان وقد وصلت بعض أغصانها إلى قمة السطح مكسوتين بالأوراق، أما البقية فقد كانت جميعها عارية. لم يسبق لي أن رأيت هذه الأشجار من الأعلى. بدت أغصانها أكثر نضارة وخضرة من الأعلى هنا. تحرّك شيء ما بين الأغصان. أوه يا للجمال، كان هناك عشّ! لقد فُتنت برؤيته. سمعت ضجة لكني كنت مستغرقاً للغاية في جمال هذه المخلوقات لأدرك ما الذي كان يجري من

t.me/yasmeenbook

حولي. جذبت نفسي على الجدار الحاجز قدر المستطاع كي أدنو منها أكثر. شعرت فجأة بألم شديد في ظهري. شخص ما رفعني عالياً. كنت أكافح وأنا بين ذراعَي والدي. لم أستطع أن أفهم ما الذي حدث. كنت مصدوماً. ضربني عدداً إضافياً من المرات. أنا لست واثقاً ما إذا كان حقاً مؤلماً، أو إذا كان الألم الذي شعرت به بسبب أن ضرباته لم تكن ضرورية وغير متوقعة. لا أزال أشعر بهذا الألم كلما نظرت إلى الدرج المؤدّي إلى السطح.

أنزلني والدي أرضاً. نظرت إلى وجهه الغاضب متفاجئاً. لم أستطع أن أفهم لماذا كان شديد الغضب. لوّح بإصبعه في وجهي وقال: «من قال لك أن بوسعك الصعود إلى هنا؟ ألم أخبرك أنه غير مسموح لأحد بالصعود إلى هنا؟».

كانت أُمّي واقفة على السُلّمة العليا وقالت: «الحمد لله أنك أمسكت به في الوقت المناسب».

«كان يتدلى من حدّ خصره! لقد حالفنا الحظ!»، التفت نحوي ثانية وقال: «إذا أمسكتُ بك هنا مرّة أخرى سوف أضربك ضرباً لن تنساه مطلقاً. أنت تستحق صفعة على فمك أيضاً». وصفع فمي بظاهر يده برفق، «على الكلمات البذيئة التي قلتها. بعد هذا يجب عليك فقط أن تقول أشياء لطيفة، هل تفهم؟».

قالت أمي: «دعه وشأنه. ليس هذا وقتاً مناسباً». أمسكَت بيدي وبحذر نزلنا الدرج. «ناصر هذا الدرج خطير للغاية. علينا أن نفعل شيئاً بشأنه».

كانت أفكاري مشوَّشة للغاية. الصَّدمة والارتباك اللذين شعرت بهما كانا مستبدلين بالكره والغضب. ألم الضرب الذي

t.me/yasmeenbook

تلقيته كان يتعاظم لأنه لم يكن مُبرّراً. عندما وصلنا إلى الطابق الأرضي ركضتُ إلى الحمام وأغلقت الباب خلفي.

قال عاصي: «يا له من أبله! علينا الذّهاب إلى السطح لنكون بمفردنا لأن فرشته نائمة في غرفتنا».

قال بابي: «قالوا إن السَّطح خطير».

«إنه ليس خطيراً على الإطلاق. إنهم فقط لا يعرفون كيف يصعدون على تلكم السُلّمات، لذا يقولون إنه خطير! لكن بأية حال لماذا لطمَنا على فمنا؟».

«قال لأننا تفوهنا بكلمات بذيئة».

«يا له من أحمق! الناس لا يُضربون لتلفظهم بالكلمات النابية. هو بنفسه يقول دوماً «ابن الكلب»[12]، أو «ابن المحروق»[13]. يستعمل الأولاد في الشارع تلك الكلمات أيضاً. وكلما قالت شادي «ابن التلب حمار» يضحك الجميع. الذي يغضب هو الشخص الذي يُشتم. بينما كان أبي هو الشخص الذي غضب. لم نقل كلمات بذيئة لأبي، قلناها لخسرو. إذن لماذا غضب أبي؟ لأنه يحبّ خسرو كثيراً فيريد الدِّفاع عنه؟ لماذا لا يدافع عنا عندما يدعونا خسرو بالأبله؟ قال إنه ينبغي علينا أن نكتفي بقول كلمات لطيفة من الآن فصاعداً. حسناً، من يريد التَّحدث بأية حال؟ لا سيّما معه. تذكر ألّا توجه له كلمة مرّة ثانية قط».

---

(12) پدر سگ» تعني كما أوضحنا سابقاً: ابن الكلب. فيما «پدر سد خر» تعني ابن الحمار، ومن الشائع اطلاق أسماء الحيوانات كشتيمة بالفارسية.

(13) پدر سوخته تعني حرفياً «ابن المحروق»، وهي شتيمة فارسية سائدة مرادفة لكلمة وغد أو نذل.

t.me/yasmeenbook

21

أدَّت شتائم شهاب مهمّتها. انتهزت فتّانة فرصة تغيّر الجو، فأمسكت بذراع حسين وقالت: «عجِّل. لنذهب إلى البيت. يجب عليك أن تستلقي».

قال خسرو: «ماذا عن فرشته؟ لماذا لا تأتي؟».

أجابته فتّانة بسرعة: «كما قلتُ من قبل، ليس من شأنك. تريد أن تقيم مع مريم لبضعة أيام لتدرس».

«نعم، صحيح! تدرس!».

«لا. في الواقع، هي لا ترغب بالدِّراسة! فقط أريدها أن تكون بعيدة عنك لبضعة أيام فيمكنها أن تحظى ببعض السلام والسكينة. يعلم اللّه أني لكنت هربت منك أيضاً لو أمكنني ذلك!».

غادروا فاستعاد المنزل هدوءه مرّة أخرى. استلقى ناصر على الأريكة وقال: «من حسن حظنا أن كلّ شيء انتهى بشكل مُرضٍ. من يعلم ما الذي كان سيحدث لو لم نعثر عليها. لا يمكنكِ أن تتخيلي الأمور التي رأيناها ليلة أمس. حدث إذن كلّ شيء حقاً كما وصفتِه؟».

نظرتُ إليه بتردد. لم أكن على يقين إلى أية درجة يمكنه أن يتقبّل الحقيقة. اعتادت جدتي القول: «كلما كان ما يعرفه الرجال أقلّ كلما كان أفضل!». أجبت بهدوء: «نعم، بالطبع».

«أين هي الآن؟».

«إنها نائمة في غرفة شهاب. لا أعتقد أنها على أفضل ما يرام».

t.me/yasmeenbook

«هل هي مصابة بالبرد؟».

«لا، إنها شاحبة ومكتئبة. تحوّلت تلك الفتاة السَّعيدة الانبساطية إلى انطوائية باكية باستمرار».

«لكن لماذا؟ ما خطبُها؟».

«لست على يقين. أظن أن خسرو يضايقها».

«هذا ليس بالأمر الجديد».

«أمها لا تفهمها أيضاً. دعها تُقِم هنا لبضعة أيام وسوف أتوصل لمعرفة الأمر. يجب عليَّ الذهاب لأرى كيف حالها. هل ترغب بالمجيء؟».

«كلا. لقد أساءت التصرف بحقّ وكادت أن تقتل أخي من شدَّة التَّوتر. ينبغي عليَّ أن أتعامل معها ببعض البرود. هل رأيتِ شهاب؟!».

«ابني تحدث! كنت محقَّة في المرة السابقة أيضاً. لقد ناداني بحق (أمي)».

«ماذا يعني إذن؟ هل بوسعه حقاً أن يتكلّم؟».

«في الظاهر، متى شعر برغبة في ذلك!».

«يا للنجاح الباهر! يلتزم الصمت طويلاً ثم يخرج علينا بشتائم جهنمية! لا أفهم الأمر حقاً. ما حجم قدرته على الكلام؟ لماذا لا يتكلم؟ ما مشكلته؟ إنه طفل معقَّد. علينا أن نعرضه على طبيب نفسي».

«إنه لا يعاني من مشكلة الآن وها قد بدأ بالكلام. سوف يبدأ تدريجياً بقول كلّ شيء. لكن ذلك كان مضحكاً حقاً! لقد جعل قلبي يذوب!».

t.me/yasmeenbook

«برغم ذلك ينبغي عليك أن تكوني حذرة. لو بدأنا بالضَّحك على شتائمه فلن نكون قادرين مطلقاً على ضبطها. سوف تصبح محرجة للغاية. علينا أن نتعامل مع الأمر بجدّية منذ البداية. لا تبدئي بمعانقته وتقبيله فقط لأنه قال شيئاً. عليه أن يفهم أننا سنكون سعداء فقط إن قال أموراً لطيفة».

«هذا قاس حقّاً مع ذلك. أريد أن أقبّله ألف قبلة!».

«لقد كان أمراً مضحكاً للغاية، لا سيما تلك النظرة على وجهه. لكن علينا أن نضبط أنفسنا. أين هو بأية حال؟».

«مضى إلى الطابق الأعلى. سوف آتي به فيمكننا التحدث معه».

قالت فرشته إن شهاب ليس في غرفته. بحثنا عنه في كلّ مكان، تحت الأسرَّة، في جميع الغرف والحمَّام. أخذ ناصر يغتمّ.

«لا يمكن أن يكون قد غادر المنزل. لا بد أن يكون في مكان ما في الأعلى. ماذا لو أنه على الشُّرفة في الخارج؟».

ركضنا على الدَّرج مرّة أخرى. لم يكن باب الشرفة مقفلاً. قال ناصر: «ماذا لو أنه صعد إلى السَّطح؟»، نظرنا إلى بعضنا البعض هلعين. كان الدَّرج إلى قمَّة السَّطح وسوره القصير خطيرين للغاية. صعدنا الدرج ببطء. انقطعت أنفاسي حالما رأيته يتدلى من السُّور.

وضعتُ يدي على صدري وتجمّدتُ على الدرج. صعد ناصر نحوه ببطء وبهدوء. لا أعرف بالضَّبط ما الذي جذب انتباه شهاب. كان يتدلى عن السُّور محاولاً الوصول إليه. تلقفه ناصر في الجوّ وصفعه كي لا يجرؤ على صعود هذا الدرج مرّة أخرى.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

22

كانت الأمور محمومة للغاية في ذلك الحين، حتى أنهم جميعاً نسوا أمر شتائمي، وفيما إذا كان بوسعي أن أتكلم أم لا. كانت القضية الهامة بكاء فرشته المتواصل والأمور التي أسرّت بها لأمي خلف الأبواب المغلقة. كانت فتّانة تأتي لزيارتنا كلّ صباح بعد مغادرة أبي وآرش. كانت تتحدث مع أُمّي لساعات. وكانت تبكي باستمرار. حاولتُ أن أرهف السَّمع، لكني لم أستطع معرفة ما كانتا تتحدثان عنه. خرجَت أُمّي لوحدها عدَّة مرات. أخيراً ذات يوم حالما غادر والدي، استعدّت أُمّي وبدت قلقة للغاية. تركتني أنا وشادي مع فتّانة وخرجَت مع فرشته التي كانت ترتجف مثل وريقة شجر. كان واضحاً أنهما خارجتان للقيام بأمر هام. لم تنتبه فتّانة لنا على الإطلاق. ظلّت تذرع الغرفة، تتضرّع وتفرك يديها معاً. استحوذ قلقها على المنزل كاملاً وجعلني أقلق أيضاً. ما الذي حدث؟ أين ذهبت أُمّي وفرشته؟ ما الذي كانوا يخفونه؟ لماذا لم تخبر أُمّي أبي بخروجها؟ كان كلّ من عاصي وبابي هادئين.

حلَّ الظهر ولم تكن أُمّي وفرشته قد عادتا بعد. ذرعت فتّانة المنزل جيئة وذهاباً دون توقُّف. لم يبدُ عليها أنها ستقدم لنا طعام الغداء. عثرت شادي على قطعة خبز يابسة متروكة من الفطور وحاولت مضغها، فيما لم أكُن جائعاً.

انتهت تلك السَّاعات المخيفة أخيراً، وعادت أُمّي إلى البيت تساعد فرشته التي كانت متدثرة بغطاء. بدت فرشته شاحبة

t.me/yasmeenbook

وبائسة. كانت ترتجف وبالكاد تستطيع أن تمشي. بدأت فتّانة تبكي حالما رأتهما. قالت أُمّي بنبرة جازمة على غير العادة: «فتّانة توقّفي! لقد متُّ وعشت مئة مرّة اليوم. انظري ما الذي جعلِتِي أفعله!».

أخذتا فرشته إلى الأعلى ووضعتاها في سريري الذي كان قد أصبح سريرها منذ فترة. جلبت فتّانة بعض الحساء وأطعمت فرشته بضع ملاعق منه. ذهبتُ إلى غرفة أمي. كانت مستلقية على سريرها. بدت منهكة. بعد بضع دقائق نهضت وغيّرت ملابسها. ابتسمت لي ابتسامة حزينة ولاطفَت شعري وقالت بتعب: «هل تحسنون التصرف أيها الأطفال؟»، صعدتُ إليها وحضنتُ ساقيها. جلسَت أُمّي على السَّرير وعانقتني، وبصوت دامع قالت: «أنا لا أعرف حجم ما تعرفه لكني على يقين من أنك كنت قلقاً أيضاً يا صديقي الحميم. لا تستطيع أن تتخيّل مدى القساوة التي تكبّدتُها ذلك اليوم». قبّلتني ووضعتني على الأرض وذهبت لتنظر إلى فرشته عبر الباب. نزلنا الدرج معاً.

قالت فتّانة وهي تمسح طاولة المطبخ. «سأظلّ مدينة لك إلى الأبد. لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونك. لماذا استغرق وقتاً طويلاً؟ ألم يقولوا إنها تستغرق ساعة فقط؟».

«لا يمكنك أن تتخيلي أي عناء تكبّدناه. كان الطفل قد كبُر بعض الشيء. لم تكن لديهم جميع المعدات اللازمة ولم يكن معنا طبيب تخدير أيضاً. لقد نزفت كثيراً. كنا محظوظين. كدنا نفقدها. لقد لعنتُ نفسي على الموافقة على تكبّد هذا العناء. لو أصابها مكروه لما كنت لأسامح نفسي. لو يعرف ناصر».

t.me/yasmeenbook

«الحمد لله على أن كلّ شيء انتهى. أعرف أنك عانيت الكثير لكن لو لم تكوني هنا ما كنت لأستطيع فعل شيء. كنت سأفقد وعيي وكان سيتوجب عليك أن تعتني بي أيضاً! كيف حالها الآن؟».

«توقَّف النزيف لكنها واهنة للغاية. علينا أن نساعدها لتستعيد قوّتها».

فهمت أنهم كانوا في وضع خطير وأن فرشته كانت خائفة بطريقة ما لكني لم أعرف شيئاً عن شعورها، ولم أستطع ربط هذا مع طفل يكبر.

أقامت فرشته معنا عشرة أيام أخرى إلى أن شعرَت بتحسُّن. في تلك الأيام أمضى والدي معظم أوقات العصر في منزل عمي وكنت أبقى في البيت مع فرشته. بدأَت تدريجياً بالتحدث ثانية. جلبت لها فتّانة كتبها المدرسية لكنها لم تكن تدرس. كانت تفتح كتاباً وتحدق في الفراغ. أخيراً، في مساء يوم خميس، جمعَت أمتعتها وذهبنا جميعاً إلى منزل العم. كان عمي سعيداً أن الصدع بين فرشته وأخيها وأمها كان قد سُوّي. قبّلها، وبكت فرشته واعتذرت. كانت فتّانة مسرورة للغاية وظلت تمشي وتقدم الحلويات للجميع. جاءت جدّتي والعمة شاهين وزوجها الجديد، بالإضافة إلى والدة فتّانة وأختها الكبرى فريدة، جميعاً. الجميع توقف عن الحديث عن حالة فرشته. ذلك كان سراً حميماً بين عائلتنا وعمتي فتّانة.

ظلت الجدة تشتكي من أنها لم ترَ أحداً منا طوال شهر كامل. وصار الجميع يختلقون الأعذار لكن لم يقدّم أي أحد لها الجواب الشّافي. كانت أُمّي وفتّانة في المطبخ تصبّان الشّاي، وتهمسان

t.me/yasmeenbook

الواحدة للأخرى. نظرَت إليهما الجدّة بارتياب. مرّت فتّانة وقبّلتني. كان عمي يضحك كلما نظر نحوي، وقد ناداني مرتين ليعطيني بعض الحلوى. فيما قدّمت فرشته لي الفطائر وانحنت وقبّلتني على خدّي. بعد ذلك قدّمت بعض الفطائر للعمة شاهين التي قالت: «ما الذي يجري هنا؟ لماذا يهتم به الجميع كثيراً؟ توقّفي عن تدليله سوف يسيّئ التصرف ثانية...».

«أوه لا، يا عمتي، أنت لا تعرفين أيّ ملاك هو».

أخذت العمَّة شاهين فطيرة، وحالما ابتعدَت فرشته همسَت لجدتي: «ما الذي يجري هنا؟ يبدو الجميع ودودين للغاية».

أحنت الجدّة رأسها، برطمت وقالت: «الحمد لله. أنا سعيدة طالما أن هذين الأخوين على وفاق. فليكونا سعداء، ما الذي يضيرني».

كان آرش جالساً قرب أبي، ينظر إليه فيما هو يلعب النَّرد مع عمي. ناداه خسرو عدة مرات لكن آرش هزَّ رأسه كلّ مرّة ولم يذهب معه إلى غرفته. قال خسرو: «فلتذهب إلى الجحيم! لنذهب يا أولاد». تبعه باباك وبهرام ابنا فريدة إلى غرفته. التفت بهرام في منتصف الطريق إلى الأعلى وناداني: «تعال معنا. خسرو يريد أن يرينا شيئاً مثيراً للاهتمام». كنت متردّداً لأني لم أثق بخسرو على الإطلاق، لكني كنت أيضاً سئماً للغاية.

كانت العمَّة شاهين تشغِّل أغنية فيما شادي ترقص والجميع يصفّقون ويضحكون. وكانت أُمّي تساعد فتّانة في المطبخ. تشاوَر أبي مع آرش قبل أن يحرّك أحجاره. نظرتُ إليهما بحسد. أردته أن يناديني ويطلب مني الجلوس قربه أيضاً. حتى لو أن العالم

t.me/yasmeenbook

كله انتبه إلي وأبدى اهتماماً كنت لا أزال بحاجة إلى اهتمامه. أخفضتُ رأسي ثم ببطء تبعت الأولاد على الدرج.

أغلق خسرو بابه وأقفله. تماماً مثل المرة السابقة، أخرج من درجه سيجارة وعلبة ثقاب. نظر الأولاد في رعب. قال بهرام: «أنت لا تزال طفلاً! لا تستطيع التدخين!».

«أنا لست طفلاً! أنا أكبر منك بثلاث سنوات. كنت أدخن منذ فترة. هو يعرف». أشار إلي. «لكن الأولاد لا يستطيعون التدخين. هذا الولد أخذ نفساً وتقيأ في كلّ مكان في غرفتي».

نظر الصبيان إليه بإعجاب. وضع خسرو السِّيجارة بين شفتيه باحتراف ثم أشعلها. فتح النافذة ونفث الدُّخان عبر مُشبّك النافذة. كان بهرام وباباك مذهولين إزاء هذه الجسارة. سمعنا أصواتاً خلف الباب وأدار القبضة شخص ما. قالت فرشته: «يا أولاد، هل أنتم هنا؟ كنت أنادي، لماذا لم تجيبوا؟ العشاء جاهز، انزلوا إلى الطابق الأرضي. لماذا الباب مقفل؟ أسرعوا وافتحوه!». ارتعب خسرو ورمى السِّيجارة في خزانته وقال: «نحن قادمون!»، فتح الباب وقال: «أسرعوا، لنذهب ونتناول العشاء».

كنتُ قد تناولتُ الكثير من الحلوى ولم أكن جائعاً. أخذتُ طبقي وتبعت أُمّي إلى المطبخ. كان الجميع قد تجمعوا حول فتّانة. وكانت فتّانة تشرح قصة شتائمي دون أن تربطها بالسبب الحقيقي. ابتسمَت أمي. بدت جدّتي والعمة شاهين متفاجئتين. ارتعبتُ. ماذا لو ضربوني ثانية مثلما فعل معي والد آرش لأنني قلت كلمة بذيئة؟ ماذا لو طلبوا مني أن أردّد ما قلته؟ لم يكن ممكناً التنبؤ بما قد يفعله الكبار. من ناحيةٍ يضربونك بسبب ما

t.me/yasmeenbook

قلته، ومن ناحيةٍ أخرى يضحكون ويعيدون القصة بسعادة على مسامع الآخرين! ركضت إلى الأعلى. كان دخانٌ ثقيل يخرج من تحت باب غرفة خسرو.

قال بابي: «أوه! إنه يدخن ثانية».

فتحتُ باب غرفة فرشته. لم يكن هناك من أحد. دخلتُ. بينما كانت تحزم أغراضها في غرفتي ذلك اليوم قالت: «شكراً لمشاركتك غرفتك. مرحباً بك في غرفتي في أي وقت». استلقيت على سريرها. جلس عاصي وبابي قربي.

قال عاصي: «عليك أن تتعلم كيف تدخّن فلا يستطيع خسرو أن يتباهى بعد الآن».

قال بابي: «يخ! رائحته كريهة ويُشعرك بالغثيان».

قفزتُ على صوت صِّياح وصُّراخ. كان الجميع يتراكضون صارخين. خرجتُ من الغرفة. كان هناك دخان في كلّ مكان. لم أستطع أن أرى الدرج. بدأتُ أسعل. قال أحدهم: «إنه شهاب! إنه في الأعلى!»، شخص ما ركض على الدرج، حملني وأنزلني.

صاح العم: «فليخرج الجميع إلى الخارج! إن البقاء هنا خطر». خرجنا جميعاً من المنزل.

ظلت فتّانة تشدّ شعرها وتصرخ: «بيتي! بيتي!».

أبي، زوج عمتي شاهين، زوج فريدة، والأولاد ظلوا يذهبون ويجيئون بدلاء الماء. بعد بضع لحظات سمعنا صفارة سيارة الإطفاء. كان مُسلّياً للغاية. وصلت الشّاحنات الحمر بخراطيمها الطويلة تماماً كما في الأفلام. لم أكن قط قد رأيت شيئاً جميلاً للغاية عن كثب. تمّ إخماد الحريق، لكن رجال الإطفاء ظلوا

t.me/yasmeenbook

يصبون الرغوة البيضاء في كلّ مكان. كان الأثاث يعوم على المياه. رمى بعض رجال الإطفاء البسط والشراشف من غرفة خسرو على الحديقة. كان الدخان لا يزال يتصاعد منها. كنت أتسلى وأتطلع بانفعال على كلّ هذه المجريات الغريبة.

مشيت بحذر نحو سيارة الإطفاء الحمراء. كانت مملوءة بأشياء غريبة مثيرة للاهتمام. لمستها. كان عمي جالساً على الأرض يمسك رأسه بيديه وأبي واقفاً قربه. كان أحد رجال الإطفاء الذي بدا أنه مسؤول يتحدث إلى أبي عن الحريق. فيما الجميع واقفون حوله يصغون إليهما.

«أظن أن النار بدأت في الخزانة في الأعلى. هل كان الأولاد يلعبون بالنار؟».

اقتربت فتّانة وقالت: «كان جميع الأولاد في الأسفل معنا».

صمت الجميع فجأة. أشارت جدتي إلى ما بدا أن الجميع يفكّر به. «ما عدا شهاب. كان في الأعلى».

التفتوا جميعهم ونظروا نحوي. بدا والدي مدهوشاً وشحب لون أمي. تلعثمَت وقالت: «لكنه لا يعرف حتى كيف يُشعل عود ثقاب! من أين حصل على أعواد الثقاب؟».

كان خسرو يختبئ في زاوية، لكنه تقدَّم فجأة وقال: «لدي علبة كبريت في غرفتي! أريتها له قبل العشاء. ألم أفعل؟».

نظر بهرام وباباك بصمت.

«أريتُه أعواد الثقاب وأعدتها إلى درجي، أليس كذلك يا باباك؟».

«نعم، وضعها في دُرجه».

t.me/yasmeenbook

«ألم يكن واقفاً هناك ينظر نحوي؟».

«نعم، لكن...».

«عندما نزلنا إلى الأسفل لتناول العشاء، عاد إلى الأعلى. أخذ أعواد الثقاب وأشعل النار!».

كان الجميع صامتين. كنت مضطرباً للغاية فلم أستطع متابعة ما قيل. كنت خائفاً من نظرات اللوم التي حدجني بها الجميع. رفعت بصري إلى أُمّي راجياً أن ألقى منها العزاء، لكنها بدت خائفة أكثر مني. غدا والدي شاحباً للغاية. استعادت جدتي وعيها قبل أي شخص آخر وقالت بغلٍّ عميق: «هل ترى يا ناصر؟ آخر مرّة قلتَ إنه لم يكن هو. وإن حجراً ظهر فجأة وضربني على رأسي. ما الذي لديك لتقوله هذه المرة؟ يوجد كلّ هؤلاء الشهود الآن. أخرج رأسك من الرمل. هذا الطفل خطير. عليك أن تفكر بشيء قبل أن يتسبب بمزيد من الضرر أو يقتل أحداً». صارت أُمّي تبكي وهرولت خارجة من منزل عمي.

تقدَّم والدي نحوي. شعرت بأني مشلول ولم أتمكّن من الحركة. جلس أمامي. أمسك بذراعي وعصر بكل قوته، ثم هزني وصرخ: «هل فعلت هذا؟ هل فعلت هذا يا ابن الكلب؟»، ظللت أتأرجح في قبضته إلى الأمام والخلف. شعرت بأني أصغر حجماً وأكثر عجزاً من أي وقت مضى. «هيا تكلّم، أيها النذل. أعرف أنك تستطيع أن تتكلم. أخبرني ماذا فعلت!»، صفعني صفعة قوية دوختني. ذقتُ طعم الدم المالح على شفتي. كدت أموت من شدة الخوف عندما رمت فرشته نفسها عليّ، احتضنتني، وقالت: «من فضلك يا عميّ توقف! ماذا سيفيد هذا؟ إنه لا يزال طفلاً».

سلّمتني لآرش واصطحبني إلى البيت دون أن ينبس بكلمة.

t.me/yasmeenbook

23

لـم يتحـدَّث معـي أحـد فـي تلـك الأيـام القاتمـة. لـم أكـن غاضبـاً، لكـن خالجنـي شـعور شـديد بأنـي بائـس ووحيـد. كنـت لا أزال غيـر قـادر علـى تصديـق أن أحـداً يمكـن أن يكـذب بهـذه السُّـهولة. أُمّـي كانـت تكـذب أحيانـاً، لكـن أكاذيبهـا كانـت لحمايتـي وليسـت لتدميـري. فهمـت ببـطء معنـى الكـذب، وهـذا الفهـم جعلنـي معقـود اللسـان تمامـاً. لـم أعُـد أتكلّـم حتـى مـع عاصـي أو بابـي الآن. كمـا لـو أنهمـا ضاعـا وغـادرا عقلـي إلـى الأبـد.

كان والـداي قـد تجـادلا طويـلاً. وأخـذ أبـي بعـض العمَّـال إلـى منـزل عمـي فـي اليـوم التالـي وقـال إنـه سـيدفع تكاليـف كلّ شـيء بنفسـه. غضبـت أمّـي وقالـت: «هـذا يعنـي أنـك تقـرّ بـأن الحـريـق كان مـن تدبيـر شـهاب».

«بالطبـع كان مـن فعلـه! مـن يمكـن أن يكـون سـواه؟ جميـع هـؤلاء شـهود. لقـد كاد يقتـل أُمّـي المسـكينة أيضـاً!».

«إنّـه لا يُقـدم علـى اقتـراف أي فعـلٍ سـيّئ إلا إذا أسـاء إليـه أو ضايقـه أحـد».

«كُفّـي عـن التَّفـوه بالـكلام الفـارغ! لقـد عاملـه الجميـع بلطـف علـى نحـو استثنائـي ليلـة الأمـس. وظلـت فرشـته تُقبّلـه فيمـا أخـي يقـدّم لـه الحلـوى. بـل حتـى أن فتّانـة قـد تغنَّـت بمديحـه. لا ريـب أنـه كافأهـم علـى صنيعهـم هـذا! أتمنـى لـو كنـت ميتـاً علـى أن أواجـه هـذه المهانـة! هـذا الطفـل معـاق. لا تعتمـد تصرفاتـه علـى العقـل أو علـى الفهـم. وحتـى لـو افترضنـا أنـه يقـوم بهـذه الأمـور للأخـذ بالثـأر مـن

t.me/yasmeenbook

هؤلاء الذين يتسببون له بالأذى، فهذا لا يزال يعني أنه خطِر. هل تريدين أن تعرفي ما الذي أخشاه حقاً؟ ماذا لو أن شادي ضايقَته ذات يوم؟ هل تريدين حقاً أن تجلسي هناك مغمضة عينيك عن الحقائق؟ وربما تأتين إلى البيت لتجدي شادي ميتة؟ هل هذا هو ما تريدينه؟».

أرعبت تلك الكلمات أُمّي وجعلتني انتفض خوفاً أيضاً. كنت قد افترضت على نحو أحمق أن ضعف أُمّي ونقص اهتمام والديّ وجدالاتهما العرضية التي كانت قد بدأت بمجرد أن عرفا أني أحمق، قد بلغت نهايتها. لكنها الآن عاودت الظهور جميعها، بل واشتدّت. لم يكن هناك ما يشير إلى المرأة التي أنقذت فرشته بمفردها. لم تعُد تحميني بعد الآن كما توقّعتُ أنها ستفعل. كان كما لو أنها أيضاً قبلت ذنبي في حادث الحريق وتخيّلتُ أن بوسعي إيذاء شادي. بتخاذلها أصبحتُ بائساً أكثر فأكثر ولم أشكّ بجنوني. إن مجرّد تخيُّلي أني قد أقتُل أختي ذات يوم أخافني. ظللتُ بهاجس هذه الفكرة وهذا ما جعلني أحك بيديّ. كنت أضغطهما معاً وأخفيهما في جيبيّ لكي أتخلص من الحكّة.

جاء والدي إلى البيت باكراً ذات يوم. ألبستني أُمّي ثيابي بصمت. أمسكَت بيد شادي وركبنا جميعنا في السيارة. ظلت شادي تغني الأغاني. لطالما قادني غناؤها وثرثرتها الطفولية دوماً إلى الجنون.

قال بابي: «إنها تغني لتزعجك!».

حرصت على أن أمنع يديّ من أن ترتفعا من تلقاء نفسيهما وتحطّمان رأسها، لكن الإغواء كان آخذاً بالازدياد. وما أن علا

t.me/yasmeenbook

صوتها بشكل كافٍ بحيث لم أعد أسمع حديث والدي، حتى لم يعُد بوسعي المقاومة. ضربتُها على أُمّ رأسها. صرخت. التفتت أمي، وبّختني، وحملت شادي وأجلستها في حضنها في المقعد الأمامي. رمقها والدي بنظرة ذات معنى.

قال عاصي: «ماذا يمكننا أن نفعل؟ لا نستطيع أن نمنع أيدينا لأننا مجانين».

سألَ والدي: «لماذا أنت هادئة للغاية؟ ليس الأمر كما لو أننا نرتكب أمراً سيئاً بأخذه لرؤية طبيب. هذه مسؤوليتنا. علينا أن نكون واقعيين. يجب أن يدخل المدرسة السَّنة القادمة ويجب أن نعرف في أي نوع من المدارس يجب أن نسجله. لو عرفنا المشكلة فسيكون بوسعنا مساعدته بشكل أفضل. ربما لو أنهم يستطيعون أن يعرفوا درجة قصوره العقلي فسوف يكون بوسعهم فعل شيء بشأنه. لقد سمعتُ أن هناك مدارس داخلية خاصّة بهذا النوع من الأولاد».

«أي نوع من الأولاد؟ أنا لا أزال غير مصدّقة أنه مسؤول عن الحريق! ألأنه لا يستطيع أن يتكلم يُلام على كلّ شيء».

«متى ستسلّمين بالحقائق؟ هذا الطفل يعاني من مشكلة. هل ستصدقين إذا قال لك الطبيب ذلك؟».

«لا أفهم لماذا ما من أحد راغب بفهمه. أشعر أحياناً كما لو أنك لا تحبّه على الإطلاق. هل حاولت يوماً أن تعانقه؟».

«كما لو أني أملك الوقت! كان عليَّ بذل جهد مضاعف فقط لأحصل على ساعة فراغ واحدة كي آتي معك إلى الطبيب. لماذا تخلطين الأمور على الدوام؟ أنت دوماً تريدين إلقاء اللوم عليّ في كلّ شيء. لقد كان متخلّفاً منذ الولادة، هل تفهمين؟».

t.me/yasmeenbook

«أعتقد أننا نتحمل مسؤولية كونه في الحالة التي هو عليها. ربما أننا لا نوليه العناية الكافية».

«لماذا تحمِّلين نفسك ذنباً لم تقترفيه هنا؟ لقد عاملنا جميع أطفالنا بالطريقة نفسها، لِم إذن هذان الآخران بخير؟ مستوى كلّ منهما فوق المتوسط. أنا أعمل ليل نهار لأُعيل أولادي، ماذا يُفترض بي أن أفعل سوى ذلك؟».

«ربما أن عملك طوال الوقت هو جزء من المشكلة. نحتاج إليك. أنت لم تكن هكذا من قبل. كنت تستمتع بقضاء الوقت مع عائلتك لكنك الآن تهرب منّا. أظن أنك أكثر سعادة بعيداً عنّا. لم ترغب يوماً في أن ترى هذا الطفل، كما لو أنك متحرّج من حضوره».

«ما الذي تتحدثين عنه؟ توقفي عن التَّفوه بالكلام الفارغ. أنا أحاول فقط أن أكون منطقياً وليس عاطفياً. أفكّر باستمرار بشأن ما يمكنني فعله لهذا الطفل المريض. تستغرق معالجة مرض عقلي وقتاً أطول، وهي شائكة أكثر من معالجة المرض البدني. لذا نحتاج إلى المزيد من المال والمزيد من الموارد من أجل هذا الطفل. قال أحد زملائي إنَّ الأطباء النفسيين يتقاضون عدّة آلاف من التومانات لكل جلسة.. أودّ أن أكون قادراً على العودة إلى البيت باكراً في المساء أيضاً، لكن يجب عليَّ الآن أن أكسب النقود. عليَّ أن أوفر المال من أجل علاجه لا سيّما إذا توجب علينا أن نأخذه إلى الخارج».

«الخارج؟ ما هذا المرض غير القابل للعلاج الذي تظنّ أنه يعاني منه؟».

t.me/yasmeenbook

«مريم، كُفي عن الجدال! كلّ ما قصدتُه هو أني أريد أن أكون قادراً على تأمين أية عناية هو بحاجة إليها فأكون مرتاح الضمير في المستقبل. هناك مدارس خاصة بهذه الفئة من الأولاد في الخارج».

«لكن ما السوء الذي تظنّ أنه يعاني منه بالضبط؟ ليس الأمر كما لو أنه يعاني من البرص أو السرطان!».

«هذه هي المشكلة مع المرض العقلي بالضبط. لا يظهر وجود أيّ خلل من الناحية البدنية. هل تظنين أن هؤلاء الذين يُقدمون على القتل بدم بارد طبيعيون؟ لا! إن مرضهم أسوأ ألف مرّة من البرص أو السَّرطان. وربما لو أنّهم عولجوا في الوقت المناسب لما تحوّلوا إلى قتلة».

«هل يمكنك سماع ما تقوله بنفسك فحسب؟ هل تقارن طفلنا بالقتلة الآن؟».

«كوني واقعية. لقد حاول مرتين أن يقتل شخصاً. نحن كآباء مسؤولين. لا يجوز لنا الجلوس دون فعل شيء إلى أن يحدث أمرٌ رهيب».

«توقّف! لا أريد سماع المزيد بعد الآن!»، وبدأت أُمّي تنتحب.

«ها نحن أُولاء مرّة أخرى! لا أستطيع التحدث إليكِ. لا يمكنك تحمل مواجهة الواقع. لا يمكن لأحد أن ينتقد هذا الطفل في حضرتك. سوف يوضح الطبيب كلّ شيء».

«لا أريد أن أرى الطبيب».

«كوني منطقية! لديه مشكلة. ما الذي سوف تفعلينه بشأن المدرسة السَّنة القادمة؟ لن تقبل به مدرسة بالشكل الذي هو

t.me/yasmeenbook

الآن عليه. لماذا لا ينبغي علينا طلب المساعدة من اختصاصيّ؟».

كانت عيادة الطبيب مزدحمة. جلس كلّ من أُمّي وأبي قرب بعضهما البعض، وجلستُ أمامهما. كان قلبي يخفق بسرعة. بدا جميع الأطفال هناك غريبي الأطوار. كان أحدهم كبيراً لكن لا يزال جالساً في عربة أطفال. كانت ذراعاه وساقاه متشابكة معاً. حدّق بي ولد آخر كان سميناً وشاحباً بعينين جامدتين نصف مفتوحتين. ظلّت أمه تمسح اللعاب المتدفق باستمرار عن فمه. كان الخوف يعتريني إضافة إلى المشاعر الأخرى السَّلبية التي شعرتُ بها في داخلي.

قال عاصي: «سوف يكتشف هذا الطبيب بغير شكّ أننا حمقى ومتخلّفون. وسوف يأخذ النقود التي وفرها والد آرش ويرسلنا إلى مدرسة خاصَّة. سوف يحبسوننا مع جميع أولئك الأولاد الآخرين ولن نرى أُمّي ثانية».

هصرت فكرةُ كوني منفصلاً عن أُمّي قلبي، ولو أنها صدَّقت أيضاً أني من تسبب بالحريق. نعم، لا بدّ أنها صدَّقت ذلك، وإلا لكانت قد استنبطت كذبة وأنقذتني كما فعلَت في المرة الماضية. لقد جرحتني أيضاً كما فعل والدي.

قال بابي: «جميعهم يريدون التخلص منا. قد يفضّلون لو أننا لم نكن معهم».

كنتُ على يقين من أنهم ذات يوم سوف يفعلون هذا. لن يكون والد آرش متحرّجاً إزاء إنجابه ابناً مثلي بعد الآن. عندئذ سيكونون جميعاً سعداء مرّة أخرى. قد يتحدّثون إلى بعضهم البعض ولن ينخرطوا في المشاجرات ثانية قط.

t.me/yasmeenbook

قال عاصي: «وضع والد آرش هذه الخطة للتخلّص منا».

قال بابي: «إذا اتفق الطبيب مع والد آرش حينئذ لا يمكننا فعل شيء. سوف يرسلوننا إلى مدرسة بعيدة».

نهضت أمي، أمسكَت بيد شادي، واتجهت نحو دورة المياه. سألتني بلطف: «شهاب، هل تحتاج إلى الذهاب أيضاً؟».

هززت كتفي. لطالما كانت تطرح هذا السُّؤال مئة مرّة في اليوم. واصلَت هي وشادي السير إلى دورة المياه. كان والدي يقرأ صحيفة. نهضتُ بهدوء وخرجتُ من عيادة الطبيب.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

24

كان الشَّارع مزدحماً، وبدا لي أن النَّاس جميعاً ضخام وطوال القامة. ولرؤية وجوههم، كان عليَّ أن أميل برأسي إلى الخلف لأقصى درجة ممكنة. كانوا يحيطون بي مثل جدار. مشيتُ على غير هدى في الاتجاه الذي كان معظم الناس يذهبون إليه. كان الطقس بارداً وغائماً. وكان سائقو العربات في حيرة من أمرهم فيما إذا كان الوقت لا يزال باكراً جداً لإنارة المصابيح الأمامية. مشيتُ بمحاذاة واجهات متاجر متألقة، لكن معروضاتها لم تُثر اهتمامي. كان قلبي مفعماً بالحزن وقد شعرتُ بغصَّة في حلقي. لطالما كنت خائفاً من أن أكون وحيداً وضائعاً، لكنّي الآن غادرت من تلقاء نفسي. واصلت التَّحدث مع عاصي وبابي. كان بابي مرتعباً وقال: «إلى أين سنذهب الآن؟ سوف تضيع! عُد، لنذهب إلى البيت».

قال عاصي: «لا، لن يأخذونا إلى البيت. سوف يرسلوننا إلى مكان قصيّ. لا تخَف، أنا هنا». لكن صوته كان ممتزجاً بالخوف أيضاً.

كان النَّاس ينظرون إليَّ أحياناً ويقولون لي شيئاً ما، لكني كنت أحثُّ الخطى متجاوزاً إياهم فلا يُدركون أني لا أقوى على الكلام. اجتزت تقاطعاً مزدحماً وانعطفتُ على شارع أكثر ظلمة يحتوي على عدد قليل من المتاجر. كان الزحام أخفّ هنا. وكان الظلام الآن قد حلّ تقريباً. كنت خائفاً للغاية وقد آلمتني قدماي. استمررت في بلع ريقي بصعوبة، لكن الدُّموع سالت على وجهي

t.me/yasmeenbook

بشكل يتعذَّر ضبطُه. شعرت بوحشة شديدة. تمنيت لو يتعرف أحدٌ عليّ ويأخذني إلى البيت. شعرت بالبرد والجوع. استندت على جدار يتملّكني شعور بأني متروك وغير مرغوب بي. لم يحببني أحد. حتى أُمّي، مصدر الأمل الأخير، فقد استسلمَت وأرادت أن ترسلني بعيداً. كنت مستغرقاً في أفكاري بعمق شديد حتى أني لم أدرك من أين جاءت هذه السَّيدة. ربتَت على شعري بيد ترتدي قفازاً وقالت بلطف: «لماذا تبكي أيها الصغير؟»، جثَت أمامي. «ما اسمك؟ ما الخطب؟ هل أنت ضائع؟ أين أمك؟».

بدأت أجهش بالبكاء وأشرت نحو الاتجاه الذي جِئت منه. أمسكَت السَّيدة اللطيفة يدي وبدأت تسير في ذلك الاتجاه.

«تمعّن جيداً! أبق على عينيك مفتوحتين. انتبه جيداً وأخبرني إذا كنت ترى أمّك».

لم نكن قد وصلنا إلى نهاية الشَّارع بعدُ، عندما توقفت. جثت إلى جانبي مرّة أخرى وقالت: «اسمع يا عزيزي، يجب عليك أن تقول لي اسمك. هل تعرف عنوان بيتك؟».

نظرت إليها في صمت.

قال بابي: «هي لم تدرك أننا حمقى ولا نقوى على الكلام».

نال التعب من السَّيدة لطول الانتظار وقالت: «لا أعرف ماذا أفعل. أنت لن تتكلم وأنا في عجلة من أمري. انتظر هنا إلى أن يأتي والداك ويعثرا عليك». أفلتَت يدي وغادرَت. شعرتُ كما لو أني أغرق وأن آخر قارب للنجاة يبتعد عنّي. غمرني الخوف. ركضتُ خلفها، أمسكت بطرف تنورتها ونظرت إليها بعينين متوسّلتين. أبطأَت. جثت ثانية وقالت: «إن ترغب مني أن أساعدك

t.me/yasmeenbook

في العثور على أمك فيجب عليك أن تخبرني باسمك وعنوانك. ما اسمك؟».

نظرتُ إليها بعينين دامعتين. أخذَت نفساً عميقاً وتوقّفت عن التَّشديد عليّ. أمسَكت بيدي ومشَت إلى حيث كان جمع من الناس يتحلقون حول رجل شرطة. لم أستطع في تلك الفوضى سماع ما قالته للشرطي. تقدم وسألني عن اسمي وعنواني واسم والدي.

قالت المرأة: «أظن أنه أصمّ».

«يا له من موقف. يجب عليك أن تأخذيه إلى المخفر يا سيدتي».

«لكن يتوجب عليَّ القيام بالكثير جناب الضابط! كنت أمشي هنا وهناك مدة ساعة بسبب هذا الصَّبي. عندي ضيوف وأنا متأخّرة. سوف يقلقون».

«ما الذي يُفترض بي أن أفعل؟ أنا في الخدمة الآن وعليَّ مواكبة هؤلاء السَّادة. لا يمكنني إبقاء هذا الولد هنا معي في البرد».

«لا يمكنني الذهاب إلى المخفر أيضاً. هذا الطفل لن يتركني. هل تظن أنهم سيعتنون به هناك؟».

«بالتأكيد ليس بقدر ما يمكنك فعله!».

قفل الشرطي عائداً إلى الرجال المحيطين به. بدأت المرأة تتفكّر. وبعد بضع لحظات اقتحمت الحشد وتقدمت من الشُّرطي ثانية. ثم نادته عدة مرات إلى أن انتبه إليها أخيراً.

«أيها الضَّابط، هذا الطفل متعبٌ وجائع. إنه يثق بي. ولا يمكنني أن أدعَه في المخفر وحسب. إن توافق على أن آخذه إلى

t.me/yasmeenbook

البيت، وأترك اسمي ورقمي معك. وإذا ظهر والداه فأخبرهما أن يأخذاه من منزلي».

هزّ الشُّرطي برأسه وعاد إلى الحشد. أخذتني المرأة إلى سيارة مركونة في شارع آخر. أجلستني في المقعد الخلفي وجلسَت في مقعد السَّائق. أخرجت قلماً من حقيبة يدها ودوَّنت أشياء على قصاصة ورقية وقالت: «ابق هنا. سوف أعطي هذا العنوان للشرطي وأعود».

خشيت من أنها ستتركني وتمضي. أردت أن أتبعها لكن السَّيارة كانت دافئة على نحو مريح ومنحتني شعوراً بالأمان. كنتُ مُرتبكاً للغاية ومُتعباً حتى أني غططت في النوم حالما بدأَت السيارة بالحركة.

t.me/yasmeenbook

25

لم يكن شهاب هناك عندما عدتُ من دورة المياه. نظرتُ من حولي بِحيرةٍ وسألت ناصر: «هل أرسلت شهاب إلى مكان ما؟».

«ألم يكن معك؟».

«لا. كان جالساً هناك. هل رأيت أين ذهب؟».

«كلا!».

فتشنا في البداية في أرجاء عيادة الطبيب، ممتعضَين بعض الشيء. لكن سرعان ما داهمنا القلق. خرجنا إلى الشَّارع وبحثنا في المحال والمباني المحيطة. وظللنا نسأل العابرين عن صبيّ بعمر خمس سنوات يرتدي معطفاً كحلياً وقبّعة منسوجة باللونين الأحمر والأزرق. لم يكن هناك ما يُشير إليه. ظللنا نركض مغتمَّين. ركب ناصر السَّيارة. كان قلقاً ومنزعجاً. قال: «اركبي، لِنتفقّد في الأنحاء».

كنت أبكي عندما ركبتُ. «ما الذي أرعبه؟ ما الذي فعلتَه له؟».

«أنا؟ ما الذي فعلت؟ إنه مجنون، ليس هناك سبب لما يفعله».

«هذا ليس صحيحاً! كنت أعرفُ أنه منزعجٌ لكنه لم يستطع أن يقول شيئاً. إنه حزين وأنت لا تُعامله بلطف على الإطلاق».

تجولنا في الشوارع بالعربية إلى أن حلَّ الظلام. ظلَّ ناصر يمضغ شاربيه ولم أستطع التَّوقف عن البكاء. أدركَت شادي وجود خطبٍ ما وجلسَت بهدوء في المقعد الخلفي. بدا عليها أنها قلقة أيضاً.

«ماذا لو أن أحداً خطفه؟ كان يخشى الذَّهاب إلى أي مكان بمفرده. كيف يمكنه أن يبتعد كثيراً؟ أين يمكن أن يكون؟ اللّهمّ

t.me/yasmeenbook

ليتك رزقتني بالموت! الظلمة تدلهِمّ وطفلي المسكين متعبٌ وجائع! ما الذي سيحدث له؟».

لم يكن أمامنا إلّا خيار واحد هو أن نقصد مخفر الشُّرطة. ملأنا جميع الاستمارات الضَّرورية وقاموا بإجراء بضعة اتصالات. كان الضابط المسؤول رجلاً لطيفاً. قال بشفقة: «لا تقلقوا. سوف نعثر عليه. اذهبا إلى المنزل. سوف أُعلمكما حالما نسمع شيئاً عنه».

جاء آرش إلى الباب ما أن سمعنا ندخل.

«ما الأمر، أمي؟ لماذا تأخّرتما؟».

صعدتُ الدَّرج وكنت لا أزال أبكي. بدا ناصر مُجهداً ومُنزعجاً. أضجع شادي على الأريكة وقد كانت قد غطت في النوم في السَّيارة. قال بصوت أجش: «شهاب مفقود».

«ماذا تقصد بـ (مفقود)؟ ألم يكن معكما؟».

«كنا جالسين في عيادة الطبيب. ذهبت أمّك إلى دورة المياه وكنت أقرأ الصَّحيفة. اعتقدت أنه ذهب إلى دورة المياه مع أمك. لكنه خرج على ما يبدو ولا نعرف أين هو الآن».

«حسناً دعنا نذهب ونبحث عنه!».

«ماذا تظن أننا كنَّا فاعلين طيلة هذا الوقت؟ لقد أبلغنا الشُّرطة أيضاً. قالوا إنهم سيتصلون بنا في حال أنّهم يسمعون شيئاً عنه».

هبطتُ الدَّرج محتدَّة. «لا يمكنني الاكتفاء بالجلوس هنا. سأخرج وأبحث عنه». كنت أرتعد من رأسي حتى أخمص قدميّ. تقدَّم آرش. «سآتي أيضاً. مسكين شهاب لا يقوى على الكلام. كيف سيعرفون أنه ابننا حتّى لو وجدوه؟».

t.me/yasmeenbook

«مريم، اهدئي قليلاً. إلى أين ستذهبين؟ بحثنا في كلّ مكان. كُلي شيئاً على الأقلّ. سوف أذهب إلى المخفر لأرى ما إذا وردهم أي شيء عنه».

تجمَّدنا جميعنا عندما رنَّ جرس الهاتف. رفع ناصر السَّماعة بسرعة. خائفاً ومترجّياً في الوقت نفسه، ضغطتُ يدي على فمي لأمتنع عن الصُّراخ، «هل الاتصال آتٍ من المخفر؟».

«لا... مرحباً، أخي... لا، لقد وصلنا إلى البيت للتوّ... شهاب مفقود، كنَّا نبحث عنه».

بعد خمس دقائق كان حسين وعائلته عند بابنا.

«ما الذي حدث؟».

«لا أعرف ماذا أفعل!»، وللمرة الأولى امتلأت عينا ناصر بالدموع. وضع رأسه على كتف حسين وبكى.

جلست فتّانة قربي وأمسكَت بي. «سوف يعثرون عليه. أعدُك».

كانت فرشته واقفة عند الباب تنظر بعينين قلقتين ودامعتين. سأل خسرو آرش: «هل هو مفقود حقاً؟».

قال حسين: «اشرح كلّ شيء. أين فقدتموه؟ في أي وقت حدث ذلك؟».

روى ناصر كلّ شيء باختصار. كنتُ أبتهل دون توقف بينما مرّت أفكار رهيبة في رأسي.

«طفلي البريء المسكين! لقد آذيناه كثيراً حتى أنه هرب. هو لا يذهب قط إلى أي مكان دوني، والآن قد هرب. لقد اختار أن يتركنا! هل يمكنك أن تتخيل كم كان بالضرورة منزعجاً ليختار أن يغادر بمفرده؟ لقد عاملناه بقسوة شديدة! فتّانة، صدقيني عندما

t.me/yasmeenbook

أقول لك إن سنة مرّت على الأقل منذ أن عانقه والده أو قبّله آخر مرّة».

قال ناصر بمرارة: «إنه ليس خطئي. كلّما حاولتُ معانقته لا يُعجبهُ ذلك. كما لو أني غريب. كان بالفعل ألطف مع الغرباء. يُحملق بي أحياناً كما لو أنه يكرهني. وأحياناً كان يتظاهر بأني لست موجوداً حتى».

«لأنك لم تُولِه أي اهتمام ولم تُظهر أمامه أي لطف قط! هل ظننت أنه لن يلاحظ ذلك؟ كان طفلي المسكين البريء مثل شوكة في خاصرتك وخاصرة أمّك. كلّ مرّة ترانا فيها تتعمّد أن تُلمّح إلى كونه معاقاً أو متخلّفاً. وأنت تصدّقها. أُقسم أن شهاب كان يسمع ويفهم كلّ شيء. أخذناه إلى الطبيب اليوم نزولاً على إصرار ناصر، فيما هو يكره الأطباء. كان قد توقَّف عن اللعب من يوم الحريق. وكان مكتئباً للغاية ولم أستطع تحمّل النظر إليه. حاولتُ أن أُلهيه بأشياء مختلفة، أن أُسعده، لكن بلا طائل. لم أستطع أن أصدّق أنه يمكن لطفل أن يكون حزيناً لمثل هذا الوقت الطويل. أين طفلي الضَّعيف المسكين الآن في هذا البرد؟ سوف يتجمَّد لو بقي في الشَّارع! ماذا لو أن أحداً خطفه؟ لقد سمعتُ أنهم يخطفون الأطفال ويبيعون كُلياتِهم!».

بدأت فرشته تنتحب بصوت مسموع. قالت فتّانة: «لا سمح الله! توقّفي عن قول هذه الأمور! لا أستطيع أن أتخيل ما تعانين منه، لكن ينبغي عليك أن تثقي بالله».

«يجب عليَّ أن أبحث عنه. لا يمكنني الاكتفاء بالجلوس هنا».

«إنها السَّاعة الحادية عشرة الآن وقد بحثنا في كلّ مكان».

t.me/yasmeenbook

«ماذا لو أنه في مكان ما في الشَّارع؟».

قال حسين: «إنها على حق. سوف نبحث في الأرجاء. فهذا أفضل من الجلوس هنا».

«ماذا لو اتصلوا من مخفر الشُّرطة؟».

«سيبقى الأولاد هنا وسوف نتفقّدهم كلّ نصف ساعة».

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

عندما استيقظتُ في الصَّباح أفزعتني غرابة الغرفة. أخفيتُ رأسي تحت الغطاء وقد ملأ تذكُّر أحداث الأمسية المنصرمة قلبي بالحزن، لكن سرعان ما استُبدِل هذا بشعور عظيم بالخوف. خرجتُ من تحت الغطاء ونظرتُ في أرجاء الغرفة بفضول. كانت غرفة كبيرة ومضيئة. كان هناك على أحد الجوانب دولاب ملابس، خزانة ذات مرآة، خزانة كتب مصنوعة من الخشب الأبيض. على الجانب الآخر كان هناك مكتب كبير فيه عدَّة أدراج، تقويم مكتبي، حمَّالة أوراق، وكوب جلدي بُنّي اللون يحوي أقلام رصاص وأقلام حبر جافّ. كانت السَّتائر الزهرية الأرجوانية ومفارش السَّرير تشعّ تحت الضُّوء الدَّاخل من النَّافذة في أعلى السَّرير. أحببتُ الغرفة. ورغم أنها احتوت على كلّ شيء، لكنها بدت كما لو أنها مهجورة منذ وقت طويل.

جلستُ على السَّرير. افتقدت أمي. كانت هذه أول مرّة في حياتي استيقظ فيها دون أن تكون قربي. شعرتُ بغصَّة في حلقي. سمعتُ ضجيجاً من الخارج. نظرتُ عبر النَّافذة فوق السَّرير ورأيتُ حديقة كبيرة مليئة بالأشجار. ثم لاحظتُ الدُّمى المرتّبة أمام المرآة، الكثير من الدُّمى الجميلة. قمتُ من السَّرير وتناولتُ واحدة منها. كنت مستغرقاً في تأمل الدُّمية بعينيها الزرقاوين الزجاجيتين عندما انفتح الباب ودخلَت السَّيدة التي رأيتُها في الليلة السابقة. رميتُ الدُّمية خوفاً، ثم قفزتُ في السَّرير وجذبتُ الغطاء على رأسي. لكنها جلسَت قربي ضاحكة وراحت تربّت عليَّ من فوق الغطاء.

t.me/yasmeenbook

«استيقظ يا عزيزي. لقد كنتَ متعباً للغاية في الليلة الماضية فلم تتناول العشاء أيضاً. لنغسل يديك ووجهك ونتناول بعض الفطور».

كنت لا أزال لا أجرؤ على الخروج من تحت الأغطية. لكنها سحبَتها جانباً ببطء وواصلَت القول بابتسامة: «انهض يا حبيبي. لا تخف».

نظرت إلى عينيها اللطيفتين ووجهها المبتسم. بدت أكبر ممّا كانت عليه ليلة الأمس. كان لشعرها لون جميل، أشقر تقريباً مثل شعر اللعبة المُلقاة على الأرض الآن. كان هناك أحمر شفاه باهت على شفتيها. نادراً ما تضع أمي أحمر الشِّفاه. كانت المرأة ترتدي فستاناً طويلاً وفضفاضاً، مُزركشاً بالزهور، يُذكِّر بالحدائق. لا، لم أكن خائفاً منها. نهضتُ من السَّرير، أمسكتُ بيدها ثم مشينا إلى الحمَّام.

«فتى طيب. هل يمكنك أن تغتسل بنفسك أم أنك بحاجة إلى مساعدة؟».

هززت رأسي، دخلت الحمَّام وأغلقت الباب.

قال بابي: «إنها لا تدرك أننا كبرنا الآن ويمكننا أن نغتسل بأنفسنا».

كان هناك رجلٌ أكبر سناً جالساً إلى طاولة الفطور يقرأ جريدة. فوجئت لرؤيته. لم أكن أتوقّع أن يكون هناك أحدٌ آخر في المنزل. اختفيت خلف السيدة. قالت بصوت سعيد: «صباح الخير! نحن هنا!».

t.me/yasmeenbook

وضع الرجل الجريدة جانباً وقال: «أوه يا إلهي، يا لهذا الطفل الصَّغير الظَّريف الذي عثرنا عليه! كيف حالك يا بُنـي؟ ما اسمك؟».

كان لطيفاً أيضاً. بوسعي إدراك لطفهِ من نظرة.

قال عاصي: «هما لا يعرفان أننا أغبياء ولا نقوى على الكلام، لهذا السَّبب يُحبانِنا».

قالت السَّيدة: «لا تزعجه، لا أظن أنه قادر على الكلام. سوف ندعوه (أميرنا الصَّغير)، كيف يبدو ذلك؟»، ضحكَت. «ماذا تظنّ؟ هل يُعجبك ذلك؟».

قال بابي: «(الأمير الصَّغير)، كما في الرسوم المتحركة».

ابتسمتُ ابتسامة خجل.

«لقد أعجبَه. إذن هذا الصَّبي الصَّغير يحب (الأمير الصَّغير) ولا بأس لو دعوناه بهذا الاسم. حسن جداً، اجلس وتناول الفطور الآن». كانت المرأة تتحدّث باستمرار وقد صنعت لأجلي شطائر صغيرة من الخبز بالزبدة.

قال الرجل: «أتذكرين الضجة التي اعتادت ناستاران إثارتها فقط لتأكلَ لقمة واحدة؟».

«نعم، لكن كيوان من ناحية أخرى كان أكولاً جيداً».

«لا، لقد نسيتِ. عندما كان في عمر هذا الأمير الصَّغير نفسه كان يثير ضجة أيضاً. أصبح أكولاً جيداً عندما أصبح في عمر أكبر قليلاً».

«أتذكر كيف كنت أصفّ اللقيمات مثل قطار وأصدر صوت صفير فقط حتى يفتحا فاهيهما ويسمحا للقطار بدخول النفق؟».

t.me/yasmeenbook

«نعم، افعلي الأمر نفسه مع هذا الفتى الحبُّوب».

«لا، هذا الأمير الصَّغير فتى طيّب ويأكل طعامه».

بعد الفطور بدأَت المرأة بجمع الأطباق وتنظيف الطاولة. نهض الرجل، وضع الجريدة جانباً، شبك أصابعه وتمطّى. سأل: «سودابه.. هل تحتاجين شيئاً من المتجر؟».

«اجلب بعض الحليب والمثلَّجات».

«مثلجات في الشِّتاء؟».

«الأطفال يحبّون المثلَّجات».

«أوه، حسناً. سوف آخذه معي».

«فكرة جيدة، كما في الأيام السالفة عندما اعتدت أن تأخذ كيوان».

«نعم، تلك كانت أوقاتاً ممتعة. حسناً، أيها الأمير الصَّغير، ارتدِ معطفك، ولنذهب إلى الدُّكان. هل ترغب بمرافقتي؟».

أومأتُ برأسي بخجل، وذهبتُ لأجلب معطفي من غرفة النَّوم.

عندما عدتُ كان الرجل واقفاً عند المطبخ يتحدث مع المرأة.

«ألا تظنين أنه أمر غريب أننا لم نسمع من أهله لحدّ الآن؟».

«لا، لم يمرّ وقت طويل بعدُ إلى درجة كبيرة».

«طفلٌ مسكين. إنه عذبٌ للغاية. هل تظنّين أنه لا يقوى على الكلام على الإطلاق أو أنه فقط يبقى صامتاً معنا؟».

«أظن أنه فعلاً لا يقوى على الكلام. وإلا لكان قال شيئاً ليلة الأمس عندما كان خائفاً للغاية، متعباً ويشعر بالبرد».

«ربما عقد الخوف لسانه، لأنه من الواضح أنه يسمع ويفهم كلّ شيء».

t.me/yasmeenbook

«لا أعرف. مهما يكن، فمن الواضح أنه منزعج من شيء ما. عيناه حزينتان للغاية».

«هذا طبيعيّ. سوف أكون حزيناً وخائفاً أيضاً لو كنت ضائعاً».

«لا، إنه أكثر من ذلك».

استدار الرجل ولاحظ وجودي. ضحك وقال: «أيها الأمير الصَّغير! لقد عُدتَ! إذن وجدتَ قبّعتك ومعطفك، لكني لم أحلق ذقني بعدُ. سوف نحلق لحيتينا معاً عندما نعود، حسناً؟».

أمسك الرجل بيدي. شعرت بالأمان. بعد فترة وصلنا إلى حديقة. سألني الرجل: «هل تريد أن تلعب في الحديقة؟»، ودون انتظار ردّ منّي فقد قادني حيث ساحة اللعب وساعدني في الجلوس على أرجوحة وراح يدفعني. ثم جلس على مقعد ينظر إليَّ بابتسامة حزينة. شعرتُ أن عليّ أن أفعل شيئاً لأجعله سعيداً، لذا ركضت على أعلى زُحليقة. أردته أن يرى أني سريع ورشيق. لا أعرف لماذا كان مُهماً جداً بالنسبة لي أن أحظى باستحسانه. لوّحت له فابتسم ولوّح لي. وبجُرأة نزلت عن الزُحليقة فصفّق لي. عندما غادرنا الحديقة قال: «لنذهب لنتسوق لأجل سودابه الآن».

قال صاحب المتجر: «تهانينا يا سيد كريمي، لديك ولد!».

«نعم صحيح! وما المشكلة في ذلك؟».

«في عمرك لا شيء طالما أنه حفيدك! هل هو حفيدك؟».

«لشدّما تمنّيت ذلك! فلو كان لدي حفيد مثل هذا الأمير الصَّغير لما كنت أحتاج أي شيء آخر».

قال عاصي: «مثلنا؟ هو يريد طفلاً مثلنا؟ إنه شديد الحماقة. هو لا يعرف أننا معاقون».

t.me/yasmeenbook

انحنى الرجل وحملني ورفعني أمام المعرض.

«أيها الأمير الصَّغير، هل تريد بعض الحلوى أم لوح شوكولاتة؟»، لم أكن معتاداً على هذا القدر الكبير من اللطف لذا أخفضتُ رأسي. قبَّل خدّي. «لا تخجل. هيا، أخبرني. لقد آلمني ظهري وعليّ أن أنزلك فأنت ثقيل!»، قلقت بشأن ظهره المتوجّع وحاولت أن أنزل. وضعني أرضاً متفاجئاً. «ما الذي حدث؟ لا تريدني أن أحملك؟»، هززتُ رأسي. «هل أنت قلق بشأن ظهري؟»، أومأت بسعادة برأسي عدة مرات. نظر الرجل نحوي بلطف عظيم ولاطف شعري. «يا لك من ولد محبوب! حسناً إذن، جواد أغا اختر شيئاً لذيذاً بنفسك، وأعطني حليباً ومثلجات أيضاً».

وضع جواد الحليب وأشياء أخرى في كيس بلاستيكي وقال: «يا سيد كريمي، لم تقل طفل من كان هذا».

روى السَّيد كريمي كلّ شيء بصوت خافت. عرفتُ أنه كان يتحدّث عني لكني كنت ممتنّاً أنه فعل ذلك بصوت خفيض. كان والد آرش يتحدّث دوماً بصوت مرتفع، حتى عندما كان يقول أموراً سيئة عني. فهو يفكّر أنه طالما أني لا يمكنني أن أتحدث، فلا أستطيع أن أسمع أيضاً. لا أعرف لماذا ذكّرني هذا الرجل الذي عرفتُ الآن أنه يُدعى السيد كريمي، بوالد آرش مع أنهما مختلفان كثيراً. ربما لأني تمنيت أن يهتم بي والد آرش كما فعل السيد كريمي. كان طوال طريق العودة يتحدث معي ويُريني أموراً مثيرة للاهتمام.

عندما عُدنا، حيّتنا سودابه وأخذت الكيس إلى المطبخ. وعندما كانت تخلع عني المعطف قالت: «لقد طهوتُ لك المعكرونة على

t.me/yasmeenbook

الغداء». التفتَت إلى السَّيد كريمي: «هل تذكر كيف أحبّ الأولاد المعكرونة أكثر من أي شيء آخر؟ يمكنك أن تتناول بعض الرزّ المتبقّي من ليلة الأمس».

«سوف آكل قليلاً من المعكرونة أيضاً. هل من أخبار؟».

«كلّا!».

تناولنا الغداء ضاحكين وسعداء. أطعمتني سودابه آخر بضع لقيمات وهي تصفِّر وتتظاهر أنها عربة قطار، تماماً كما كانت أُمّي تفعل أحياناً عندما تطعم شادي. بعد الغداء غسلت سودابه الأطباق ووضعني السَّيد كريمي قربه في السَّرير. حدَّثني عن أولاده. استمتعت بالجِرس العميق لصوته. ثم أخذتني سودابه إلى غرفة النَّوم الزهرية، وضعتني على السَّرير وقالت: «هذه غرفة ناستاران. لا أستطيع حمل نفسي على تغيير أي شيء هنا. هي تحبّ أن ترى غرفتها كما كانت كلما عادت إلى إيران. لطالما أحبّت ناستاران الكتب حتى عندما كانت طفلة صغيرة. دعني أرى إن كنتُ أستطيع أن أجد لك واحداً منها». سحبَت كتاباً صغيراً وناولتني إياه. كان يحتوي على صور جميلة لم أرها من قبل قط. كانت كُتب أُمّي كلها مكررة، ونادراً ما كانت في مزاج ملائم لأن تقرأ لي. قرأت لي سودابه، مع ذلك، القصة كاملة. عندما انتهت أغمضتُ عينيّ وتظاهرتُ بأني سأنام فلا أُزعج هذه المرأة اللطيفة بعد الآن. فهي أيضاً كانت نعسانة، وقد هوّمت برأسها بضع مرات عندما كانت تقرأ لي. أردتُ أيضاً أن أكون وحيداً لبعض الوقت. بعد مغادرتها الغرفة فتحت عينيّ.

t.me/yasmeenbook

قال بابي: «أين أُمّي الآن؟ هل تظن أنها تفتقدنا أيضاً؟»، شعرتُ بغصَّة في حلقي. «ماذا يفعل والد آرش الآن؟ ربما هو سعيدٌ لأننا ضعنا. هل أنهم يبحثون عنَّا؟ ربما تكون شادي نائمة في سريرنا». ضغطت رأسي على المخدة وانفجرتُ بالبكاء.

t.me/yasmeenbook

27

ذهبنا في اليوم التَّالي إلى مخفر الشُّرطة مع ناصر وحسين. كانت ورديّاتهم قد تبدلت. فاستعرضنا كلّ شيء مرّة أخرى. أرسلَنا الضَّابط المسؤول إلى البيت ووعد بالاتصال حال ورود أية أنباء إليه.

كنت مضطجعة على الأريكة أستمعُ إلى الصغار يتحدثون في غرفة آرش، «أمي على حق. لا بدّ أن شيئاً قد حدث له. لو أن رجلاً محترماً عثر عليه لكان أخذه إلى المخفر الآن ولكنا سمعنا شيئاً عنه. لا بدّ أنهم اختطفوه».

بدأت فرشته تنتحب: «لقد كان ولداً طيباً للغاية. لولا مساعدته لما كنتم قد عثرتم عليَّ قط. أنا أدين له بحياتي».

أجاب خسرو بغضب واستهزاء: «اخرسي. لكنت وجدتك بنفسي. ليس كما لو أن ذلك الغبيّ كان سوبرمان!».

صاح آرش: «لم يكن غبيّاً على الإطلاق. أنت من أطلق عليه هذا اللقب. كان حزيناً على الدوام لأنك تتنمّر عليه كثيراً».

«لم تكن لي علاقة بخصوص كونه حزيناً. الجميع في منزلكم حزين. أمّك دوماً مكتئبة، وهي لا تقول أي شيء بالمطلق، ونادراً ما تضحك. ووالدك لا يتواجد في البيت أبداً، وعندما يفعل فهو إما غاضبٌ أو مُتعب. أما أنت فتدرس باستمرار في غرفتك. في الحقيقة، كلما آتي إلى هنا أكتئب أيضاً. في منزلنا نحن جميعاً نتجادل، نصيح على بعضنا البعض وأحياناً يصفعنا والدي، لكن على الأقل يتحدّث معنا وأحياناً يروي النكات».

t.me/yasmeenbook

بحلول الظُّهر كانت العائلة بأكملها قد اجتمعت في حديقتنا. لم أعُد أمتلك حتى الطاقة للكلام بعد الآن. راحت فتّانة تعتني بالضُّيوف وتشرح الأحداث للقادمين الجُدد. كانت فرشته قد حبست نفسها في غرفة شهاب. لم يكن واضحاً ما إذا كانت الجدَّة أكثر انزعاجاً على شهاب أم على ولدها. فقد ظلت تردّد: «يا للعناء الذي تجشمه ولدي! لقد هرم ناصر كثيراً!»، وصلت فريدة، عانقتني وقالت إنها واثقة من أن رجال الشُّرطة سيعثرون على شهاب.

جاء الطبيب وأعطاني حقنة كي أهدأ. لم أكن راغبة بالصُّعود إلى الطابق الأعلى، خشية أني سأُفوّت شيئاً. أخذوني إلى غرفة آرش واستلقيتُ على السَّرير. أرهفتُ السَّمع باهتمام إلى جميع الأصوات في الخارج.

قالت شاهين: «كيف ضيّعتموه؟ إنه لم يجرُؤ قط على الذَّهاب إلى أيّ مكان دون أمه».

قالت فريدة: «لا بد أنهم اختطفوه».

قالت الجدّة بمشاعرها المتناقضة نحو شهاب: «لا سمح الله! من يرغب بطفل أبكم متخلّف بأية حال؟».

أوضحت فتّانة: «كان منزعجاً للغاية بعد اشتعال النار في منزلنا. وقد اصطحباه ليعرضاه على طبيب فهرب...».

قال بهرام موبّخاً خسرو: «عليك أن تخبرهم أنه لم يكن هو المسبّب. هذا ليس عدلاً، عليك أن تخبرهم!».

جلستُ وأصغيتُ بعناية.

«كيف تعرف أنه لم يكن هو؟ لم نكن هناك. ربما صعد إلى الأعلى ثانية، وأخذ أعواد الثقاب وأشعل النار».

t.me/yasmeenbook

«هـذا ليـس صحيحـاً. أنـت تعلـم أن رجـل الإطفـاء قـال إن النـار اندلعـت فـي خزانتـك، ثـم انتشـرت إلـى ملابسـك وبقيـة أرجـاء الغرفـة».

خرجـتُ مـن الغرفـة. كان ناصـر وحسـين وآرش جالسـين إلـى طاولـة الطعـام، لكنهـم كانـوا يُصغـون إلـى الأولاد أيضـاً.

نهـض ناصـر وتقـدَّم مـن بهـرام وقـال: «بهـرام، أخبرنـي مـاذا تعـرف؟ مـا الـذي حـدث تلـك الليلـة؟».

ذُعـر خسـرو. «لـم يحـدث شـيء. إنـه يتخيـل فحسـب. يظـن أنـك ستجد شـهاب لـو أنـه اختلـق هـذه القصـص».

«حتـى لـو لـم نجـده علـى الأقـل سـوف نعـرف مـا الـذي حـدث بالفعل. كان منزعجـاً للغايـة. الطفـل المسـكين لا يقـوى علـى الـكلام، لكنكم أيها الفتيـان تسـتطيعون، لـذا يقـع على عاتقكم قـول الحقيقة».

كانـوا جميعـاً صامتيـن. ثـم سـمعتُ صـوت بهـرام العـازم: «أردت أن أقـول شـيئاً منـذ البدايـة. كنـت منزعجـاً للغايـة أولاً، لكـن بعدئـذ اعتقـدت أن شـهاب لا يفهـم أي شـيء وأن الأمـر انتهـى بالكامـل. لـذا تغاضيـت عـن الأمـر. لـم أرغـب فـي أن أثيـر ضّجـة وأزعـج الخالـة فتّانـة. لكـن عندمـا سـمعت أن شـهاب مفقـودٌ عرفـت أنـه سـيهرب لأنـه كان منزعجـاً جـرّاء اتهامـه بالتسـبب بالحريـق».

«إذن أخبرني ما الذي حدث تلك الليلة».

كان الجميـع يحملقـون ببهـرام. انتهـز خسـرو الفرصـة وتسـلّل بهـدوء.

«كنـا جميعـاً فـي غرفـة خسـرو قبـل العشـاء. أشـعل خسـرو سـيجارة. فقـط مـن بـاب اللهـو. لـم يكـن سـيدخّنها. ثـم جـاءت فرشـته

t.me/yasmeenbook

إلى الباب وسألت عن سبب إقفاله. وطلبَت منا أن نفتحه. ذُعر خسرو ورمى السِّيجارة في الخزانة وخرجنا جميعنا من الغرفة. اعتقدتُ أن السِّيجارة كانت مطفأة. لكن بعد نصف ساعة اشتعلت الخزانة».

كان وجه ناصر قد تورّد.

«وعاقبتُ طفلي البريء أمام الجميع!»، استدار، جلس إلى مائدة الطعام، وأمسك رأسه بين يديه. ارتجّ كتفاه. كان الجميع في حالة صدمة. شعرت كما لو أن براءة ابني قد اكتُشفت بعد أن تمّ إعدامه بالفعل.

t.me/yasmeenbook

28

ذلك المساء جعلَت سودابه السَّيد كريمي يصعد سُلماً ويُنزل جميع حقائبهم القديمة من العُليَّة. ثم قامت بتفتيشها واحدة واحدة، وأخيراً وجدَت ما كانت تبحث عنه.

«آها! لقد عثرت عليها! كنت أعرف أني لم أتخلّص منها. هل تذكر هذا القميص وهذه السترة؟ لقد جلبناهما من لإنجلترا لأجل كيوان. كانا يليقان به على نحو ممتاز».

«نعم، أتذكّر. كيف يمرّ الوقت! كما لو أنه البارحة، عندما ألبسناه إياها وأخذناه إلى بيت أختك».

قال عاصي: «كنت أقف في زاوية وأراهما يتحدثان عن طفليهما بتحسّر. إنهما يحبّانهما، لماذا يهرب الأطفال إذن؟».

قال بابي: «هما على الأرجح لا يعرفان أن والديهما يحبانهما حُبَّاً جمَّاً».

حمّمني السَّيد كريمي. ملأ المغطس. جلستُ في الماء الدافئ إلى حين، وراح يتحدَّث عن ولديه. كان كما لو أنه ما من شيء آخر لديه ليتحدث به. لعبنا بالماء، صنعنا الفقاقيع، وضحكنا. كانت سودابه تنتظر عند الباب مع منشفة. نشفتني ونظرت إلى جسدي. همست إلى زوجها ولم تدرك أني أمتلك حاسة سمع جيدة ويمكنني سماعها، «ليست لديه أية كدمات أو جروح».

ألبستني ثياباً نظيفة وجميلة فاحت منها رائحة كرات النفثالين بعض الشَّيء. مشّطَت شعري. تراجعَت بضع خطوات ثم نظرت إليّ بإعجاب، «أنت فتى وسيم بحقّ. وتبدو في هذه الملابس مثل رجل نبيل! كريمي، تعال وألقِ بنظرة!».

t.me/yasmeenbook

«أوه يا للجمال!».

خرجنا تلك الليلة إلى منزل أصدقاء لهما. كنتُ محطَّ أنظار الحفل. كان الجميع ينظر إلي بفضول. يبتسمون بلطف وأحياناً يربتون على رأسي، لكني كنت متحرّجاً للغاية. لم أتمكن من رفع رأسي. عضضتُ شفتي كثيراً حتى تألمَت. تجمّع الأولاد حولي وكانوا جميعاً أكبر مني سناً. قالت سودابه: «يا أولاد هذا فتاي الصَّغير المحبوب. يدعى (الأمير الصَّغير). اذهب وألعب معهم يا عزيزي. يا نازانين، هل اعتنيتِ به من فضلك؟ العبي معه في غرفتك، حسناً؟»، نظرتُ إليها. بدت تماماً مثل فرشته. أمسكتُ بيدها البيضاء وذهبتُ إلى غرفتها.

على العشاء قالت إحدى السَّيدات: «يا لهما من أبوين غريبَين! ألا يبحثان عن طفلهما؟ ألم يذهبا إلى الشُّرطة بعد؟ لو كنّا مكانهما لقلبنا أعلى المخفر سافله!»، أومأت سودابه إلى المرأة بأن تتوقّف عن الكلام في حضوري. قبّلتني ووضعت لي بعض الطَّعام على طبق وأخذتني إلى زاوية من زوايا الغرفة. أجلسَتني على أريكة وأطعمَتني، لكني كنتُ قد فقدت كلّ شهيتي. شعرت بحزن بالغ. تلكم الليلة غفوت في السَّيارة ونحن في طريق العودة. استيقظتُ قبل الجميع صباح اليوم التالي. لم تكن الغرفة غريبة عليَّ الآن، لكني ما زلت افتقد غرفتي وصوت أمي. دفنتُ رأسي في الوسادة وبكيت.

على مائدة الإفطار قالت سودابه للسيد كريمي: «هذا الطفل مستاء. يريد أمّه. كان يبكي هذا الصَّباح. لنأخذه إلى مخفر الشُّرطة».

t.me/yasmeenbook

«ما كان اسم الضَّابط الذي تحدّثتِ إليه؟».

«النقيب شُكوحي».

«سأتّصل بالاستعلامات وأحصل على رقم المخفر. وسوف أتحدّث إليه وأرى ما يتوجّب علينا أن نفعله».

بعد عدَّة اتصالات استطاع السيد كريمي أخيراً التَّحدث مع المخفر. تتبّعتُ بتوتّر كلّ ما قاله وفعله. كان قلبي يخفق بسرعة.

«مرحباً، أردت التَّحدث إلى الضَّابط شُكوحي، من فضلك... ليس موجوداً؟ كيف يمكنني الوصول إليه؟... غداً؟... لا ذلك سيكون متأخراً جداً. لديّ مسألة طارئة. هل يمكنني التَّحدث إلى أي شخص مسؤول من فضلك؟... ماذا؟ هل يغلق المخفر في عطلة نهاية الأسبوع؟... حسناً، سوف أتصل في غضون ساعة».

كانت سودابه منفعلة مثلما كنتُ. سألَته: «ماذا قال؟».

«لا شيء، فقط كما سمعتِ. إنها عطلة نهاية الأسبوع. هم بالكاد يؤدون أعمالهم في أيام الأسبوع، فما بالك بعطلة نهاية الأسبوع! شُكوحي ليس في الخدمة اليوم».

«إذن ماذا نفعل الآن؟».

«لا شيء، لقد فعلنا كلّ ما بوسعنا. لقد عثرنا على طفل، وأعلمنا المخفر، وأعطيناهم رقم هاتفنا وعنواننا في حال ظهر والداه. ماذا يمكننا أن نفعل سوى ذلك؟ لماذا نحن قلقون للغاية؟ هم الذين يجب أن يكونوا قلقين. يا لهما من أبوين! نحن نتسلّى هنا، أليس كذلك؟ هل نحن منزعجان من الأمير الصَّغير؟».

«على الإطلاق! أحبّ وجوده هنا. سأحزن كثيراً عندما يأتون لأخذه».

t.me/yasmeenbook

«استعدّي الآن، علينا الذهاب لجلب محمود».

«ماذا لو اتصلوا في غيابنا؟ لنذهب إلى مخفر الشُّرطة ونتحقّق من الأمور».

«مخفر الشُّرطة؟ مستحيل! هل تذكرين عندما أخذنا ذلك الرجل الذي تعرض لحادثة؟ هل تذكرين كيف عُوملنا؟ أوقفوني قبل أن يُدركوا أني كنت أحاول المساعدة ولم أكن متورطاً في الأمر! الحمد لله أن الرجل عاش وكان قادراً على إخبارهم أني بريء، بخلاف ذلك لكنت عوقبت على شيء لم أرتكبه! أقسمتُ هناك حينها أني لن أذهب مطلقاً إلى مخفر شرطة بإراداتي مرّة أخرى».

«أنت تبالغ. لم يكن بالسوء الذي تُصوره».

«لم يكن؟ يبدو أنّك نسيتِ...».

«بأية حال، ما الذي سنفعله بهذا الطفل؟».

«لا شيء. سوف ننتظر إلى أن نسمع إن كانت هناك أيّة أنباء».

«لكن مرّ يومان الآن. ماذا لو أنهم اتصلوا ولم نكن في البيت؟».

«كانوا سيتركون رسالة لو فعلوا ذلك. فأتحقّق من المجيب الآلي. لسنا نحن من يتوجّب عليهما أن يبحثا عنهم، هم يجب عليهم أن يبحثوا عن طفلهم. أسرعي واستعدّي الآن».

«إلى أين نحن ذاهبان ترى؟».

«خططتُ مع محمود ليلة أمس لنزهة على الأقدام في متنّزه (دَرَكه). سنتناول طعام الغداء هناك. يمكنك الاتصال بمهناز لتنضمّ إلينا أيضاً. فقد انسجم أولادها مع الأمير الصَّغير ليلة الأمس».

t.me/yasmeenbook

ذهبنا في نزهة في ذلك اليوم الشِّتائي المشمس. لعبنا وضحكنا. أكلتُ أكثر من أي وقت مضى. لم أفكّر حتى بعاصي وبابي. بدا الأمر كما لو أني لم أكن بحاجة إليهما. لكن ليلاً عندما أطفأَت سودابه الأضواء، ضغط كلّ حزن العالم على صدري وبكيت بصمت. لماذا لم يبحثوا عني؟

صباح اليوم التالي شعرتُ أنني لا أتمكّن من التنفس بدون أمّي. حتى أني افتقدت شادي وآرش. بدأت أبكي. دخلت سودابه الغرفة. حملَتني وأخذَتني إلى غرفتهما. كان السَّيد كريمي مستيقظاً يتمطّى على السَّرير. عاتبَته سودابه: «انهض. ألا ترى كم هو مستاء؟ علينا أن نجد والديه. اليوم هو السبت والجميع عاد إلى العمل».

«لننتظر ونأكل أوّلاً على الأقل. ماذا جرى أيها الطفل؟ لا تحزن. سأذهب إلى المخفر من أجل خاطرك. كأنّ العالم كله انقلب رأساً على عقب! فبدلاً من أن يبحثوا عنا نحن نبحث عنهم!».

بعد الإفطار ارتدى السَّيد كريمي ملابسه، قبّلني وقال: «لا تقلق، سأعثر عليهم أينما كانوا». التفَت نحو سودابه: «إذا حدث لي أي شيء فهذا سيكون بسببك».

«مثل ماذا؟ لا تقلق، لن يحدث لك شيء. أنا واثقة أن الجميع سيكون ممتناً لك».

«في الحقيقة أنا لا أحب الذَّهاب إلى المخفر. لا أعرف كيف أتحدث مع هؤلاء النَّاس. أنا في عمر آبائهم، لكنهم ينتظرون

t.me/yasmeenbook

مني أن أُظهر لهم الاحترام وأخاطبهم بقول: «سيدي!» في النهاية سوف يلومونا على كلّ شيء، فقط انتظري وسوف ترين!».

«لا تُثر هذا القدر من الضَّجة. إنهم مهذّبون ولطفاء للغاية. اذهب الآن».

t.me/yasmeenbook

29

مـرَّ يومـان. مـع تغيـر كلّ ورديّـة كنـا نذهـب إلـى المخفـر ونشـرح الوضـع للورديّـة الجديـدة. كان الضبـاط يراجعـون الملفـات، واعتدنـا فـي كلّ مـرّة علـى أن نتـرك رقـم هاتفنـا وعنواننـا، ثـم نعـود إلـى البيـت ثانيـة. كان شـعوري يـزداد سـوءاً سـاعة بعـد سـاعة. حتـى أن رجـال الشُّـرطة باتـوا أكثـر قلقـاً الآن.

عنـد نهايـة الأسـبوع قـال الضَّابـط المسـؤول لحسـين: «لقـد تغيَّـر الوضـع الآن. لـم تعُـد مسـألة بسـيطة عـن طفـل ضائـع. إمكانيـة أن يكـون مُختطفـاً أكبـر الآن. عندمـا يجـد أحـدٌ طفـلاً عـادة يصحبونـه إلـى مخفـر الشـرطة فـي الحـال، إلا إذا كانـوا يبيتـون لـه النوايـا. أحيانـاً إن كانـت هنـاك مشـكلة ولـم يتمكنـوا مـن فعـل ذلـك فـي الحـال، فهُـم يعيدونـه خـلال بضعـة أيـام. آمـل أن هـذا الطفـل لـم يكـن مختطفـاً مـن قبـل مجرميـن. الأطفـال الذيـن لا يتكلمـون والذيـن يعانـون مـن علـل عقليـة يكونـون فـي خطـر إضافـي. يميـل الأشـخاص المعتلّـون اجتماعيـاً، وحتـى النـاس الذيـن يعانـون مـن مشـاكل أخـفّ، إلـى اختطـاف هـذا النـوع مـن الأطفـال لأنهـم واثقـون مـن أنهـم غيـر مهدّديـن فـي أن يتـمّ العثـور عليهـم. يمكنهـم أن يفعلـوا مـا يشـاؤون للطفـل».

لـم يخبرونـي كلّ مـا قيـل فـي ذلـك اليـوم، لكـن ناصـر كان قـد سـمع كلّ شـيء وكان فـي اضطـراب شـديد. كان كابوسـاً مقيمـاً. لـم يعُـد بوسـعي البـكاء. لبثـت أحـدّق فـي الفـراغ وأتخيّـل أمـوراً رهيبـة. أطعـمَ آرش شـادي التـي لـم تكـن قـد اغتسـلت منـذ أيـام. كان المنـزل

t.me/yasmeenbook

في فوضى تامة. جاءت فتّانة ونظفت قليلاً وجلبت لنا طعاماً لم نمسسهُ. لم يستطع ناصر حمل نفسه على فعل أي شيء. فهو لم يحلق ذقنه حتى. راح يقلّب صورنا في ألبومات الصور طوال الليل باحثاً عن صورة كبيرة واضحة لشهاب. قال لآرش.

«يا للغرابة، لدينا القليل من الصور له. جميع الصور هي لك ولشادي».

في وقت باكر من صباح يوم السبت توجّه إلى مكاتب عدة صحف وأعطاهم معلومات عن شهاب على أنه طفل مفقود.

t.me/yasmeenbook

30

عندما أعلم السَّيد كريمي الشُّرطة عن سبب وجوده هناك في المخفر، تحلّق الجميع حوله وراحوا يطرحون الأسئلة عليه. أخيراً تمّ توجيهه إلى قائد الشرطة. سأله الضابط بانفعال: «هل وجدت شهاب مختاري؟ هل أني سمعتُك بشكل صحيح؟ من فضلك أخبرني كلّ شيء مرّة أخرى».

«في الحقيقة لا أعرف ما اسمه لأنه لا يقوى على الكلام. لكن وصفَك ينطبق عليه».

«أين كنت طوال هذا الوقت يا سيدي؟ ألم تفكّر كم كانت عائلته قلقة؟ يا لكم من أناس عديمي التفكير! عليك أن تتحمّل مسؤولية أعمالك يا سيد!».

شحب وجه السَّيد كريمي وانتفض غاضباً وقال: «كنت أعرف ذلك! كنت أعرف أنه ليس عليَّ المجيء إلى هنا. حتى أن اللوم يُلقى على عاتقي! لقد عثرنا على الطفل في العتمة والبرد، أخذناه إلى ضابط شرطة وتبعنا نصيحته، أخذنا الطفل الذي لم يرضَ أن يترك زوجتي إلى البيت. أعطينا جميع المعلومات إلى الشُّرطة. لقد اعتنينا به لثلاثة أيام، وبلا ريب، كما لم يعتنوا به في بيته مطلقاً. انتظرنا الأخبار من المخفر. اتصلنا ولم يُعطنا أحد جواباً واضحاً، والآن أنا هنا أبحث عن أهله عديمي التفكير، وبدلاً من أُشكر أكون أنا المُلام!».

«متى ذهبتَ إلى الشُّرطة؟».

t.me/yasmeenbook

«في نفس الليلة التي عثرَت عليه زوجتي فيها. ذهبَت إلى ضابط شرطة. أخذ اسمها ورقمها، وقال إنه سيتصل بنا حالما يسمع من أهل الطفل».

«أي ضابط كان هذا؟».

«الضابط شُكوحي، في شارع كريم خان. يوم الأربعاء السَّاعة التَّاسعة مساء».

«أوه... الضَّابط شُكوحي؟ إنه في إجازة مرضية منذ بضعة أيام».

«منذ متى أصيب بالمرض؟ منذ يوم الأربعاء على ما أعتقد، لأن زوجتي واثقة أن ذلك كان اسمه».

«انتظر هنا. دعني أتحقّق».

عاد الضَّابط المسؤول بعد بضع دقائق وأعتذر للسيد كريمي قائلاً: «لا يمكنك أن تتخيّل ما الذي تجشّمه أهله من عناء. كنت قلقاً من أن والدته المسكينة لن تستطيع تحمّل الأمر. من فضلك اجلب الطفل إلي وسوف أتّصل بهم ليأتوا إلى هنا».

بدا أن لدى الجميع عذراً على كلّ شيء. في الظاهر كان الضَّابط شُكوحي غارقاً في العمل في تلك الليلة الماطرة.

كان عليه أن يدرك المراد من حالة فوضوية على الرغم من التهاب مريع في الحلق وصداع في الرأس. عندما عاد أخيراً إلى المخفر لم يستطِع حتى أن يقف لوقت طويل. كان قد وضع جميع أوراقه في دُرج وأخبر ضابط الوردية بغضب: «أنا مريض ومُتعب من هذا العمل! علينا أن نتعامل مع أناس في أسوأ المواقف. يتّصلون بنا أثناء المعاصي، المشاجرات، الخيانات، القتل وجرائم

t.me/yasmeenbook

أخرى. لا أحد يتّصل بنا عندما يكونون سعداء ويستمتعون بالحياة!».

وعندما وصل إلى البيت ذهب مباشرة إلى السَّرير مع حرارة مرتفعة وحلم بالجريمة طوال الليل. صباح اليوم التالي اتصلت زوجته بالمخفر لتقول إنه مريض وسوف يتغيّب عن العمل بضعة أيام.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

31

كانـت أمـي، آرش ممسـكاً بيـد شـادي، فرشـته، فتّانـة، خسـرو، وعمـي أيضـاً ينتظـرون بفـارغ الصَّبـر أمـام مخفـر الشُّـرطة. لكنـي لـم أتمكَّـن مـن رؤيـة أبـي إطلاقـاً. لـم يكـن السَّـيد كريمـي قـد أوقـف السَّـيارة بعـدُ عندمـا فتحـت أُمّـي البـاب وشـدّتني إلـى ذراعيهـا. وضعـتُ رأسـي على كتفهـا وبكيـت. كانـت رائحتهـا عـزاءً لـي. لاحظـتُ الآخريـن بعـد بضـع لحظـات. سُـعدت برؤيتهـم جميعـاً وسـمحت لـكل واحـد منهـم أن يأخـذ منـي قُبلـة، بمـن فيهـم خسـرو.

ابتهلت فرشته: «من فضلك لا تفعل مثل هـذا الأمـر مـرّة أخـرى مطلقـاً! كاد الأسـى أن يقضـي علـى والديـك».

قال عاصـي: «حتى أبي؟ حتى أنه لم يبحث عنَّا».

بعـد اللحظـات العاطفيـة القليلـة الأولـى لاحـظ الجميـع أن السَّـيد والسَّـيدة كريمـي كانـا ينظـران نحونـا بعيـون دامعـة. تقدّمـت أُمّـي وأخـذت بيـد سـودابه: «الحمـد لله أنـك عثـرت عليـه. لا يمكنـك أن تتخيّلـي مـا عانينـاه. لـم يحـدُث لـي قـط أن أمضيـتُ ليلـة بعيـدة عنـه مـن قبـلُ. لقـد رأيـتُ المـوت بـأم عينـي!».

نظر السَّيد كريمي من حوله وسأل: «أين والده؟».

«إنـه فـي المخفـر وقـد ألمّـت بـه نوبـة غضـب. لا يسـتطيع أن يتمالـك نفسـه. لقـد كاد يُجـنّ جنونـه هـذه الأيـام القليلـة الماضيـة».

قال بابي: «هل يتقاتل معهم لأنهم عثروا علينا؟».

قالـت سـودابه لأمـي: «ينبغـي عليـك أن تدفعـي صدقـة امتنانـاً منـك لعودتـه».

t.me/yasmeenbook

ضمّتني أُمّي بشِدَّة: «سأفعل. لقد صليّت دونما توقّف ونذرتُ للّه نذوراً كثيرة».

خرج أبي من المخفر شاحباً. انفرجت أسارير وجهه قليلاً عندما رآني. التفَت إلى أُمّي وقال: «ها هو ابنك يا سيدة». حاول أن يعانقني لكني تمسّكت بأمي. انخفضَت ذراعا والدي المبسوطتان واكتفى بتقبيل قفا رقبتي. ثم شكر السَّيد والسَّيدة كريمي. قالت السَّيدة كريمي: «أهنئكما بحقّ. كان شهاب فتى جيداً جداً تماماً مثل أمير صغير حقيقي، ولشدّما تعلّقنا به. هل تسمحان لنا بزيارتكم في بعض الأحيان؟ سوف نشتاقُ إليه».

«بالطبع. هذا لطفٌ بالغ منكم».

مد السَّيد كريمي ذراعيه فوثبت بينهما. همس في أذني: «انظر، أنا لم أحنث بوعدي وقد وجدتهم من أجلك. هل أنت سعيد الآن؟»، طوقت عنقه بذراعي. «هل تريدني أن آتي وأخذك إلى الحديقة بين الحين والآخر؟»، هززتُ برأسي. قبّلني ووضعني أرضاً.

«وداعاً الآن أيها الأمير الصَّغير».

بعد الوداع ذهب كلّ واحد منا إلى سيارته. أمسكتُ بيد أُمّي وظللت أستدير لألوح للسيد والسَّيدة كريمي. بديا حزينَين. كانت الدُّموع لا تزال تسيل على وجنتي سودابه.

قال بابي: «عليهما أن يعودا إلى البيت الآن. لقد أحبّانا وسوف يفتقداننا، تماماً كما يفتقدان ولديهما».

شعرتُ بالحزن. سحبتُ يدي من يد أُمّي وركضت نحوهما. قبلت وجه السَّيد كريمي وعدت راكضاً إلى أُمّي مرّة أخرى. تفاجأ والدي من هذا السُّلوك غير المعتاد ونظر نحوي بغرابة. كما لو أني وجّهت له صفعة قاسية.

t.me/yasmeenbook

32

سرعان ما عاد كلّ شيء إلى طبيعته. كان آرش منشغلاً بالمدرسة وبدروسه الإضافية المتعدّدة. عاد والدي إلى البيت متأخّراً أكثر لتعويض ما أضاعه من وقت في العمل. كانت شادي سعيدة وظريفة، تثرثر بعذوبة على الدَّوام. وكانت أُمّي منهمكة بالأعمال المنزلية التي ازدادت مع اقتراب السنة الجديدة. بيد أن شيئاً ما كان قد تغير. فقد عاملني الجميع بلطف وتصرفوا بحذر أكبر من حولي، لكن كان هناك في عيون الجميع ثمة سؤال، كانوا يتساءلون عمّا حدث لي في تلك الأيام بعيداً عن البيت. يتساءلون إن كنتُ سأهرب ثانية. حاولتُ تجاهل الأمر لكني شعرت بأن شيئاً قد تغيّر في داخلي. كانت تلك الأيام القليلة التي أمضيتُها بعيداً عن المنزل قد عرّضتني لعالم جديد. بقيتُ أقارن منزلنا مع منزل السَّيد والسَّيدة كريمي.

بدا منزلهما أكثر دفئاً وإشراقاً. كانا يتبادلان المزاح وينظران إلى بعضهما البعض واللطف في عيونهما. وقد بدَوا أكثر سعادة وأكثر حيوية منَّا بالرغم من أن كلّ شيء ذكّرهما بولديهما واستدر الدَّمع في عيونهما. طالما غنَّت سودابه وهي تؤدي أعمالها المنزلية وكان بادياً على وجهها استمتاعها بما تفعله. مع ذلك، كانت أمي عابسة دوماً وهي تعمل. كان كرهها واضحاً لما كانت تفعلُه، وكانت تقوم به بدافع الضرورة فقط. في تلك الأيام آل بي الأمر إلى الاعتقاد أنه لو أمكن لأُمّي أن تكون أكثر سعادة بقليل،

t.me/yasmeenbook

ولو أمكن لوالدي أن يكون مثل السَّيد كريمي، مولياً اهتماماً أكبر لأُمّي ويحبّنا أكثر، لكنتُ بالتأكيد قادراً على الكلام الآن.

مرَّت الأيام دون حوادث. لم يتحدَّث أحدٌ عن ذهابي إلى المدرسة بعد الآن. جاء السَّيد والسَّيدة كريمي واصطحباني إلى الخارج بضع مرات. كنت أرفل في رغدٍ معهما. فقد أحبّاني تماماً كما كنت ولم يتوقّعا أي شيء مني. كنت في كلّ مرّة بعد أن أعود إلى البيت أفكّر ملياً بهذه النُزهات لعدة ساعات. لكنها سرعان ما بلغت نهايتها. فقد أظهرَت برودة والدي نحوهما أنه لم يكن سعيداً إزاء علاقتي بهما. افتقدتُهما وشعرتُ أن دور والدي في فصلنا كان إشارة أخرى على معاداته لي.

ذات يوم من آخر أيام السَّنة اتّصلت السَّيدة كريمي وسألت أُمّي إن كان بوسعها وزوجها القدوم لزيارتنا. تجادل أبي مع أُمّي لفترة مستفسراً عن سبب عدم اختلاقها لعذر. وعندما وصلا حيّاهما ببرود. ولكي أعوّض عن تقصيره في إبداء المشاعر فقد فتحتُ ذراعيّ وعانقت السَّيد كريمي. قبَّلتُ خدَّه بشكل استعراضي وتمسّكت به بشدَّة بينما كان والدي ينظر بحدَّة. كان والدي غاضباً وهذا ما جعلني سعيداً. كانا قد أحضرا لي رجلاً آليّاً كبيراً يمكنه المشي. شعرتُ بالزهو. كنتُ للمرّة الأولى من يلقى كل الاهتمام. إنه فقط أنا. عانقتُ الرجل الآليّ ولاطفتُه.

قال والدي باحتقار: «إنه يدمّر أي شيء نجلبه له. احذر ألّا تكسر هذا أيضاً!».

قال عاصي: «ما أشدّ حماقته! نحن نحبّ هذا ولن نكسره. نحن فقط نكسر الألعاب التي يجلبها لنا عندما يرغب بخداعنا.

t.me/yasmeenbook

نحن نحطِّم تلك الألعاب نكاية به. لكن لن نكسر لعبة السَّيد والسَّيدة كريمي لأنهما يحبانناً».

كنتُ سعيداً للغاية فلم أدرك أنهما جاءا لتوديعنا. كانا ينويان السفر إلى الخارج لزيارة ابنيهما، ولم يكن واضحاً إن كنت سأراهما مرّة أخرى على الإطلاق.

ياسمين
قصص
روايات
t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

33

كان رأس السَّنة الجديدة حدثاً مجيداً. بدَت أُمِّي تزداد سعادة كلما ازداد قرباً. كانت تضحكَ أكثر وقد بدت أقلّ تعباً. وكانت سعادتها قد أنارت المنزل برمته. بدت مشاكلنا تغدو أقلّ أهمية، فقد قلّت المشاجرات واستحوذ علينا جميعاً حسّ التشويق. كانت أُمّي تجمع جميع المدخرات التي أخفَتها في هذه الزاوية أو تلك التي ادّخرتها في المصرف. فكان أن اشترت لنا ملابس جديدة وهدايا لفّتها وأخفتها في حقائب السَّفر مثل أسرار ثمينة، حريصة على أن تحفظها من الكسر أو الانبعاج. حتى أنها لم تُطلع عليها أبي.

الحدث السَّعيد الذي كنا جميعاً نترقبه طوال سنة كاملة سيكون في عيد رأس السنة، اليوم الذي سيأتي فيه والدي إلى البيت حاملاً تذاكر السفر بالقطار، فيما ستصرخ أمي فرحاً. كنا ندور حولها قافزين للأعلى والأسفل، ونضحك بانفعال. كان العدّ التنازلي يبدأ ما أن نعرف بالموعد الدقيق لرحلتنا. كان مثل السِّحر. كان الوقت يطير أسرع وتحدث الأشياء بعجالة أكبر.

نبض قلبي بالسَّعادة عندما ذهبنا أخيراً إلى محطة القطار. كان هذا الثعبان الحديدي الطويل هو الشيء الأكثر جمالاً وقوّة في العالم بالنسبة لي. كانت تحوم أصواتٌ غريبة وروائحُ ما بطريقة سحرية من حوله. انتبهتُ إلى كلّ تفاصيله بعناية، حتى أني انحنيت لأنظر تحته. أصابتني السِّكة المشحَّمة والحصى المرصوف تحتها بالدُّوار، وكنت أرتعد متخيّلاً كيف يكون شكل

t.me/yasmeenbook

السُّقوط هناك. أردت أن ألمس القطار وأتوحَّد معه، مسافراً إلى بلاد بعيدة في جوف هذا الكائن العظيم. كان الوقت الأكثر إثارة هو عندما تنطلق الصَّفارة ويبدأ القطار بالهدير والاهتزاز. كنت أقترب من النافذة وأتطلّع بينما القطار يتسارع. كان كلّ شيء مثيراً للاهتمام.

بعد عجالته طوال السَّاعة الماضية، محاولاً إنجاز كلّ شيء، هدأ أبي أخيراً. كان قلقه مستبدَلاً بنوع باهت من السَّعادة. كان يرتمي على مقعده ويبتسم ابتسامة مقتضبة ويسأل أمي: «إذن ماذا لدينا لنأكل؟»، هذه كانت واحدة من اللحظات النَّادرة التي يصبح فيها أبي ثرثاراً. قد يحكي لآرش عن المحطات، وطريقة عمل القطار، عدد الأنفاق، وجدول مواعيد القطار. من جهتي وجدتُ أن هذه المعلومات مثيرة للاهتمام أيضاً فأرهفت السَّمع. وهكذا سمعتُها وحفظتها جميعاً، لكني لم أرغب في أن يكتشف أني عرفت أن ما قاله مثير للاهتمام، لأنه لم يكن يقوله لي. لذا كنت أتظاهر بأني أفعل شيئاً آخر. لم أنس قط قواعد القتال العصاميّة التي ابتكرتُها.

كان الجنوب على الدَّوام دافئاً وفاتناً. فاح الهواء بالطيبة. لكي تكون محبوباً هنا لم تكن بحاجة لأن تتحدث أو أن تكون ذكياً وخالياً من العيوب، مجرّد كونك حفيداً كان كافياً. قد يعانقك الجميع ويقدمونك إلى الآخرين بفخر. كانت النظرات لطيفة ورفيقة، والكلمات مفعمة بالحب. كنتُ أنادي جدتي بكلمة (بيبي)

t.me/yasmeenbook

[14]. وهي لم تكن تخشى، بخلاف جدتي الأخرى، عناق أحفادها وإمطارهم بالحب. وقد عبّرت ضاحكة وبصوت مرتفع عن حبّها لنا ولم تكن قلقة من أن هذا سيقلل من سلطتها. كانت تقدم لنا الهدايا التي اشترتها لنا خلال السَّنة. كنا نأكل ما ادخرتهُ لنا من ثمار النبق[15] الكبيرة واللذيذة و بعيداً عن أنظار والدي لأنه يعتقد أنها تسبب ألماً في المعدة، وكنا نلعب في فيء أشجار خضر كبيرة وسط أريج زهور البرتقال العطرة.

كان يتواجد الكثير من الناس دوماً. كنا نذهب من منزل إلى آخر، وجميع من التقينا بهم زادوا سعادة على سعادتنا. في تلك الأيام بدا أن هذا الجزء من إيران كما لو كان في حالة حفلة أبدية، وأن الجميع هنا كانوا في عيد دوماً وهم يتنشّقون هواء الربيع المنعش.

أصبحت أُمّي ثرثارة. تحدّثت عن كلّ شيء كما لو أنها احتجَزت كلّ كلماتها لعام كامل لتطلق العنان لها في غضون أسبوعين. بل وحتى أبي، وبكل جدّيته، فلم يسعهُ تجاهل هذا المستوى من العاطفة وحسن الضِّيافة. فقد كان يتحدث مع أخوالي ويضحك على طُرفهم. شعرت بأني أخفّ وزناً في هذا المكان. لم يزعجني أني لم أستطع الكلام. لقد فهموني وأصبحَت عدم قدرتي على الكلام عديمة الأهمية، فلم تعُد تثقل علي. ولم أعُد أشعر بالغثيان

(14) «بي بي» هي الجدّة عموماً باللغة الفارسية، وتحمل اللفظة ضمناً بعض التحبُّب.

(15) يُسمّى في بعض بلدان الخليج (كنار) بالتسمية الفارسية نفسها. وهو ثمار شجرة (السدر).

t.me/yasmeenbook

أو يعترينـي الخـوف ِكلما فكـرت بالأمـر. كنـت أعـرف أن مـا مـن أحـد قـد يسـخر منـي. كنـت أبـدأ بهمـس بعـض الكلمـات. لكـن الوقـت كان قصيـراً للغايـة، فقبـل أن أصبـح جاهـزاً للـكلام كانـت الرحلـة قـد انتهـت وسـوف نعـود إلـى حياتنـا الحزينـة والصَّامتـة.

كانـت أول بضعـة أيـام بعـد العـودة مُقبضـة للغايـة. كانـت أُمّـي تتنهّـد وتسـتمع إلـى موسـيقى مـن الجنـوب، وتوغـل بالدخـول فـي قوقعتهـا أعمـق فأعمـق. لـم تكـن سـتعتاد علـى أن تكـون بعيـدة عـن مسـقط رأسـها. كمـا أن أبـي، الـذي كان سـبب بُعدهـا عـن البيـت لـم يكـن عونـاً لهـا. كانـت روحهـا وسـعادتها والأحاديـث قـد تُركـت هنـاك. أمـا هنـا فلـم يكـن لديهـا شـيء سـوى الوحـدة وإحسـاس بالغربـة.

قـد ينشـغل أبـي بالعمـل مـرّة أخـرى. تبـدو المحادثـات فـي منزلنـا بـاردة وغيـر ودّيـة، ولـم تُلهمنـي لأن أتكلّم. تسـاءلتُ عـن السَّـبب الـذي جعـل والـد آرش وعائلتـه لا يعرفـون الحديـث اللطيـف والمحـبّ. لـو أنـه تحـدّث مـع أُمّـي أكثـر، لـو أنـه اسـتعمل كلمـات مثـل «عزيزتـي»، «حبيبـة قلبـي»، «قـرَّة عينـي»، لمـا كانـت ربمـا سـتكون حزينـة للغايـة. ولربمـا سـأكون عندئـذ قـادراً علـى الـكلام أيضـاً.

قـال عاصـي: «إنـه يعـرف كيـف يفعـل ذلـك. لقـد اعتـاد أن يناديهـا بتلـك الأمـور مـن قبـل. لهـذا تزوّجَتـه. لكنـه لا يريـد أن يقولهـا بعـد الآن».

سـأل بابي: «لكن لماذا؟».

«بسـببنا. لأن أُمّي لديها ابن مثلنا».

كان آرش يعـود إلـى كُتبـه ودروسـه المتنوعـة مـرّة أخـرى. لـم يكـن أمـام الصَّبـي المسـكين مـن خيـار إلا أن يتفـوق فـي المدرسـة. كان

t.me/yasmeenbook

عليه أن يكون عبقرياً كي يعوّض عن شعور والدي بالإحراج لأنه أنجب ابناً معاقاً. كانت طفولة آرش مهدورة رهن هذا الحمل الثقيل، والآن يريد أن يجرّده من سنوات مراهقته أيضاً. كان آرش ينسى ببطء كيف يضحك وكيف يكون سعيداً، وكانت شادي الشخص الوحيد السَّعيد من حولنا. فقد كانت تفعل كلّ ما يحلو لها ولم ينتظر أحدٌ منها شيئاً. كانت تلعب، وتضحك، وتعيش كطفلة سليمة وطبيعية.

لم أحتَج لأن أتكلّم في مثل هذا المنزل. وكلّ ما نمّيتُه من تعبير مبهج عن الذات خلال ذلكما الأسبوعين الاثنين في الجنوب، اختفى ببساطة.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

34

بثَّ اتصالٌ هاتفيّ في منتصف فصل الربيع، الفوضى في حياتنا. بكت أُمّي كما لو أنها فقدت عقلها. جاءت فتّانة وفرشته وقدمتا لها الماء المُحلى بالسُّكر. جاء أبي إلى البيت باكراً لكن أُمّي لم تكفّ عن البكاء.

«أبي مريض! يجب أن أذهب إلى البيت هناك!».

أمسك والدي بيدها وقال: «حسناً، حسناً. حاولي التزام الهدوء أمام الأطفال. من فضلك يا فرشته، هل يمكنك أن تأخذي الأولاد إلى منزلك؟».

هرعتُ واحتضنت ساقي أمي، لكنها لم تلاحظني حتى. أمسك والدي بيدي ووضعها في يد فرشته. حملت فتّانة شادي وذهبنا جميعنا إلى منزل العم.

تحدّث الجميع همساً في منزل العم. وقفتُ في ركن وأرهفت السَّمع بعناية إلى كل ما قالوه، ملاحِظاً كلّ حركة قاموا بها. قالت فرشته: «هل أنت واثق؟ مريم قالت للتوّ إنه مريض».

«هذا ما قالوه لها، لكنهم اتصلوا بناصر في العمل وقالوا إن الأمر قد قُضي».

«مسكينة مريم! سوف تذهب إلى هناك يحدوها الأمل، وما أن تصل حتى تدرك أن كلّ شيء قد انتهى. لطالما أحبّت والدها».

قال عاصي: «هل سمعت ذلك؟ الجدّ انتهى».

تخيّلتُ وجهه اللطيف. عندما كنا في الجنوب كان يأخذنا كلّ يوم ويشتري لنا المثلّجات.

t.me/yasmeenbook

قال بابي: «هل تعرف ماذا يعني أن الجد انتهى؟ هذا يعني أنه ميت».

تخيّلت انّ «أن ينتهي» أفضل ممّا استطعت أن أفهم «أن يموت المرء». يمكن لشيء انتهى أن يبدأ مرّة ثانية. كنت مُستغرقاً في التفكير.

قال عاصي: «أُمّي ستذهب إلى هناك. سوف نركب القطار مرّة أخرى!».

فرحُ العودة إلى أرض اللطف تلك أزاح جانباً الحزن على انتهاء جدي أو موته الذي لم أتمكن من فهمه تماماً. حسبي أني لم أستطع فهم سبب إرسالي إلى منزل العمّ.

قال بابي: «تذكّر أن تأخذ بعضاً من ألواح الشوكولا التي أخفتها أُمّي في الثلاجة لأبناء عمّي».

غادرتُ منزل عمي وتوجهت عائداً إلى البيت. فكّرت باستمرار بكلمة «ميت»، ما جعلني قلقاً بطريقة غير معتادة.

قال بابي: «تذكّر كيف اعتادت أُمّي أن تقول إن الموت يشبه الذّهاب إلى النَّوم لوقت طويل؟ كم تظن أنه سيطول؟».

أجاب عاصي: «سيدوم لوقتٍ طويل. إنه لا يُشبه كيف ننام نحن. عليه أن يذهب للنوم في مكان خاص».

«أين مثلاً؟».

«أظن في مكان ما مثل مستشفى».

«هل يمكننا أن نزوره؟».

«لا أعلم!».

t.me/yasmeenbook

عندما وصلتُ إلى البيت كان الباب مقفلاً. لم أستطع الوصول إلى جرس الباب. ضربتُ على الباب بقبضتي. كانت أُمّي التي تعرّفت دوماً على صوت طرقي تفتح الباب في الحال. لكن هذه المرة لم يفتح أحدٌ الباب. ركلته، ثم تمدّدت على الأرض واسترقت النظر من تحت باب المرآب. لم أتمكن من رؤية عجلات سيارة أبي. أين ذهبوا؟ أُمّي عادة لا تخرج من دوني في الصباح. شعرتُ بغصَّة في حلقي. ركلت الباب الرئيسي ثانية غاضباً ودامعاً. هرعت فرشته من منزلهم. كانت أزرار المانتو مفتوحة ولم تكن قد أحكمت ربط وشاحها كما يجب. ركضَت نحوي والتقطتني.

«شهاب، عزيزي، لماذا غادرتَ دون أن تأخذ الإذن؟ لنذهب». سحبتُ يدي. «لا يوجد أحدٌ هنا. والدك يصحب والدتك إلى مكان ما، لكن سوف يعود. لنذهب. هل تودّ أن تذهب إلى حديقة الملاهي؟ سوف أصحبُك بعد ظهر اليوم. أتذكر كيف ذهبنا السَّنة الماضية وركبتَ العجلة الدَّوارة؟ سوف يعود والدك إلى البيت مع عودتنا من الحديقة. ستنام في سريرك الليلة. أعِدُك».

هدأتُ بعض الشَّيء. لم يكن هناك شيء آخر يمكنني فعله لذا سمحتُ لفرشته أن تعيدني إلى بيت عمّي.

كانت شادي تلعب مع فتّانة خالية البال، لكني لم أتمكن من التخلي عن فكرة الأمر الغريب الذي فعلَته أمي. ألم ترغب برؤية والدها؟ إذن أين ذهبت الآن؟ كان عليها أن تحزم حقائبنا وتهيئة ملابس السَّفر من أجلنا. قال بابي: «ربما ذهبت لشراء الهدايا». تبدأ أُمّي عادة بشراء الهدايا قبل شهر من رحلة السَّنة الجديدة. ولطالما فكّرتُ في هذه على أنها جوائز خاصة، وبخلاف

t.me/yasmeenbook

معارضتي المعتادة على التسوق استمتعتُ بهذه العملية ووجدتُها مثيرة.

عصر ذلك اليوم أخذنا عمي إلى مدينة الملاهي. ركبنا كثيراً من الألعاب، لكني كنت مصروف الفكر وأشعر بالقلق. في طريق العودة غطَّت شادي في النَّوم بين ذراعي فتّانة. خلعَت فتّانة حذاءيها ووضعتهما في فراشها، وهذا ما فاجأني. أمسكَت فرشته بيدي وقالت «لنذهب إلى البيت. لقد عاد والدك الآن».

سحبتُ يدي وحاولت أن أوقظ شادي لآخذها إلى البيت معي. استاءت فتّانة وقالت: «توقف، سوف توقظها!».

لكن فرشته فهمتني وقالت: «لا تقلق، شهاب. شادي ستبقى هنا الليلة». هززتُ رأسي وحاولت الذهاب نحو شادي ثانية. شدَّت فرشته يدي. «طلبَت أمّك منا أن نُبقي على شادي هنا طالما هي غائبة».

نظرتُ نحوها مرعوباً. طالما هي غائبة؟ ألن نصحب شادي معنا لزيارة الجدّ؟ لماذا تفعل أُمّي مثل هذا الفعل القاسي لشادي؟ كانت أفكاري مضطربة. ركضتُ إلى البيت. تبعني كلّ من عمي وفرشته إلى هناك. فتح آرش الباب لدى سماعه أول قرعة. كانت سيارة أبي هناك. ركضت نحو المنزل، متفادياً ذراعي والدي المفتوحتين. نظرت في الصالة وفي المطبخ وغرفة آرش في الطابق الأرضي. ثم ركضت إلى الطابق الأعلى. فتحت باب غرفة أمي. كانت الأضواء مُنارة. كانت الملابس مرمية على السَّرير وكان باب الخزانة موارباً، لكن لم يكن هناك ما يشير إلى وجود أمي. ماذا يعني هذا؟ نظرتُ في الحمام لكنها لم تكن هناك

t.me/yasmeenbook

أيضاً. استولى عليَّ الخوف. ماذا لو أنها رحلت؟ هل كان ممكناً أن تكون قد غادرت من دوني؟ عدتُ إلى الخارج.

كان أبي، عمي، فرشته، وآرش جالسين على المقاعد في الحديقة.

قال أبي: «كُنا محظوظين. لم نتمكّن من العثور على تذكرة. جميع الرحلات كانت محجوزة. لكني فجأة صادفت حُسام حضرتي، هل تتذكر جارنا في الأميرية؟ أنا لا أعرف على وجه اليقين ما يفعله في المطار لكنّه كان لُقية. فقد ذهب ودبّر لنا تذكرة حالما سمع القصة. لقد طارت أخيراً منذ ساعتين. طلبتُ منها أن تتّصل حال وصولها. كانت قلقة للغاية بشأن الأولاد لا سيّما شهاب. هي تظن أني لن أكون قادراً على التعامل معه».

لم أستطع تصديق الأمر. إذن ذهبت أُمّي وتركتني مع والد آرش؟ هل كان هذا ممكناً حقّاً؟ استدارت فرشته ورأتني.

«شهاب حبيبي تعال إلى هنا. ستعود أُمّك قريباً. كان عليها الذهاب لأن والدها مريض لكنها سوف تجلب لك الكثير من الهدايا عندما تعود».

أغلقتُ الباب الرئيسي بكلّ قوتي وركضت على الدرج صعوداً إلى غرفتي. يا لها من خيانة! ذهبت أُمّي وتركتني مع والد آرش! ألم تتذكر أنه حاول أن يرسلني إلى مدرسة؟ ألم تعرف أنه لم يبحث عني حتى عندما ضِعت، وأنه تمّ العثور عليّ من قبل السيدة كريمي؟ وعندما عثروا عليَّ أخيراً كان الجميع سعداء ما عداه. كان قد ذهب ليتجادل مع الشرطة بدلاً من ذلك! شعرتُ بالوحدة في العالم الواسع برمته. اختفيت تحت الأغطية

t.me/yasmeenbook

وكنت لا أزال منتعلاً حذائي ومرتدياً ملابسي. صعد والدي إلى الأعلى وفتح الباب. استدرتُ نحو الجدار وأغمضتُ عينيّ بشدّة. سحب الأغطية جانباً وجلس على حافة السَّرير وخلع لي حذائي وجواربي ووضعها جانباً. لو كانت أُمّي هنا لكانت قبّلتني على خدي أيضاً. في تلك اللحظة كنتُ حقاً بحاجة إلى تلك القبلة، حتى لو كانت من والد آرش.

دخل آرش وقال: «لقد غطَّ في النَّوم سريعاً!».

«إنه طفل محظوظ لأنه لا يفهم شيئاً. كان متعَباً للغاية. لقد كان في الخارج طوال اليوم، وحتى أنه ذهب إلى حديقة الملاهي. قال عمّك أنه تناول العشاء بالفعل».

«لكنه لا يزال يرتدي ملابسه ولم يفرّش أسنانه. ما كانت أُمّي لتسمح له مطلقاً أن يذهب إلى النوم بتلك الطريقة».

«لا عليك منه. لن يحدث شيء إذا نام هكذا لليلة واحدة. أنا نفسي متعبٌ للغاية. لدي الكثير للعمل غداً. ينبغي عليك الذهاب إلى النوم أيضاً. عليك الذهاب إلى المدرسة غداً».

«ماذا سنفعل بشأنه؟».

«أوصله إلى منزل عمك قبل أن تغادر في الصباح».

أطفآ الأضواء، وأغلقا الباب، وغادرا. سحبتُ الغطاء جانباً. كانت الغرفة معتمة للغاية، فقد نسي والدي أن يضيء مصباح النوم. قال عاصي: «هو لا يهتمّ لو مُتنا من الخوف في هذه الغرفة المعتمة. أو إذا تسوّست أسناننا وتساقطت. أو إذا نمنا بملابس متسخة ومرضنا. سوف أجعله سعيداً».

t.me/yasmeenbook

افتقدتُ أُمّي إلى أبعد حد. حتى لو أني كنت غاضباً ولم أستطع مسامحتها على تركي، كنت لا أزال أحبّها من صميم قلبي وكنت أعرف أنها تحبّني أيضاً. مسحتُ دموعي ودفنتُ وجهي في المخدّة فلا يسمعنّ أحدٌ بكائي.

أمضيتُ اليوم التّالي في منزل عمّي وأنا أشعر بالملل لعدم وجود ما أفعله. لم أتمكن من التوقّف عن التفكير بأُمّي. لماذا لم تأخذني معها؟ لقد كنت فتى طيباً ولم أكسر أي شيء، لكنها تركتني وراءها. جاء أبي ليأخذنا في المساء واصطحبنا إلى البيت. قام بقلي بضع بيضات كانت غير ناضجة من فوق ومحروقة في الأسفل. لم أمسسها. قال: «شهاب، لماذا لا تأكل؟ هيّا»، أخفضت رأسي. «هل تريد شيئاً آخر؟»، نظرتُ إليه بدهشة، فقد كان يتصرّف بلطف. «ماذا تريد؟ أخبرني وسوف أحضره لك». كنت مخيّباً. «منذ الآن فصاعداً على الجميع أن يخبروني إذا كانوا بحاجة إلى أي شيء. مثل هذا..»، «آرش ماذا تودّ؟».

«بعض الخبز».

«ها هو ذا. شادي ماذا تريدين؟».

«ماء».

«تفضلي. شهاب ماذا تريد؟ أخبرني وسوف أُعطيك ما تشاء».

جرت أفكار مختلفة في عقلي. قال عاصي: «إنه يريد أن يقتلنا من الجوع والعطش، وهو يعرف أننا لا نقوى على الكلام!»، نهضتُ غاضباً. سقط الكرسي إلى الخلف. ركضت على الدَّرج أغلقت الباب وهدأتُ.

t.me/yasmeenbook

منذ ذلك اليوم كنا في حرب صريحة. كلما حاول أن يحملني على الكلام قاومت. قال: «أخبرني ماذا تريد وسوف أشتريه لك. سوف أفعل أيّ شيء تريده. فقط أخبرني». كنت أتجاهل رغباتي وأغضب وأبقى صامتاً. قال عاصي: «يمكنه أن يشتري لنا أي شيء، لكن لن يفعل لأننا لا نقوى على الكلام».

أصبحت مسألة الكلام مهمَّة أكثر فأكثر وزادت من قلقي ورعبي. في الليلة الرابعة على غياب أُمّي أخذَنا أبي إلى مكان لبيع الوجبات السريعة كان قد افتُتح مؤخراً في الحيّ. أحببت الهامبرغر. راح أبي يمتدح الطعام هناك إلى حين، ثم قال: «كل واحد منكم يخبرني ماذا يريد. آرش ماذا تود؟».

«شطيرة برغر».

«شادي، ماذا عنك؟».

«بردر».

«ممتاز». كان قلبي يخفق بسرعة. كنتُ جائعاً والرائحة اللذيذة للهامبرغر المشوي زادت من شهيتي. «شهاب عزيزي ماذا تود؟»، نظرت إليه غير مصدِّق. هل جلبني إلى هنا حقاً لأشهد على الآخرين يأكلون وأبقى جائعاً؟ «أخبرني يا بُني فقط قل كلمة: (هام- بر- غر). إنها لذيذة حقاً». كنت على وشك البكاء وأدرت له ظهري بغضب. مشاهدة الناس من حولي يأكلون بتلذّذ زادت من شعوري بالجوع جداً. «فقط قل (هام) وسوف أعرف ماذا تحاول أن تقول. سوف أجلبه من أجلك».

زممتُ شفتي. قال بابي: «إنه على حق. أعطه إشارة فسوف يعرف ماذا تحب. انظر كم هو لذيذ. عجّل أنا جائع حقاً».

t.me/yasmeenbook

ببعض تـردّد أشـرت إلـى الولـد الجالـس علـى الطاولـة المجـاورة. حـاول والـدي أن يلـزم الهـدوء لكـن صوتـه كان قـد بـدأ يتهـدج.

«لا، هـذا لـن ينفـع. يمكنـك الـكلام أعـرف ذلـك. افتـح فمـك وقـل شـيئاً. لغـة الإشـارة غيـر مقبولـة».

تقـدم آرش. «ألا تـسـمعه؟ شـهاب قـال للتـو (هامبرغـر)، لكنـه قالهـا بصـوت منخفـض. سـمعته. اجلـب لـه هامبرغـر أيضـاً».

«لا، عليه أن يقولها بصوت مرتفع لكي أسمع».

قـال عاصـي: «يشـعر آرش بالأسـى علينـا أيضـاً، لكنـه لا يفعـل. لـن نتحـدّث معـه مطلقـاً حتـى لـو كنـا نتضـوّر جوعـاً!».

جعلـت هـذه التصرفـات قـول ذلـك أكثـر صعوبـة علـي. كان والـدي يضـع نفسـه فـي مـأزق بشـكل يفتقـر إلـى الخبـرة. لـم يتمكّـن مـن تحمّـل أن يُبقينـي جائعـاً لكنـه لـم يتمكّـن مـن التراجـع عمّـا طلبـه أيضـاً. نهـض منزعجـاً وطلـب الطعـام. متضايقـاً مـن فشـله رمـى شـطيرة البرغـر أمامـي وقـال: «كل!».

شـعرت بغصَّـة فـي حلقـي. وبعينيـن دامعتيـن ابتلعـت البرغـر بصعوبـة.

قـال أبي إنـه سيأخذنا يـوم الجمعـة فـي نزهـة سـير علـى الأقـدام إلـى متنـزه كبيـر فـي الجبـال مـع بعـض زملائـه فـي العمـل. أخـذَت فرشـته شـادي إلـى منزلهـم، حمّمتهـا، وألبسـتها، وربطـت شـعرها بشـرائط صفـرٍ. استحمّ آرش وارتـدى ملابسـه بنفسـه. كان علـى أبـي أن يأخذنـي إلـى الحمـام معـه. غسـل شـعري سـريعاً. تذكّـرتُ عندمـا كان السَّـيد كريمـي يحمّمنـي. كنـا نلعـب ونضحـك. كان الاسـتحمام مـع أُمّـي ممتعـاً أيضـاً. وكنـتُ أشـعر كمـا لـو أن يديهـا كانتـا تلاطفاننـي

t.me/yasmeenbook

وهي تحمّمني. كانت تُقبّل عنقي بعد أن أكون قد اغتسلت وتقول: «ما أطيبك! القبلات النظيفة لذيذة جداً».

افتقدتُها. احتجت إلى يديها اللطيفتين وقبلاتها الرقيقة على نحو بالغ.

كان المتنزه فسيحاً وجميلاً. كانت خضرة الأوراق الجديدة نضرة، فيما تحوّلت بعض الأشجار إلى اللون القرمزي. كان الضوء الأصفر الساطع للشمس دافئاً على نحو ممتع. ملأت رائحة البنفسج والياسمين الهواء وأخذتُ نفساً عميقاً وقد تشرّبتُ بكل هذه الألوان مستنشقاً رائحة هواء الربيع المنعش. التقينا بأصدقاء والدي عند بركة كبيرة في المتنزه: ثلاثة رجال، امرأة وخمسة أولاد من مختلف الأعمار. بدا الرجال مقرّبين من والدي لكن كانوا أيضاً يحترمونه كثيراً. قال واحد منهم على نحو تلقائي: «نعم أيها الرئيس»، وأدركت أن والدي لا بدّ وأنه يرأسهم في المكتب.

قدم والد آرش بفخر: «هذا هو آرش. الذي حدّثتكم عنه سابقاً. هو الأول في صفه، درجاته كلها عشرون من عشرين. سوف ترون قريباً اسمه بين الفائزين في مسابقة الرياضيات والفيزياء الكُبرى. وهذه ثرثارتنا شادي. تبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصف». انزويت وكلّي فضول لأن أرى ماذا سيقول عني. نظر أبي من حوله «هناك أيضاً شهاب». كما لو أنه يقول: «نحن أيضاً لدينا كلب». «إنّه هنا في مكان ما». كنت واثقاً من أنه يعرف أني واقف خلفه لكنه لم يلتفت، «إذن عابدي أي من هؤلاء أولادك؟».

t.me/yasmeenbook

لم أسمع بقية محادثتهم. انفصلتُ عن المجموعة. تقدّمت زوجة أحد الرجال وقالت: «لماذا لم تأتِ أمك؟»، هززتُ كتفي وركضت مبتعداً.

بدأنا جميعا بالسَّير. ارتبط آرش مع صبيين في مثل عمره، لكنه تصرّف كما لو أنه متفوقٌ عليهما. سرعان ما استرعت شادي بثرثرتها الطفولية انتباه المرأة المصاحبة لنا. بدأ والدي يتحدّث عن العمل. كنت منسيّاً وتبعتُهم على مسافة قصيرة. افتقدتُ أمي. شعرتُ بعد فترة بحاجة للذهاب إلى دورة المياه. طوال هذا الوقت لم يسألني أبي قطّ إن كنتُ بحاجة للذهاب إلى دورة المياه أم لا. كُنّا قد غادرنا البيت على عجل في الصباح حتى أني نسيت أن أدخله حينها. لم أعرف ماذا أفعل. كانت معدتي تقرقر وشعرت بضغط عظيم في الداخل. قاومتُ وأصبح الضَّغط أقل. لكن بعد بضع خطوات ازداد ولم أتمكّن من الوقوف ساكناً مزيداً من الوقت. ركضت إلى أبي، أمسكت بيده، ونظرت إليه بالطريقة التي أنظر فيها إلى أُمّي في مثل هذه الأوقات. كانت أُمّي تفهم في الحال لكن أبي نظر إليَّ باندهاش ثمّ واصل حديثه.

جذبت يده وسحبها بغضب. «ما هذا؟ ماذا تريد؟ اذهب والعب مع الآخرين».

وضعت يدي على بطني ونظرت إليه بتوسل. قال ولد سمين كان يمشي معنا مع والده: «أنا جائع أيضاً، لقد مشينا طريقاً طويلاً».

قال والده: «سوف أجلب بعض الكعك والمشروبات من الكشك هناك».

t.me/yasmeenbook

أصبح الضَّغط أعظم الآن، احترقت عيناي وسمعت صوت صفير في أذني. راوحتُ بقدميّ على الأرض ووضعت يدي على معدتي. كان أبي مشغولاً بالحديث. عاد الرجل مع الكعك والشَّراب وناولني كعكة. كان الضغط لا يحتمل. لم أستطع أن أفهم لماذا يكون الكبار شديدي الحماقة. رميتُ الكعكة بعيداً وحدّق الجميع بي مندهشين. رمقني أبي بنظرة لئيمة وقال بصوت منخفض كي لا يتمكن الآخرون من سماعه: «ماذا ثانية يا ابن المحروق؟ هل تريد أن تُخزيني؟».

كان فزعاً للغاية من الإحراج. كان يتباهى أمام زملائه على غير ما حاجة. أرخيتُ عضلاتي المتوترة. سال سائل دافئ على ساقي وتقطَّر من سروالي. ملأت رائحة كريهة الهواء. صار سروالي ثقيلاً. نظر الجميع إليّ. شحب وجه أبي ثم احتقن. قالت المرأة: «أوه يا إلهي! لقد لوَّث نفسه!».

كان أبي مرتبكاً للغاية فلم يدرِ ماذا يفعل. استعاد السَّيطرة على نفسه لكنه لم يستطع أن يهدأ. جذب يدي ببغضاء. أشارت المرأة إلى دورات المياه. خلَّفنا وراءنا أثراً قذراً كريه الرائحة. تجهّم جميع من مروا بنا وسدّوا أنوفهم وهم ينظرون إلينا باستغراب.

صبَّ والدي قليلاً من الماء على ساقي. امتنع عن لمسي، وظل يشتم. لطمني على رأسي عدَّة مرات. كان على وشك أن ينفجر غاضباً، لكني شعرت بهدوء غريب. كنت فارغاً عاطفياً وبدنياً.

t.me/yasmeenbook

35

أخيـراً بلغَـت رحلتـي المؤلمـة منتهاهـا. كنـتُ لأول مـرّة أتشـوّق للعودة إلـى البيـت. لـم يبارحنـي التفكيـر بأطفالـي ولـو للحظـة واحدة. ورغـم ألمـي الصَّـادق القلبـي العميـق، فلـم أكن بقـادرة علـى أن أحـزن كمـا يجـب. وبمـا أنـي كنـتُ ابنـة الفقيـد الوحيـدة، فقـد توجّـب علـيَّ أن أسـاعد أُمّـي مـع كلّ المُعزّيـن. ولـم أكُـن قـادرة علـى التعبيـر عـن مشـاعر حزنـي الشَّـخصية مـع تلـك الأمـور التـي توجّـب علـيَّ القيـام بهـا. المـكان الوحيـد الـذي أردتُ أن أكـون فيـه الآن هـو البيـت. جـاء كلٌّ مـن آرش وشـادي لإلقـاء التحيـة علـيَّ بسـعادة، لكـن شـهاب ركـض واختفـى فـي غرفتـه. قـال ناصـر: «كل مـا يفعلـه ليـس طبيعيـاً! لقـد أتعبنـي كثيـراً حقـاً».

كنـت أعـرف أن سـلوكه كان ضربـاً مـن الاحتجـاج. تبعتُـه إلـى الطابـق الأعلـى وجذبتـه مـن خلـف سـريره. كنـت أعـرف خدعَـه كلّهـا. كان يحـاول إبـداء اسـتيائه منـي، لكـن عندمـا عانقتـه بشـدة وقبّلتُـه تخلّـى عـن كلّ مقاومـة وارتمـى فـي ذراعـي.

حاولـت أن أُعيـد كلّ شـيء إلـى حالتـه الطبيعيـة بأسـرع مـا يمكـن. أدّيـت المهمـات اليوميـة التـي لـم أسـتمتع يومـاً بالقيـام بهـا. لكـن مهمـا بذلـت مـن جهـد، لـم ينقـضِ كمـدي. كنـتُ أتحـدّث إلـى أُمّـي وأخوتـي يوميـاً علـى الهاتـف وطالمـا بكيـتُ. راقبنـي شـهاب بعنايـة طـوال الوقـت، لكـن ناصـر لـم يُولِ أي اهتمـام لحالتـي الذهنيـة. كان يعمـل بجـدّ كالعـادة ويعـود إلـى البيـت متأخـراً كلّ ليلـة. كان يشـير إلـى التَّضحيـات بالنفـس التـي قدمهـا مـن أجـل عائلتـه. ويتحـدَّث

t.me/yasmeenbook

باستمرار عن الوقت الصعب الذي مرّ به في غيابي، عندما كان عليه أن يعمل ويعتني بالأولاد في الوقت نفسه. لم أرغب بمجادلته، وأن أشير إلى أنها كانت مسؤوليته، لكني لم أستطع احتمال مباهاته بما قدّم أيضاً. لم يكن يكلّ من شرح حادثة المتنزه، وكان كلّ مرّة يروي القصة بمزيد من الغضب والألم. كنت متفاجئة لدى سماع القصة للمرة الأولى.

«أكاد لا أُصّدق ذلك على الإطلاق. كيف يمكن لشهاب أن يأتي بمثل هذا الأمر؟».

«حسناً، لقد فعله! وقف أمام زملائي وأطفالهم، ثم نظر في عينيّ وتغوّط بلا خجل! لا يمكنك أن تتخيّلي كيف كان شعوري».

«لا بدّ أنه كان مريضاً. ربما تناول شيئاً رديئاً ولم يستطع أن يتحكّم في نفسه».

«لا، لم يكُن يعاني من أي سوء!».

«إذن ربما لم يذهب إلى دورة المياه في الصَّباح. أنت تعلم أنه يستغرق عادة وقتاً طويلاً في الصباح. يجب أن تكون صبوراً. حتى أنه أحياناً يأخذ ألعابه ويلعب بها هناك».

«وأنت لن تصدقيني عندما أقول لك إنه مجنون! يلعب بألعابه في دورة المياه؟».

«توقَّف! إنه طفل. لا تصنع من الحبّة قبّة. هذا يحدث للجميع. لدى زملائك أطفال أيضاً، وهم يتفهّمون».

«لا يمكنني أن أرفع رأسي حتى في المكتب بعد الآن. هل تظنين أنهم يحترمون رئيساً توجَّب عليه أن يمسح مؤخرة طفله الملوّثة؟».

t.me/yasmeenbook

«أنت تثير ضجَّة. ماذا تنتظر مني بأية حال؟ هل تريدني أن أتخلّص منه؟».

«لا، دلّليه كالعادة! لقد فعلها عن قصد فقط ليزعجني. كان عليك أن تري النظرة التي رمقني بها، كانت لئيمة وعنيدة وفيها معنى الانتصار».

«لماذا يرمقك بنظرة لئيمة وعنيدة؟ هل فعلتَ له شيئاً؟».

«حمَّمتُه وألبسته ثياباً نظيفة. قليت له البيض في الفطور وصحبتُه إلى المتنزّه. حتى أني أخذتهم إلى مطعم. ويردّ لي الجميل بتلك الطريقة!».

بعد أربعين يوماً كان عليَّ أن أتغيب لعدة أيام مرّة أخرى لحضور الذكرى الأربعين لوفاة والدي. أجلستُ شهاب وشرحت له السبب الذي دعاني للمغادرة وكم كان مزمعاً أن يطول غيابي. فهم سبب ذهابي وتقبّله على عكس ما توقعت.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

لم تخدعني أُمّي هذه المرة. شرحت لي كلّ شيء قبل مغادرتها، لذا لم يكن غيابها مؤلماً لدرجة كبيرة. عندما عادت إلى البيت مع بيبي، ركضتُ مع الجميع لتحيتهما.

كان حضور بيبي حدثاً غريباً في حياتنا. كنا دوماً من يذهب لزيارة منزلها. لم أستطع تذكّر أنها جاءت يوماً لزيارة منزلنا. مظهرها، الملابس التي كانت ترتديها، وشاحها، وطريقتها في التَّحدث، التي بدت كلّها مبهجة للغاية وملائمة في بلدتها، كانت في مدينتنا غير ملائمة، كانت بيبي بنفسها مدركة لهذا أكثر من أي شخص آخر. كانت قد فقدت ثقتها بنفسها بطريقة ما. هذه المرأة القوية التي كانت تُلقي الأوامر على جميع من هم حولها، أصبحت خجولة في محيطنا. عندما جاءت جدتي بكل أهوائها لتزور بيبي مع عمَّاتي وفتّانة ازداد خجلها لا سيّما عندما أبدت الجدّة ملاحظات قاسية حول وشاحها، وحول ازدياد نفقات أسرتنا.

قال عاصي: «أتمنى لو كنا نملك حجراً آخر لنرميه على رأسها».

قال أبي للمرّة الأولى في حياته شيئاً محقّاً: «لقد شرّفتنا بيبي بحضورها. إنها تعاملنا بلطف شديد كلما ذهبنا لزيارة منزلها. آمل أن تعتبر هذا بيتها وتقيم معنا لأطول مدّة ممكنة».

أخفضت بيبي رأسها وقالت: «شكراً لك يا بُني، لكني أشعر براحة أكبر في منزلي. أصرَّت مريم على أن آتي هذه المرة. قلت

t.me/yasmeenbook

لها إن هناك أطباء مهرة في بلدتي، لكنها لم تكن تصغي إليّ. قالت إن عليَّ المجيء إلى طهران لأرى أخصّائياً. لدي موعد يوم السبت، لذا سوف أكون ممتنّة للغاية لو تشتري لي تذكرة للعودة يوم الأحد».

قالت أمّي: «ماذا؟ لم أتجشم كلّ هذا العناء كي تعودي فور وصولك. مستحيل! سوف تُمضين الصَّيف معنا. ثم أن الطبيب سوف يطلب إجراء جميع أنواع التحليلات وصور الأشعة، لذا سيتوجّب عليك الانتظار حتى يتمّ إنجازها جميعاً. لا يمكنك المغادرة سريعاً جداً، أريدكِ أن تبقي!».

وهكذا بقيَت بيبي معنا إلى حين. وذهبَت مع أُمّي لتراجع عدة أطباء وتُجري الفحوصات المختبرية عدة مرات في الأسبوع. كان لبيبي في أوقات أخرى حضور غير مرئيّ على طرف حياتنا الخارجي. بدت مكتئبة ووحيدة. لم تكن هذه بيبي التي عرفتُها. كانت أُمّي كلما وجدَت بعض الوقت تجلس قربها وكانتا تتحدثان عن جدّي الراحل وتسكبان العبرات. شغلت بيبي زوايا منزلنا حتى أني كنت أنسى وجودها أحياناً.

بعد حادثة المتنزّه كنا أبي وأنا قد أصبحنا عدائيين بشكل سافر. كنا ندور بحذر حول بعضنا البعض، مثل غريمين يتوقع كل منهما هجوماً من الآخر. جاء ذات يوم إلى البيت وقال: «مديرنا العام، السَّيد أربابي، عائد من الحجّ وقد دعا الجميع إلى حفلة في الحديقة في يوم الجمعة. سوف يقدِّم الكباب». التفتَ إلى أُمّي وواصل بهدوء: «وسوف يُعلن على الأرجح ذلك اليوم عن ترقيتي».

t.me/yasmeenbook

قال عاصي: «ما أطيبه! كباب!»، ابتلعتُ ريقي وانتظرت بحماس قدوم يوم الجمعة.

أمضينا أُمّي وأنا ثلاثة أيام نبحث عن هدية مناسبة للسيد أربابي. أخيراً اخترنا معاً طبق تقديم جميل وباهظ الثَّمن. حملتُه بفخر طوال الطريق إلى البيت. كنت أنتظر حلول يوم الجمعة بفارغ الصَّبر. أولاً لأننا لم نُدعَ إلى حفلات شواء في أوقات كثيرة، وثانياً لأني أردت أن أُحسن التَّصرف على أفضل وجه وأُظهر لأمي أني فتى جيد وأن حادثة المتنزّه التي ظلّ والدي يردّد سردها لم تكن بخطأ منّي.

استيقظتُ في اليوم المأمول أبكر من المعتاد. غسلتُ وجهي وارتديت سروالاً قصيراً وكنزة كاكيَّة اللون كانت أُمّي قد اشترتها لي مؤخراً. قمتُ بتسريح شعري ونزلت إلى الطابق الأرضي. لم يكن الآخرون قد جاؤوا لتناول الإفطار بعد. كانت بيبي هي الشَّخص الوحيد في المطبخ. نظرَت إليَّ متفاجئة وقالت: «يا لك من صبي صغير وسيم! تنال أعلى علامة اليوم لأنك أول المستعدّين». ابتسمتُ. «لا بدّ أنك متحمّس للغاية بشأن حفلة الحديقة». تناولتُ فطوري بشهيّة. عندما رأت أُمّي الطاولة مفروشة قالت: «بيبي، لم يكن عليك أن تفعلي هذا. شكراً جزيلاً. لقد أطلنا النَّوم جميعاً اليوم ونحن متأخرون إلى حدٍّ ما».

نظرت بيبي إليَّ مبتسمة وقالت: «ما عدا فتاي الأشقر هنا. لقد استيقظ منذ الفجر. اغتسل وتناول الفطور وذهب إلى دورة المياه وها هو ينتظركم. انظري كم يبدو وسيماً».

t.me/yasmeenbook

ازدحم المطبخ عند وصول كلّ من شادي وأبي. نادت أُمّي آرش. صبَّت الشَّاي للجميع وبدأوا جميعهم بتناول الفطور. قال أبي: «عجّلوا واستعدوا. من المفترض أن نلتقي الآخرين على الطريق عند السَّاعة العاشرة».

ذهبتُ إلى الصالة وجلست أمام التِّلفاز. شعرت بالهدوء والتَّفوق لأني كنت مستعداً قبل أي واحدٍ منهم. كانوا جميعاً يركضون هنا وهناك. كان آرش يبحث عن قميصه ويصرخ: «أُمّي أين قميصي الأزرق؟».

«ارتدِ شيئاً آخر».

«كلّا، أرغب بارتداء ذلك القميص».

«كان قذراً، وضعتُه في سلَّة الغسيل».

أخيراً استعدّوا جميعاً. ارتدت شادي قميصاً أحمر مع جوارب بيض طويلة وكان شعرها معقوداً في تسريحة ذيل الحصان. جاء آرش إلى الطابق الأرضي متبرّماً. أخرج والدي السَّيارة من المرآب وعاد إلى المنزل ليأخذ كيساً كان قد نسيه. أسرعنا إلى السَّيارة. جلستُ قرب النَّافذة. شعرت أني أملك الحق لأني كنت مستعداً قبل الجميع. عند الباب الرئيسي قالت أُمّي لبيبي: «آسفة. سوف نحاول أن نعود باكراً. يوجد طعام في الثَّلاجة». رفعَت بيبي ذراعها ولوَّحت لنا. ركب أبي السَّيارة وألقى بنظرة على الداخل قبل أن يستقرّ خلف المقود. وفجأة تجمَّد في مكانه كما لو أنه أصيب بصدمة كهربائية.

بغتة قال محتجّاً: «إلى أين تظنّ أنك ذاهب؟»، وتوجّه بغضب نحو أُمّي التي كانت لا تزال تتحدث مع بيبي.

t.me/yasmeenbook

«مريم إلى أين هو ذاهب؟ أما كنت سترسلينَه إلى بيت عمه؟».

نظرتُ غير مصدِّق. كنت أعرف أنه عدوّي، لكنني لم أكن أُدرك إلى أي حدّ.

«هذا ليس عدلاً. دعهُ يأتي. لن يزعجك».

«مستحيل! قلت لك من قبل. أنا لست مرتاحاً مع هؤلاء الناس، سيكون الجميع هناك. إنه يوم مهمّ بالنسبة لي. إذا تسبّب بقذارة أخرى أمامهم أو أحرجني بأية طريقة فلن أكون قادراً على رفع رأسي أمامهم بعد الآن».

«لقد ارتدى ملابسه وهو مستعدّ للذهاب. لا يمكننا تركه. سوف أراقبه طوال الوقت».

«لا! قلتُ لك لا منذ البداية. كان يُفترض بك أن تضعي خططاً من أجله. تفعلين هذا عن قصد كي لا يكون لديّ الخيار. لكن يستحيل عليَّ أن آخذه معنا. لا أشعر بالراحة في وجوده. إنه يحرجني. إن وجوده يحتّم عليَّ أن أشرح باستمرار لماذا لا يتكلم ولماذا هو أبكم.. إلخ. لا أريد أن ينظر الناس إليّ مشفقين أو يحاولوا اكتشاف موطن ضعفي».

«ما الذي تتحدّث عنه؟ أيّ ضعف؟».

«أنت لا تعرفين كيف هي الأمور في المكتب. منذ فترة طويلة قال البواب كرماني الذي هو الآن عضو فاعل في الجمعية الإسلامية: «إن أولئك الذين لا يؤمنون بالله ورسوله سيُنجبون أولاداً معاقين». هذه حال الأمور في البلاد الآن، وفي المكتب بشكل خاص، لا أريد أن يُنظر إلي على أني غير مؤمن».

«يا له من أبله! إن ذا العقل المريض فقط يمكن أن يتبنّى مثل

t.me/yasmeenbook

هـذه الأفـكار. لمـاذا أصغيـت إليـه وبـدلاً مـن أن تصفعـه علـى فمـه أوليـت اهتمامـاً لمـا قالـه؟».

«أنـا لا أتّفـق معـه، لكنهـم يتولّـون المسـؤوليات الآن وقـد يكـون مركـزي فـي العمـل مهـدّداً».

كان انفعالـي كلّـه مسـتبدلاً بشـعور مؤلـم بالإحبـاط. وبالفخـر القليـل الـذي كان قـد بقـي عنـدي، خرجـتُ مـن السَّـيارة ودخلـتُ إلـى البيـت. كان عـبء هـذا الإذلال أكبـر مـن أن أتحمّلـه. واصـلا الجـدال لمزيـد مـن الوقـت لكنـي ذهبـتُ إلـى غرفتـي، تمـدّدتُ علـى السَّـرير وحدَّقـتُ فـي السَّـقف. كان لا يـزال عنـدي بصيـص أمـل. صعـدا إلـى الطابـق الأعلـى بعـد بضـع لحظـات.

قال بابي: «انظر إنها هنا! لن تتركنا أُمّي وحيدين».

جلسَـت على السَّـرير، ربتَـت علـى رأسـي وقـالـت: «شـهاب عزيـزي، سـوف آخـذك إلـى الحديقـة غـداً وسـوف نشـتري البيتـزا علـى الغداء. أعـدُك. والأسبوع المقبـل سـوف نذهـب جميعـاً فـي نزهـة مـع بيبـي، أليـس صحيحـاً، ناصـر؟ لقـد وعـدت».

«نعـم، فـي الأسـبوع المقبـل سـوف نذهـب إلـى الحديقـة مـع بيبـي، أعـدكِ. مريـم، وسـأشتري لـه دراجـة أيضـاً!».

«أحقّاً؟ هذا رائع!».

«نعـم، دراجـة حمـراء. الآن كـن ولـداً طيبـاً وابـق مـع بيبـي، سنعود قريباً».

قبّلتنـي أُمّـي علـى خـدي: «لا تحـزن يـا عزيـزي. سـوف تذهـب مـع والـدك غـداً وتشـتري دراجـة. أنـت محظـوظ، أتمنـى لـو أنـه لـم يكـن علـي الذَّهـاب اليـوم! لا أشـعر برغبـة فـي قضـاء الوقـت مـع هـؤلاء النـاس. ستشـعر بالملـل مـا إذا أتيـتَ معنـا».

t.me/yasmeenbook

«مريم، لنذهب، الوقت يتأخر».

نهضَت أُمّي من على السَّرير، نظرت نحوي بحزنٍ وغادرَت. كرهتُها. لماذا لم تقِف إلى جانبي؟ كانت ضعيفة للغاية. حطّم صوت السَّيارة ما كنتُ أملكه من بقايا الأمل. ركضتُ إلى النافذة ورأيتُها تنعطف ثم اختفت. لم يأخذاني! لا أزال غير مصدِّق. أطبقتُ على أسناني بغضب ومسحتُ دموعي بظاهر يدي.

قال عاصي: «لتذهب الدراجات الحمر إلى الجحيم!».

كنت أفقد صوابي. ذهبت إلى غرفة نوم والديّ لكن الباب كان مقفلاً. ركلت وطرقت على الباب لكن بلا فائدة. صعدَت بيبي الدَّرج ببطء وأنزلتني معها. تحدّثت معي مطوّلاً وروَت لي الحكايات لكني لم أتمكّن حتى من سماع كلمة مما قالته. دارت أفكار سود عن الانتقام في عقلي. ماذا يمكنني أن أفعل بشكل يعادل معاملتهم السيئة لي؟

قال عاصي: «سوف أقتلهم! فقط انتظر وسوف ترى».

صاح بابي: «كيف؟ نحن أضعف منهم بكثير. لا يمكننا فعل شيء».

«نعم نستطيع. نحن لسنا أضعف من شادي. سوف يشعرون بأسف شديد لو قتلنا شادي. سوف نأخذها إلى السطح ونرميها».

«لكن شادي ليست هنا الآن».

«سوف نحرق منزلهم. هذا سهل. سوف نشعل عود ثقاب كما فعل خسرو ونرميه في الخزانة».

«لكن لن يحدث لهم شيء».

t.me/yasmeenbook

«سوف نحرقه عن بكرة أبيه فيما هم نائمون. نعم الحريق فكرة جيدة!».

أمضيت بقية الصباح مهتاجاً وبلا عزاء، أُخطط للانتقام في غرفتي. لم أستطع أن أكون بصحبة أحد، ولا حتى بيبي، فهي تركتني وشأني. في وقت الغداء نادتني كي آتي وأشاركها الطعام، سخّنَت شرائح اللحم البائتة. وضعَتها على الطاولة مع اللبن الخاثر والخضار والخبز.

كنت متحيّراً بين قرارين: أن أحرق عائلتي حتى الموت حيناً، أو أراقب شادي تسقط من قمة السَّطح على الأرض حيناً آخر. في تلك اللحظة، بدت شادي لعبة والدي المفضلة التي كنت أدمّرها لأثأر منهما. لذا، فعندما تخيّلتها جثة هامدة على الأرض، ليس أني لم أشعر بأي أسف أو ندم فحسب، بل انتابني القلق من أن معبودتهم المحبوبة قد لا تتحطم تماماً.

قال عاصي: «إذا ما كانت ستكون بخير بعد سقوطها، فسوف نحزّ عنقها بالسكين».

ظلت بيبي تترجاني لأن آكل بضع لقيمات. بدا الطعام عديم المذاق وجافاً. أدهشني أني وجدته لذيذاً جداً الليلة المنصرمة. تخيّلت حفلة الحديقة الجميلة والطعام اللذيذ الذي كانوا يحظون به. كان بوسعي تنشّق رائحة الكباب الذي يسيل له اللعاب. تخيّلتُ شادي وهي تلتهم قطعة كبيرة من الكباب. رميتُ بطبق شرائح اللحم على الأرض وبصقتُ الطعام الجافّ من فمي.

نهضَت بيبي واتجهت نحوي. كنتُ ممسكاً بالشَّوكة بإحكام، على استعداد لقتلها أيضاً. ملأَت رغبة عظيمة بالتخريب جسدي

t.me/yasmeenbook

كاملاً. وعلى عكس ما توقّعتُ، فلم توبّخني بيبي. جلسَت أمامي، غطّت عينيها بوشاحها، وبدأت تبكي بصوت عالٍ. كانت تقول بين نشيج وآخر: «أنا آسفة من أجلك أيها الطفل. أتمنى لو كنت ميّتة ولم أشهد كيف يسيء هؤلاء القساة معاملتك. لديك الحقّ في أن تغضب. كنت سأغضب أيضاً لو كنتُ مكانك».

كنت مصدوماً. نظرتُ إليها بدهشة. لم يسمح لي أحد أن أكون غاضباً أو عنيفاً من قبلُ. ارتخت يدي ورميتُ الشّوكة. أبعدت بيبي يديها عن عينيها لدى سماعها صوت وقوع الشّوكة. ثم أمسكَت بيدي وسحبَتني إلى ذراعيها. كان كتفاها لا يزالان يهتزّان مع كلّ شهقة من شهقاتها. ضغطتُ برأسي على صدرها. فاحت منه رائحة ماء الورد والفطائر. استسلمتُ إلى عناقها وحرّرتُ الحزن الذي كنت أشعر به طوال اليوم. ربتَت على رأسي بيديها اللطيفتين وتركَتني أبكي.

قالت بعد حين: «شهاب، أنت ولد طيب جداً. لا تعاني من أي خلل. أنت في رأيي أذكى منهم جميعاً، لكنهم حمقى للغاية ليدركوا ذلك. لو كنتُ مكانك لما كنت سأتحدّث معهم أيضاً». وبدأت تبكي ثانية. «إذا رغبت في أن تكسر أي شيء هيا تقدّم، سوف أساعدك».

جفلتُ. وبتردّد تناولتُ كاساً ورميتُه على الأرض. تناولَت بيبي كأسها ورمَته أيضاً. شعرتُ بالإثارة. نظرتُ من حولي وأخذت بعض الأطباق عن الرفّ ورميتُها على الأرض. تناولَت بيبي طبقها الذي كان لا يزال يحتوي على القليل من اللحم واللبن الخاثر ورمته على الأرض. تناثر اللبن في كلّ أنحاء المكان. لم أستطع تصديق الأمر! بدأتُ أضحك.

t.me/yasmeenbook

قالت بيبي: «هل تعرف؟ هذه الأشياء لا تؤثر إلّا على أمّك. تحطيم أشيائها لا يُرضيني. أريد أن أكسر شيئاً من أغراض والدك». شعرتُ كما لو أن شخصاً آخر كان يتحدث في عقلي. أومأتُ بحماس، أمسكتُ بيد بيبي وسحبتُها إلى الأعلى. صعدتْ ببطء لكنها لم تشتكِ من ساقها المتألّمة. وقفت عند باب غرفة والدي.

قالت بيبي: «لا فائدة، لقد أقفلوا الباب».

أشرت إلى أعلى الباب. استطعت أن أرى المفتاح عالياً هناك. قفزتُ عدة مرات لكني لم أتمكن من الوصول إليه. مدّت بيبي ذراعها أيضاً لكن كان بلا جدوى. ركضتُ إلى غرفتي وجلبت مقعداً صغيراً. صعدَت بيبي على المقعد ببعض الصُّعوبة، لكن مع ذلك لم تصِل إلى المفتاح. وقعَت وهي تحاول أن تنزل. ركضتُ إليها قلقاً. جذبَت يدي وعانقتني وضحكَت. «انظر إلينا مثل اثنين من المجانين». عانقنا بعضنا البعض وضحكنا لمزيد من الوقت. تلاشى الألم والكراهية في داخلي لبضع لحظات.

قالت بيبي: «هل هذه غرفتك؟ أردت أن أتشارك معك غرفتك، لكن طالما أن ساقي تؤلمني فقد وضعَت أمك حاجياتي في غرفة آرش في الطابق الأرضي. هل تريد أن تريني غرفتك؟»، ساعدتُها على النهوض وأخذتُها إلى غرفتي. نظرَت من حولها وقالت: «يا لها من غرفة جميلة. أريد أن أبقى هنا. هل ستشاركني غرفتك؟»، أومأتُ بحماس. «إذن لنجلب حاجياتي». تذكّرتُ ساقها المتألمة وأشرتُ إلى ركبتها.

قالت: «لا تقلق. فلو أنك تساعدني على النهوض وعلى هبوط

t.me/yasmeenbook

الـدرج لـن تؤلمنـي كثيـراً. هـل ستسـاعدني؟»، أومـأتُ عـدة مـرات. نزلنـا الـدَّرج معـاً ببـطء وجلبنـا حاجيـات بيبـي الأساسـية. أردتُ أن أجلبَ حقيبتهـا أيضـاً لكنهـا قالـت: «لا أحتـاج إلـى ذلـك. سـوف نأخـذ أي شـيء أحتاجـه منهـا. إذن مـاذا تظـن أن علينـا نفعلـه الآن؟ هـل علينـا أن ننظـف المطبـخ ونأخـذ قيلولـة أو ندعـهُ علـى حالـه؟».

بـدأت أفكّـر. لـم أشـعر برغبـة بمواصلـة القتـال بعـد الآن. لا أعـرف مـا الـذي حـدث، لكـن لـم يكـن أمـراً بالـغ الأهميـة بالنسـبة لـي. هـززتُ كتفـي.

قالـت بيبـي: «لـن أنظـف كلّ شـيء، لكـن دعنـا نجمـع الزجـاج المكسـور كـي لا يدخـل فـي أقدامنـا، حسـناً؟ هـل ستسـاعدني أيضـاً فيتمّ إنجـاز العمـل بشـكل أسـرع؟ ثـم يمكننـا أن نغفـو قليـلاً وسـأروي لـك قصـة».

نظفنـا المطبـخ معـاً. ثـم صعـدت بيبـي الـدَّرج بمسـاعدتي. فـردتُ غطـاءً علـى الأرض ووضعـتُ مخدتينـا قـرب بعضهمـا البعـض. وضعـتُ رأسـي علـى ذراعهـا. أحببـتُ حقـاً هـذا القـرب. كانـت شـادي تنـام دومـاً قـرب أُمّـي بهـذا الشـكل. لـم يكـن هنـاك مـكان لـي بيـن ذراعـي أُمّـي منـذ أن قدِمَـت شـادي. محتَضَنـاً قـرب بيبـي، أصغيـت إلـى صوتهـا الملحـون، وسـرعان مـا غطـتُ فـي النـوم.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

«صعود الدَّرج ونزوله ليس جيداً من أجلك. إذا كنت لا تشعرين بالارتياح في غرفة آرش سوف أرسله إلى الطابق الأعلى ويمكنك أن تقيمي في الغرفة بمفردك».

«كلّا! أريد أن أبقى في غرفة شهاب».

أردف ناصر: «بصرف النظر عن الدرج، لن يكون بوسعه مساعدتك إذا احتجتِ إلى أي شيء لأنه لا يفهم شيئاً ولا يقوى على الكلام».

أجابت أُمّي بغضب: «إنه يفهم كلّ شيء! ما يزعجني هنا ليس الدَّرج!»، والتفتَت. نظرَت إلى ناصر باندهاش.

سألتُ أُمّي بعد أن ذهب إلى العمل: «لماذا أنت مستاءة؟ ناصر لم يقصد شيئاً. كان يفكّر فقط في ما هو خير لك».

هزَّت رأسها بحزن وقالت: «ماذا يمكنني أن أقول؟ أنتم لا تدركون الأمور التي تقولونها. أنا قلقة عليك كثيراً. يبدو كما لو أنك لا تفهمين على الإطلاق».

«أفهم ماذا؟».

«راقبي هذا الطفل، راقبي آرش، راقبي نفسك. هل تسمّون هذه حياة؟ يبدو أن كلّ ما درستموه ذهب هباء!».

لم أفهم مقصدها. سألتها مفزوعة: «ماذا حدث؟ ما الذي يزعجك؟».

«كل شيء! مرّ على وجودي هنا ثلاثة أسابيع الآن. يبدو أن شيئاً ما مفقود من هذا المنزل أينما أجِلت نظري. كما لو أنكم

t.me/yasmeenbook

جميعاً على علاقة سيئة في ما بينكم، كلّ واحد منكم يلزم زاويته وينشغل بعمله الخاص. لا شيء يشير على المرح، أو الظُّرف. لم يروِ أحد نكتة أو يضحك بصوت عالٍ طوال الوقت الذي أمضيتُه هنا. أي نوع من الأزواج أنتما؟ أنتما لم تتحدّثا قط مع بعضكما. أنتِ تقومين بالأعمال المنزلية طوال اليوم بوجه متجهّم، وهذا ما يُخيفني أنا أيضاً ناهيك عن أطفالك. لماذا أنت حزينة جداً؟».

«أنا لست حزينة، لكن لا أحب أعمال المنزل. إنها تجعلني أشعر بعدم الجدوى. لدي كلّ هذه الشَّهادات لكن في النهاية أنا مجرد ربة منزل بسيطة مثل أية امرأة من القرن الماضي».

«إذن ماذا؟ أنتِ تقومين بهذا من أجل أطفالك. إن مجرد كونك جامعية لا يعني أن على أولادك أن يتضوّروا جوعاً».

«أليس ما أقوم به هنا كافياً؟ أنا أعمل ليل نهار، أغسل، أنظّف، وأطهو لهم، متجاهلة رغباتي وحاجاتي الخاصة. وفي النهاية تدعينني أُمّاً سيئة وتستنكرين عليَّ حياتي!».

«بالطبع لا أستحسنها. كلّ ما تفعلينه والعبوس يعلو وجهك، تتذمّرين وتتبرّمين، وكأنك سجن لأطفالك. كلّ ما تفعلينه هنا هو الوفاء بمسؤولياتك. حصولك على التعليم أمرٌ عظيم! لكن لا يعني أن ليس عليك أن تطبخي وتنظفي في إثر أولادك».

«أنا فقط قصدتُ أن هذا ليس كلّ ما أريد فعله».

«حسناً، افعلي أكثر لو استطعتِ. لكن إذا كنت لا تستطيعين، إذن على الأقل قومي بتأدية مسؤولياتك كما يجب. كلّ ما يفعله المرء بحبّ، مهما كان، يكون أقل صعوبة وتعباً. وزوجك ذاك كما لو أنه الرجل الوحيد في العالم الذي يعمل! كلما يأتي إلى البيت يتصرّف كما لو أنه كان يزيح الجبال!».

t.me/yasmeenbook

«هو متعبٌ يا أمي. إنه يعمل ثلاثة أعمال».

«يجب عليه أن يستقيل إذا كان لا يستطيع معالجة الأمر. لقد صنعتما أنتما الاثنان من الحبَّة قبَّة، مثيرين ضجّة كبيرة من كلّ ما عليكما القيام به. هذا ليس جيداً لأطفالكما. عليكما أن تفكرا بهم أكثر».

«إنه القلق على الأطفال الذي يقتلُنا!».

«توقَّفي عن اختلاق الحجج. لا يعاني أطفالك من أي شيء غير سويّ. أنتم المشكلة هنا. الآباء السيّئون يحظون بأطفال سيئين. إذا أصلحتما نفسيكما فسوف ينقلب حال الأطفال ويكونون على خير ما يرام».

«هل تظنّين أننا نتحمل ذنب كون شهاب على الحال التي هو عليها؟».

«أيَّة حال؟ شهاب ما من عيب فيه. إذا ما أطلق أي شخص على هذا الطفل مرّة أخرى صفة المريض، فسوف ألطمُه على فمه!».

نظرتُ إليها برعب وقد كانت تقفُ أمامي مثل لبوة. وبخلاف معظم المرّات، عندما كانت أوهى ملاحظة قد تضايقني، لم يزعجني كلامها هذه المرّة على الإطلاق.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

38

أصبحَت بيبي شريكتي في الغرفة. وللمرة الأولى كان هناك شخص قريب مني يتقبَّل جميع مواطن ضعفي. لم يشكِّل عدم الكلام عندي عقبة بالنسبة لبيبي، ولم يمنعنا من التواصل. أصبحَت غرفتي عالمنا الخاص، حيث نشعر بإحساس لطيف بالأمان لدى إغلاقنا الباب. لم تصرّ بيبي على حملي على الكلام. لم أكُن خائفاً معها، ولم يُقلقني الأمر كما لو أن عليَّ اجتياز اختبار. ذات ليلة عندما كنت نائماً بالقرب منها أُصغي إلى إحدى حكاياتها الفاتنة قالت: «يمكنني أن أروي لك البقية ليلة الغد إذا كان النعاس يغالبك كثيراً».

هززت رأسي. سألَت ثانية وهززت رأسي مرّة أخرى. قالت بيبي: «لا أستطيع أن أرى رأسك في الظلمة، يا حبيبي. المس يدي أو أصدر صوتاً. لو ترغب بقول نعم فقط قل (إحم) كما لو أنك تنظّف حنجرتك. وإذا كنت تريد أن تقول لا أصدر صوتاً آخر مثل بوق سيارة على سبيل المثال. هل تريدني مواصلة القصة؟».

لمست يدها وقلت: «إحم».

استأنفَت بيبي القصَّة. كانت تحكي عن صبيّ مسحور لم يكن بوسعه الكلام. لكن الصبي الجسور وجد مفتاح السِّحر وحرّر الجميع. أحببتُ القصَّة كثيراً جداً. أردت أن ترويها بيبي مراراً وتكراراً. لكن بدا كما لو أنها نسيتها.

بعد ظهر اليوم التَّالي في وقت القيلولة ارتميتُ بين ذراعيها، عانقتُها، وأظهرتُ لها استعدادي لسماع قصَّة. بدأت قصَّة

t.me/yasmeenbook

مختلفة. هززت رأسي محتجاً. قالت بيبي: «أية واحدة تريد؟ لا أستطيع أن أعرف أية قصَّة تريد مني أن أروي لك. هل يمكنك أن تعطيني تلميحاً صغيراً؟».

تمتمت: «الـ... السِّحـ... السِّحر...».

«أوه، قصة السَّاحرة التي تسحر الصَّبي الصَّغير لكي تمنعهُ عن الكلام؟».

أجبت بسعادة: «آها».

روت بيبي القصَّة وكانت تتصرف بشكل طبيعي تماماً، كما لو أن شيئاً خاصاً لم يحدث. تلك الليلة سألتني: «أية قصَّة تريد الآن؟».

قلت بشكل أقل قلقاً عن المرة السابقة: «السحر...».

راقبتُ بيبي بعناية في اليوم التالي. اختفيت في زوايا المنزل دون أن يراني أحد. لأسمع ما قد تقوله لأمي. لكن بيبي لم تقُل شيئاً. أثارتني حقيقةُ أنها استطاعت أن تحفظ السرّ ، وأزالت بعضاً من مخاوفي ووساوسي. ذلك الظهر تمددت قربها ونطقتُ بارتياح أكبر: «بيبي... السِّحر».

كلما كان لدي قدر أقلّ من الخوف كلما تمكّنت من نطق المزيد من الكلمات. كانت بيبي هادئة ولم تكن تنفعل كلما قلت شيئاً. لم تبدُ سعيدة على غير العادة، ولم تسخر مني. كما لو أن حقيقة أني تكلمت كانت أمراً طبيعياً للغاية ولم تكن يوماً مسألة عظيمة. بعد شهر تحادثنا بيبي وأنا مع بعضنا البعض دون مشاكل، وهذا كان سراً خاصاً بيننا نحن الاثنان. لم ترغب بيبي أن تتباهى بنطقي، ولم تشعر كما لو أن عليها أن تثبت شيئاً. لم ترغب بأن تعرضني، والأمر الأكثر أهمية أنها لم تخُن ثقتي بها.

t.me/yasmeenbook

39

«شهاب مختلفٌ تماماً عندما يكون معك. يبدو أنك تفهمينه حقاً».

«ولماذا لا تستطيعين أنت أن تفهميه؟».

«إنه معقَّد للغاية، لم أستطع أن أعرف ماذا يتوجّب عليّ أن أفعل معه».

«الحل الوحيد هو الحبّ واللطف، وهذا ما لا تظهرينه له».

«ماذا تقولين! إنه كلّ ما أفكر وأقلق بشأنه طوال اليوم. لا يمكنك أن تتخيّلي كم أنا حزينة عليه، أتأكد باستمرار من أن لا أحد يتنمَّر عليه».

«يا لهُ من تعبير غريب عن الحبّ! أنتِ فقط تقلقين عليه لكنك لا تستمتعين بحضوره. أنتِ تُظهرين قلقك لكن ليس حبّك. أنا لم أرَكِ مرّة واحدة تعانقينه وتقبّلينه كما تعانقين وتقبّلين شادي».

«شادي طفلة لا يمكنني تجاهلها. لكنّي كلما أقتربُ من شهاب يهرب مني».

«أنا لم أقُل إن عليك تجاهل شادي، لكن عليك أن تُولي اهتماماً لشهاب أيضاً. اسألي نفسك لماذا يهرب».

«صدّقيني يا أمي، لقد ذهبتُ إلى الكثير من الأخصائيين وقرأت الكثير من الكتب عن هذه الحالة لكن أي شيء نفعله بلا فائدة».

t.me/yasmeenbook

«في زمننا لم نكن نقرأ بقدر ما تقرؤون الآن، لكننا عشنا بارتياح أكثر مع أولادنا. عانى أطفالنا من مشاكل أقل وترعرعوا بشكل طبيعي أكثر. إن قصص الحبّ مكتوبة في قلب الإنسان وليست شيئاً تجدينه في كتاب. وإن قراءتها لا تتطلب الكثير من الإلمام بالقراءة والكتابة».

«أنا أقلق كثيراً جداً لدرجة أني كدت أنسى أمر الحبّ».

«هذا هو. إن كلّ ما تجيدين فعله هو القلق، الشكوى من أولادك، وإلقاء اللوم عليهم. لقد تحدّثتِ عن الأمر كثيراً جداً فآل به الأمر إلى الاعتقاد أنه يعاني من خللٍ ما».

«ألا تعتقدين بوجود خلل؟».

«كلا، على الإطلاق!».

«ألا تظنين أنه معاق؟».

«بالتأكيد لا! في الحقيقة هو ذكيّ للغاية».

«أقولُ الأمر نفسه للجميع، لكن صدقاً، لم أعُد أصدّق ذلك بعد الآن. إنه يُقدم على فعل أشياء غريبة، مُسبّباً المشاكل، ومؤذياً الناس الذين لم يُسيئوا بحقّه، وحتى يفعل أموراً خطيرة. أحياناً أظنّ أنه بمقدوره أن يقتل أحداً! لو كانت له القوة لكان آذى والده الآن».

«هذا الطفل لا يفعل شيئاً دون سبب. أنت فقط لا تستطيعين أن تفهمي أسبابه. أنت تعاملينَه بصورةٍ شاذّة».

«لأنه ليس طفلاً طبيعياً!».

«كُفي عن قول هذا الهراء! أنه لا يختلف عن أي طفل آخر».

t.me/yasmeenbook

«مـاذا تقصديـن؟ الأطفـال الطبيعيـون فـي مثـل سـنّه سـيذهبون إلـى المدرسـة هـذه السَّنة، لكـن فـي حالتـه سـيتوجب عليـه الذهـاب إلـى مدرسـة خاصَّـة. لقـد ذهبـتُ إلـى مئات المـدارس ومـا مـن واحدة منهـا تقبـل بـه». وعنـد ذلـك انفجـرَت بالبـكاء.

«عليـك أن تثبتـي لهـم أنـه تمامـاً مثـل بقيـة الأولاد. عليـك أن تسـرعي وتسـجّليه».

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

40

سأَلَتني بيبي ذات مساء في هدوء غرفتنا: «ألا ترغب بالذَّهاب إلى المدرسة؟».

أجبتها بثقة: «لا، لا أحبّها!».

«لكن الذهاب إلى المدرسة تسلية».

«لا أريد الذَّهاب. سوف أتعب».

«تتعب؟ جميع الأطفال هناك في مثل عمرك. سوف تتعلّم القراءة والكتابة. ثم يمكنك أن تقرأ الكتب بمفردك. إن لم تتعلم كيف تقرأ وتكتب فسوف تكون قادراً على فعل أي شيء عندما تكبر».

استغرقتُ في التفكير عميقاً. لم يكن أي سبب من أسباب بيبي مُقنعاً بشكل كافٍ بالنسبة لي لكي أقبل ثقل الذهاب إلى المدرسة.

كان جميعُ الأطفال في مثل عمري غرباء، وقد أخافوني. ولم تكن في القراءة بمفردي أية تسلية أيضاً. كانت الأمور الوحيدة المثيرة للاهتمام في الكتب هي الصُّور التي يمكنك النظر إليها دون الحاجة لأن تكون قادراً على القراءة. وكان موضوعا أن أكبر وأن أعثر على عمل بعيدين جداً. كانت الصُّورة الوحيدة التي امتلكتها للكِبر هي وجه أبي العابس لدى عودته من العمل. كان يتذمر من أُمّي ويحرمنا من الركض واللعب. لا! لم أمتلك أية رغبة في أن أكبر لأكون مثله.

قلتُ: «لا... أريد... أن أفعل أي شيء عندما أكبر».

t.me/yasmeenbook

«أوه لا! ما هذا القول! أنت رجل. عندما تكبر سوف تتزوج. إن لم يكن لديك عمل ماذا ستفعل لتدعم زوجتك وأطفالك؟».

يا للأشياء التي قالتها بيبي! زوجة وأطفال! لن أتزوج مطلقاً. لا أحب الفتيات. إنهنّ مدللات مثل شادي. كان المستقبل الذي تحدّثت عنه بيبي يفوق التصور بالنسبة لي ولم يحفّزني على الإطلاق.

«لا! لن أذهب. سوف أتعب».

«ماذا تعني بقولك ستتعب؟ يتعب الناس طوال الوقت. ثم ينامون في الليل، فلا يشعرون بالتعب في الصَّباح. لا يمكنك الامتناع عن القيام بالأمور فقط لأنك ستشعر بالتعب».

«بلى أستطيع».

قال عاصي: «ألا تلاحظ بيبي أن مزاج والد آرش يكون في عطل نهاية الأسبوع أفضل، ويكون آرش بخير وليس متعباً؟ كلما عاد من المدرسة يكون التعب على أشده، ومع ذلك عليه تأدية الكثير من الفروض المنزلية! إنه كذلك يبكي أحياناً من شدّة الإرهاق».

«عزيزي، المدرسة ليست قاسية أو متعِبة إلى هذه الدَّرجة، لا سيَّما في السنة الأولى. سوف تلعب وتمرح معظم الوقت، مع القليل جداً من الفروض المنزلية». كانت بيبي تتحدَّث عن المدرسة يومياً. لم أكن على يقين من سبب إصرارها الشَّديد على ذهابي إلى المدرسة. لكن الأمور التي تحدّثت عنها جعلت المدرسة مألوفة ومحتملة أكثر بالنسبة لي بالتدريج.

t.me/yasmeenbook

41

جاءت أُمّي إلى البيت غاضبة ومحبطة. رمت وشاحها في زاوية وقالت وعيناها تفيضان بالدموع: «انظري، قلت لك، لن تقبل به أيّة مدرسة من المدارس! قالوا إن عليه أن يدخل مدرسة خاصَّة».

«لماذا؟ ما الذي قلتِه عنه؟».

«لا شيء، فقط قلتُ إنه لا يقوى على الكلام».

«أين تقع هذه المدرسة؟ سوف أذهب بنفسي. ألبِسي شهاب. سوف آخذه معي».

«إلى أين، أمي؟ أنت لم تذهبي قط لتسجلينا في مدرسة، تريدين الآن التحدث إلى مجموعة من الغرباء من أجله؟ ماذا ستقولين بأية حال؟ لا يمكنك أن تكذبي عليهم».

«هذا ليس من شأنك. لن أقول ولا كذبة واحدة».

ألبستني أُمّي بشيء من التشكك. قالت: «أنا قادمة أيضاً».

«كلا. ينبغي عليَّ الذهاب بمفردي. سوف تدمّرين كلّ شيء إذا أتيتِ معنا».

أمسكَت يدي وغادرنا المنزل. لم أستطع أن أفهم بالضَّبط ماذا يجري. سألت بيبي بقلق: «ما المشكلة؟».

«لنذهب إلى الحديقة أولاً وسوف أُخبرك. أريد أن نضع خطّة لنسخر منهم جميعاً. لنصفي الحساب معهم فلا يطلقون عليك النعوت ثانية على الإطلاق».

«نسخر ممن؟».

t.me/yasmeenbook

«والدك، أمك، جدتك، عمك، وعمتك والجميع».

«لكن كيف؟».

«دعنا نجلس هناك، وسوف أخبرك».

جلسنا على مقعد في حديقة صغيرة بالقرب من منزلنا. أخذَت بيبي نفساً عميقاً وقالت: «اسمع يا شهاب، أنت أذكى ولد أعرفه».

«أنا؟ حقاً؟».

«نعم، أنت كذلك. أنت ذكي للغاية، لقد كنت قادراً على أن تسخر منهم جميعاً».

«أسخر منهم؟».

«نعم! كان بوسعك أن تتكلّم طوال هذه السَّنوات لكنك لم تفعل لأنك كنت غاضباً منهم. اعتقدوا أنك أبكم وعاملوكِ كما لو أنك طفلٌ معاق. بينما أنت لم تسمح لهم بمعرفة الحقيقة قط. هكذا سخرتَ منهم».

«سخرتُ منهم؟».

«نعم، حسناً فعلت! أنت ذكي. الأذكياء فقط يمكنهم فعل أشياء من هذا القبيل».

«لكني لا أستطيع الكلام».

«إذن كيف تتحدّث معي؟ ألا تذكر السَّنة الماضية عندما تلفّظت بالشَّتائم أمامهم؟ حينها استطعت الكلام وتستطيع الكلام الآن. أنت فقط لن تفعل لأنك خائف من أن يتمّ إدراكهم لك! لم أخبر أحداً بأنك تستطيع الكلام وسنواصل بهذه الطريقة لنسخر منهم».

t.me/yasmeenbook

بدأت أفكّر. كانت محقَّة. أمكنني الكلام لكن فقط معها. أحببت الأشياء التي قالتها. هل سخرتُ منهم حقاً؟ سألتُ مرتاباً: «كيف سنسخر منهم؟».

«لقد أخبروا الجميع أنك عاجز عن الكلام. لهذا السبب لن يقبلوا بك في المدرسة. سوف نخدعهم. سنذهب إلى المدرسة ونجيب على جميع أسئلتهم ونسجلك. سيصيبهم الذهول ولن نخبرهم كيف فعلنا ذلك».

«لكني لا أقوى على الكلام! أنا خائف! ماذا لو انعقد لساني؟».

«أنت تتحدث بشكل جيد الآن حقاً».

«لأني أتحدّث إليك. يمكنني التَّحدث إليك فقط».

«حسناً، تحدث إليَّ عندما نذهب إلى المدرسة. تظاهر بأنك تتحدّث إليَّ وتجاهل أي شخص آخر».

«ماذا لو أصابني الخرس؟».

«هذا ليس مهماً على الإطلاق. سوف تتحدّث إذا كنتَ تستطيع ذلك ولن تتحدّث إن لم تستطع. يشعر معظم الأولاد بالخجل أمام الغرباء بأية حال. هذا ليس أمراً جديداً على المدير والمدرسين هناك. لن يتكدّروا أو يتفاجؤوا».

ما هو أكثر من التحدّث في المدرسة، كنت خائفاً ممّا قد يحدث لاحقاً في البيت.

قال بابي: «ماذا لو اكتشف كلّ من أُمّي ووالد آرش الأمر؟ سوف يرغموننا على الكلام أمام الجميع. ثم سوف ينعقد لساننا ونخرس ثانية. سوف يضحك الجميع ويقولون إني غبي».

شعرت بخوف شديد وبدأتُ ألهث.

t.me/yasmeenbook

«إذن، ماذا تقول؟ هل نذهب؟ لا تقلق من أي شيء. سوف أجيب على جميع أسئلتهم. قد يسألون عن اسمك. هل أنت مستعد؟».

«لـ... لـ... لـ... لا! ماذا لو اكتشف والد.. آر... آرش الأمر؟».

كلما فكرت بوالد آرش كان تلعثمي يزدادُ سوءاً. بدأَت بيبي تفكِّر. لبِثت صامتة لبعض الوقت ثم قالت: «لماذا أنت شديد الخوف من والدك؟ ما الذي فعله لك؟ هو لم يُقرّعك قط ولم أرَه يعاقبك. ليس مهماً إذا كان قد وبّخك يوماً بأية حال، فمعظم الآباء يفعلون ذلك. طالما وبّخنا والدنا وضربنا، لكنه كان ينسى الأمر في اليوم التَّالي ولم تتغيّر محبّته لنا. اعتدنا على تقريع أولادنا ومعاقبتهم أحياناً أيضاً. كان خالك محسن طفلاً عابثاً. وقد تعرض للضرب في كثير من الأحيان. لكنه كان يعود دوماً إلى ذراعيّ ويعانقني. ما الذي فعله والدك حتى أنك لا تستطيع أن تغفر له؟».

«لكم أحببتِ خالي محسن، مع أنّك كنت تضربينه».

نظرت إليَّ بدهشة واهتمام. لا أعرف إذا ما فهمت ما قصدت قوله أو إذا ما أدركت بالسَّليقة أن عليها احترام مشاعري في تلك اللحظة. قالت بتصميم: «ممتاز. أنت محقّ. ينبغي ألا يعرف والدك أنك تقوى على الكلام. لا تقلق، لن أدعه يكتشف ذلك. عندما نعود إلى البيت سنقول إنهم أدركوا أنك فتى صالح وذكيّ وبالتالي قبلوا بك في المدرسة. سنقول إن المدير قال إنه ليس مهماً سواء كنت تتكلم أم لا، ما يهمّ فقط هو إذا كنت تسمع. تخيَّل فقط كم ستكون صدمتهم كبيرة! سوف يكونون مدعاة للسخرية! هل أنت مستعدّ للذهاب؟».

كنت متردداً، لكن السخرية منهم كانت سبباً مقنعاً للذهاب إلى المدرسة. تبعتُ بيبي بشيء من الذُّعر.

t.me/yasmeenbook

42

تخيّلتُ ألف سيناريو مروِّعاً حتى أن وصلا أخيراً إلى البيت. أسرعتُ نحوهما بقلق وقلت: «أين كُنتما في هذا الحرّ وساقكِ تؤلمك كلّ هذا الألم؟! يجب أن ترتاحي. لماذا لا تعتنين بنفسك بشكل أفضل؟».

«ذهبنا إلى المدرسة. أراد شهاب أن يرى مدرسته الجديدة».

غمزَت شهاب.

«أمي! لا تقولي مثل هذه الأمور أمام هذا الطفل. أخبرتك، لن يقبلوا به هذه السَّنة. سوف يخضع لعلاج للنطق هذه السَّنة، وربما قد يسجّلونه في المدرسة العام القادم».

«يا لك من كائن غريب! أنتِ من يجب عليه أن يعالج نفسه. إنه لن يذهب إلى أي طبيب اختصاصي، ولقد سجّلتُه في المدرسة بالفعل. هذه هي الأمور التي ينبغي عليك فعلها والأشياء التي عليك الحصول عليها من أجله». ناولتني قصاصة ورقية. نظرتُ إليها مندهشة.

«أمي، ماذا فعلت؟ هل كذبت؟ سوف يعرفون في نهاية المطاف أنه يعاني من مشكلة. سوف يطردونه من المدرسة!».

«مشكلة هذا الطفل الوحيد هي أنتِ».

«ماذا يُفترض بهذا أن يعني؟».

«تماماً ما قلتُ! أنت مشكلة هذا الطفل. رأوا شهاب، فحصُوه، وقالوا إنه ممتاز، أفضل من ممتاز، ولقد قبلوه في المدرسة. هل

t.me/yasmeenbook

لديك مشكلة في ذلك؟ خذني إلى الطابق الأعلى يا شهاب، أشعرُ بتعب هنا».

سمعتُ أصواتاً داخل الغرفة. فتحتُ الباب ببطء. اهتز كأس عصير الليمون في يدي. كان شهاب يتقافز صعوداً ونزولاً وقال: «سأكتب! سأكتب!»، ضحكَت بيبي بصوت مرتفع. صمت كلاهما حالما وقع بصرهما عليّ. وضعتُ كأس العصير على الطاولة. اغرورقت عيناي بالدموع. فتحت ذراعي وتوجَّهت نحو شهاب، لكنه انزلق من تحتهما، وخرج من الغرفة، وركض إلى الطابق الأرضي. جلستُ على السرير. «لماذا لم تخبريني بهذا الأمر؟ هل كنتُ غريبة؟ لقد كنتُ طوال هذه السنين أصلّي من أجله ليتكلم!»، وبدأتُ أبكي.

«يا عزيزتي، يجب أن تفهمي، لم يكُن بوسعي أن أقول شيئاً. لقد وعدتُه. لو أفشيتُ سرّه لما كان ليثق بأي شخص مرّة أخرى».

«لماذا هو على هذه الحال؟ لماذا عظَّم من شأنَ الأمر؟ يتكلّم جميع الأطفال الآخرين بسهولة شديدة ولا يثيرون حول الأمر جلبة كبيرة».

«لقد أثار جلبة كبيرة لأنكم فعلتم».

«بالطبع. قالوا في البداية إنه عاجز عن الكلام لأن لديه مربّية تتحدث التركية، وهذا ما دعا إلى تشويشه. قالوا لاحقاً إنه بسبب شادي، وإنه بحاجة إلى مزيد من الوقت الآن بسبب وجود طفلة حديثة الولادة في المنزل. لكن عندما لم يستطع أن يتكلم كنا مقتنعين أنه لا بدّ يعاني من مشكلة عقلية من نوع ما».

«لكنه لم يعانِ من أيَّة مشاكل. حسبكم أنكم أثرتم ضجة كبيرة

t.me/yasmeenbook

من الأمر مقترفين كلّ أنواع الأمور الغريبة، لذا صار خائفاً ولم يجرؤ على الكلام».

«كان أيضاً خائفاً مني؟ لطالما كنت المدافعة عنه وهو يعلم كم أحبّه. لماذا لم يتحدث معي؟».

«لا! هو لا يعرف مدى حبّك له. كيف له أن يعرف؟ يجب أن تعبّري عن حبك. هل تظنّين أن إراقة بعض الدموع وإبداء الحزن هو والتعبير عن الحب سواء؟ كلما أردتِ إظهار العاطفة حسبُك أنك تتنهدين وتقولين: (حزني عليك سوف يقتلني). بيتُك مثير للاكتئاب! ماذا دهاك، لماذا أنت متجهّمة على الدوام؟ أنت طفلتي ولقد اعتدتِ دوماً على الغناء والرقص متى يحلو لك ذلك. لطالما كان الجميع في بيتنا يتحدّثون كثيراً إلى درجة أنه لم يكن بمقدور أحد على الإطلاق أن يعرف من كان يتكلم وماذا يقول».

«أمي، مشكلتي هي أني ذهبت من ذلك البيت الضاجّ والمفعم بالحيوية إلى بيتٍ الجميع فيه بالغ الجدية وهادئ. إن لم أُبادر بالكّلام، فبوسع ناصر البقاء صامتاً لأسبوع كامل دون أن ينبس بكلمة. لقد فقدتُ كلّ استمتاعي بالحياة».

«لماذا أنت جبانة إلى هذه الدَّرجة؟ كنت أنتظر منك المزيد. عليك أن تتكلمي حتى إن لم يفعل. احمليه على أن يردّ عليك».

«إلى أي حدّ أتكلّم لوحدي؟ كما لو أن لا شيء ممّا أقوله يثير اهتمامه. لقد أصبحتُ سلبية أيضاً. إلى متى يمكنك المضي في محادثة مع تمثال؟ لن أصغِّر نفسي أكثر من هذا».

«تُصغّرين نفسك؟ ما هذا القول. هل تذلّين نفسك عندما تتحدثين إلى شخص قريب منك إلى هذه الدرجة؟».

t.me/yasmeenbook

«ليس الأمر كما لو أني أستطيع إرغامه على الكلام. بالإضافة إلى أنه يغضب عندما أنتقده بشكل متواصل، لذا استسلمت. كلما قلّلنا احتكاكنا ببعضنا بتلك الطريقة الخاطئة كان أفضل. أنا أحاول باستمرار أن أحافظ على الأمور هادئة وساكنة فلا يكون لها أثر سلبي على الأولاد».

«حتى لو تجادلتِ معه فهذا أفضل من الصَّمت الذي يسيطر على منزلك الآن. يبدو كما لو أنكما على علاقة سيئة، أو أنكما لم تعودا تتبادلان الحبّ على الإطلاق. أخبريني هل تحبّين زوجك؟ أنتما الاثنان تزوجتما لأنكما أحببتما بعضكما. حتى لو أننا لم نهتم كثيراً بأمه المغرورة وحادّة الطباع وفضَّلنا أن تكوني قرينا، وافقنا والدك وأنا لأننا اعتقدنا أنك تحبينه. إذن ما الذي حدث لكما أنتما الاثنان؟».

«لا أعرف! لم تترك ضغوط الحياة مكاناً للحبّ».

«هراء! كلما كانت الحياة أقسى كلما ازدادت حاجة المرء إلى رفيق مؤتمن».

«أنت لا تفهمين يا أمي. أحياناً يكون التزام الصمت أفضل من الكلام. أحياناً نقول أشياء لبعضنا البعض تكون مؤذية، تجعلنا نتجادل. أحياناً نقول أشياء ليس علينا قولها».

«هل كان الحال دوماً على هذا الشَّكل أو أن هذا الأمر جديد؟».

«لأصدِقك القول أظن أنه بدأ مع شهاب. يتصرّف ناصر كما لو أنه أُهين، ويشعر كما لو أنه قصور ويُحمّلني المسؤولية نوعاً ما. هو لم يقُل شيئاً لكن هذا ما أظنه».

t.me/yasmeenbook

«ماذا تقولين؟ أعرف أن الرجال معتدّون بأنفسهم ولا يمكنهم تقبُّل أمر أن أحداً من ذريتهم فيه خلل ما، لكني لم أتخيل على الإطلاق أن رجلاً متعلماً يفكّر بتلك الطريقة!».

«حسناً، هو يفعل، لكنه لا يأتي ويقول ذلك. هل تتذكرين (كل عبّاس)؟ هل تتذكّرين عندما وُلد ابنه بستة أصابع، فأثار ضجة، مُنكراً أن يكون هذا الطفل طفله، ثم طلَّق زوجته في الحال؟ إنه الأمر نفسه».

«وماذا عنك؟ أنت لست مثل زوجة (كل عبّاس)، تنتظرينه أن يطلقك!».

«أوه أمي، أنا مرهقة للغاية ومكتئبة حتى أني فقدت كلّ ثقتي بنفسي. لقد تمكّنت في السَّابق من مجابهة الجميع، لكن الآن لم يعد بوسعي ذلك. كما لو أني استسلمتُ لأن أكون المُلامة. لا يقول ناصر شيئاً، لا أريدك أن تظني أنه يتّهمني بشيء. إنه يعلم أنه ليس خطئي من وجهة نظر علمية وطبية. لكنه ليس فخوراً بالطفل ولا يستطيع حمل نفسه على الاعتراف بأنه ابنه».

«ولهذا السَّبب يسميه الطفل (والد آرش)».

«هل أنت جادة؟ أهو يدعوه بـ (والد آرش)؟».

«شهاب أذكى منك ومني. هو يسجل كلّ شيء مثل كاميرا الفيديو ويخزنه في دماغه. لا أظن أنه سيغفر يوماً ما معاملة والده له».

«أيقولُ (والد آرش) حقاً؟».

«نعم!».

«أيقولُها؟ أيعبّر عن مشاعره لك؟ يقول كلّ هذه الأمور؟».

t.me/yasmeenbook

«لقد سمعتُه هو يتحدث، بل ويتحدّث جيداً».

«وكيف تعلم بهذه السرعة؟».

«لم يتعلم سريعاً جداً. لقد كان قادراً على الكلام منذ عدة سنوات. هو يتحدّث في رأسه، مع صديقيه المتخيَّلين، مع أناس يمكنه الوثوق بهم».

«لماذا إذن لا يتحدّث معنا؟».

«يجب أن تطرحوا على أنفسكم هذا السُّؤال. إنه خائف منكما. وعليكما أن تتصرفا بناء على ذلك إذا كنتما لا تريدان أن يُمسك عن الكلام ثانية. لا يمكنك أن تُعلني ذلك على الملأ. لا يمكنك أن تتباهي بالأمر. لا يمكنك أن تحوّليه إلى مهرج مُرغِمة إياه على الأداء أمام الجمهور. الأمور التي فعلتِها أوّل مرّة روَّعتني في الحقيقة. حتى أنا ارتبكت وانعقد لساني أمام عائلة زوجك السَّمجة، الذين لا يملكون ولو قدراً ضئيلاً من اللطف في ما بينهم».

«هل أخبرك هذه الأمور بنفسه؟».

«نعم، بعضاً منها. وقد خمَّنتُ البقية».

t.me/yasmeenbook

نزعت بيبي شادورها[16] في زاوية الغرفة وضحكت: «هل رأيتَ كيف كانت مندهشة؟ لم تستطع تصديق الأمر!».

«كانت مستاءة!».

«لا، عزيزي، كانت متفاجئة فقط. عندما تصدِّق الأمر أخيراً سوف تكون سعيدة. وأنت قلت اسمك بشكل جيد جداً في المدرسة اليوم».

«حقا؟ هل سمعوني جميعاً؟».

«بالطبع، يا حبيبي!».

«هل سيتوجّب عليَّ الكلام مع الجميع في المدرسة؟ ماذا لو أصابني الخرس؟ سيضحك الجميع».

«لن يصيبك الخرس. لن يحدث بعد اليوم، صحيح؟ جميع الأولاد الآخرين مثلك أيضاً. لا يهمُ لو أنهم ضحكوا، يمكنك أن تضحك معهم. ستتعلم كيف تقرأ وتكتب ثم يمكنك أن تدوّن أي شيء تريد قوله. يمكنك أن تتكلم عندما تريد وتكتب ما تُريد قوله عندما لا تشعر برغبة بالكلام».

أكتب، نعم، قد أكتب الأشياء بدلاً من قولها. كانت محقَّة! يا للجمال! اكتشفت فجأة بديلاً عن الكلام الذي كان لا يزال فعلُه صعباً جداً عليّ. يا له من اكتشاف مدهش! هذا بالتأكيد كان سبباً مُقنعاً للذهاب إلى المدرسة. صرختُ: «أنت مُحقَّة يا بيبي. سوف أكتب! سوف أكتب!».

(16) الشادور هو عباءة الرأس الإيرانية التقليديّة.

t.me/yasmeenbook

دخلت أُمّي تماماً في تلك اللحظة وأدركَت قدرتي على الكلام.

ظلَّت بيبي معنا في طهران لمدة أسبوعين بعد افتتاح المدرسة. وعندما باتت واثقة من أني لم أعانِ من أية مشاكل وأن بوسعي الذَّهاب إلى المدرسة مثل باقي الأطفال، حزمَت حقائبها وذهبت إلى منزلها. لم أتمكّن من منع نفسي من التشبّث بها عندما كنا نودِّع بعضنا. كانت المخلوق الوحيد الذي فهمني وأحبّني تماماً كما أنا. في طريق العودة من المحطّة لم أستطع الكفّ عن البكاء. قال والدي بصوت منخفض: «لم أُدرك أن هذا الطفل يمكن أن يكون عاطفياً للغاية ومرتبطاً بشخص آخر».

أشارت إليّ أُمّي: «هس!». فهما منذ أن أدركا قدرتي على الكلام لم يعودا يقولان شيئاً في حضوري.

بات الجميع يعرف أن بوسعي الكلام الآن، لكن بحسب قواعد بيبي التي اتّبعَتها أُمّي بجدّ، لم يهوّلوا من الأمر وتصرّفوا بحذرٍ في حضوري. لم يطرح عليَّ أحدٌ أي سؤال، لكنهم حاولوا بشكل غير مباشر أن يسمعوا صوتي. ضحكنا عاصي وبابي وأنا كثيراً على هذا.

قال عاصي: «إنهم يظنّون أننا لا نعرف ماذا ينتظرون. إنهم يشيحون ببصرهم متظاهرين بأنهم لا يُولوننا أي اهتمام، لكنهم كلهم كانوا آذاناً صاغية!».

قال بابي: «ما إن نفتح فمنا حتى يصمت الجميع، حتى أنهم يتوقّفون عن التَّنفس!».

لكن لم يعُد الأمر مهماً بعد الآن، فقد فقدَت مسألة النطق أهمّيتها، ولم أعُد خائفاً. ولا أن أُولِي اهتماماً إن سمعني الآخرون

t.me/yasmeenbook

أتكلّم. قلَّ تلعثمي شيئاً فشيئاً. كان التَّحدث مع أُمّي وشادي في البيت هو الأسهل. سمع الآخرون صوتي في نهاية المطاف واقتنعوا أن بوسعي الكلام، ولم يتمَّ التطرق إلى مسألة النطق في نقاشات العائلة. كان أبي الشَّخص الوحيد الذي لم يستطع قط أن يتحدث إليَّ ولم يسمع صوتي. كنت حريصاً أشد الحرص على أن أحافظ على المسافة التي تفصلني عنه. وكان مرورنا ببعضنا البعض مثل زوج من الغرباء.

حتى أني تحدثت مع جدَّتي وعمِّي، لكني كنت غير راغب بالإجابة على أسئلته ولو بـ «نعم»، أو «لا»، البسيطتين. ما كان ليتقدم ولو خطوة واحدة، ولم أكن راغباً بالاستسلام، ولم تكن لدي النيّة في جعله سعيداً. وعلى الرغم من مخاوفي الأولية بدأت أستمتع بالمدرسة. كان لدي حافز قويّ للذهاب. أردت أن أتعلَّم الكتابة بأسرع ما يمكن في حال خسرت القدرة على الكلام ثانية. كان كما لو أن الكلام لا يزال كابوساً في مؤخرة عقلي. كنت قد وعدتُ أيضاً بكتابة الرسائل لبيبي. شعرت بأن هذه كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها إبداء الامتنان لها، أن أفعل شيئاً لأُثيبها على كلّ العاطفة واللطف اللذين أظهرتها لي.

لم تكن الكلمات بالنسبة لي مجرّد سلاسل من الأحرف. فقد مثَّلت كلّ واحدة منها عالمها الخاص. خلال سنوات البكم، كنت قد كافحت مع كلّ كلمة. كنت أعرف وزن ولون كلّ واحدة منها وقد شعرت بحجمها أيضاً. كيف يمكنني التعبير عن جميع خصائص الكلمة بمجرد كتابتها؟ لهذا السبب كانت الكتابة بلون واحد صعبة بالنسبة لي. كنت بحاجة إلى جميع أقلام التلوين لكي

t.me/yasmeenbook

أؤدي فروضي المنزلية. كان يجب عليَّ أن أكتب «دم»، بقلم أحمر، وكان اللون الأسود مناسباً أكثر لكلمة «موت». استعملت الأخضر من أجل «الحبّ»، والرمادي «للحزن». كان لون كلمة «والدي»، في نظري اللون البُنّي غير المستحب دوماً وكلمة «أمي»، كان لونها أصفر كامداً مثل شمس حجبت إشراقها وحيويتها سحبٌ داكنة.

لوقت طويل كان التحدّي الأكبر بالنسبة لي استعمال الأبيض لـ «الحبّ»، وكان فعل ذلك على ورقة بيضاء صعباً. بعد بضع محاولات اكتشفت حلّاً. وجدت أني لو رسمتُ محيط الكلمة بالأسود وتركتها بيضاء من الداخل فقد تكون مقروءة. كتبت بعناية كلّ كلمة بخطّ جميل مستعملاً الألوان الصحيحة. اعتبَرت معلمتي -متبلّدة الشُّعور- فروضي المنزلية الملونة إشارة على الأذى وسمّتها بسخرية رسومات. أخيراً جعلتني، بالشكوى لأمي، استعمل فقط قلم رصاص أسود في امتحانات الإملاء، لأني لم أستطع مجاراة بقية طلاب الصَّف.

كان أمراً واضحاً لي أن للأرقام ألوان مختلفة، وتصورت أن الجميع يرونها بهذا الشكل. كيف يمكن للناس ألا يروا الخضرة الجميلة للرقم ثمانية، أو أن السبعة باللون الفستقي؟ لكني كنت على الدوام متشكّكاً بعض الشيء حول زرقة العدد ثلاثة، لأنه تغير من مرّة إلى أخرى. ذات يوم عندما كنت أؤدي فروضي المدرسية على طاولة المطبخ بينما كانت أُمّي تحضر الطعام سألتُها: «هل لون الثلاثة كُحلي أم أزرق فاتح؟».

التفتت أُمّي وقالت: «ماذا؟».

t.me/yasmeenbook

«سـألتُ إذا كان العـدد ثلاثـة كُحليـاً أم أزرق فاتحـاً؟ هـو غامـق أحيانـاً، لا سـيّما فـي الرقـم ثلاثيـن».

رأيـت التشـوش فـي عينّـي أمـي، قالـت بعـد حيـن: «اللهـم خُـذ روحـي وخلّصنـي! مـا الـذي تتحـدّث عنـه؟ كفّ عـن هـذا الهـراء فـي الحـال! لقـد بـدأ النّـاس للتـوّ يدركـون أنـك طبيعـي، لكنهـم لـو سـمعوك تتحـدث بهـذا الشّـكل فسـوف يظنـون أنـك فقـدت صوابـك مـرّة ثانيـة».

«لكن ماذا قلت؟».

«إن الثلاثـة أزرق! الأرقـام لا تملـك ألوانـاً! لا تـردّد هـذا ثانيـة، هـل فهمـت؟».

نظـرت إليهـا بذهـول. قـال بابـي كمـا لـو أنـه اكتشـف شـيئاً مهمـاً: «إنهـا لا تـرى ألـوان الأرقـام؟».

قال عاصي: «ربما لا أحد يفعل».

«إذن لماذا نستطيع رؤيتها؟».

«لأننا حمقى ومجانين».

«أنـا سـعيد لأننـا كذلـك، وإلا لكنـا امتلكنـا عالمـاً بـلا ألـوان مثلهـم تماماً!».

ومنـذ ذلـك الحيـن وأنـا أسـتعمل فقـط قلـم رصـاص أسـود لكتابـة الأرقـام، مـع أنهـا كانـت لا تـزال ملونـة فـي نظـري.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

شعرتُ بأني أرحتُ نفسي من كلّ الاشكالات عندما تلقّى شهاب شهادته الدراسية. عرضتُها على جدّته وعمّه وبقية العالم. كنت أقول كلما أردتُ أن أثأر منهم: «أظن أنه حتى يفوق آرش ذكاءً!».

شعرتُ بعد انتصاره بأنيّ أقوى، وشاع في بيتنا جوّ أكثر بهجة. بدأ اعتداد ناصر الجريح بنفسه يشفى أيضاً مع حصول شهاب على درجات كاملة. لكن شهاب ظلّ لا يتفوّه بكلمة واحدة لوالده. لم أستطع أن أعرف ما إذا كان ناصر غاضباً أو حزيناً جرّاء هذا. بأية حال لم يكن يسمح له تفاخره أن يخطو الخطوة الأولى في إصلاح علاقتهما. كان كما لو أنه يتحرّج من هذا الطفل ذي السَّنوات السَّبع. كانت الطريقة الوحيدة للحفاظ على غروره هي معاملة شهاب بفتور منتظراً منه أن يخطو الخطوة الأولى. اشترى له درّاجة أكبر مكافأةً على النتيجة النهائية. كان شهاب مسروراً للغاية عندما رأى الدراجة، لكنه حاول أن لا يُظهر هذا أمام والده. انتهزتُ فرصة الوضع وقلت: «شهاب ألا ترغب بشكر والدك؟ انظر كم يحبّك؟ لقد اشترى لك دراجة أخرى!».

أجابَ بهدوء شديد: «لم يشترِها من أجلي. لقد اشتراها لشهادتي الدراسية».

«ماذا يعني هذا؟ إنها شهادتك أنت. لقد حصلت على الدرجات الجيدة فاشترى لك جائزة».

«لقد اشتراها لعلاماتي».

t.me/yasmeenbook

«لا أفهم ماذا تقول. عليك أن تشكره. لا يمكنك ركوب الدراجة قبل أن تشكره».

كنت واثقة من أن الهديَّة التي اشتراها ناصر قد أثَّرت على شهاب وجعلته أكثر مرونة. لم يكن من السَّهل عليه الاستخفاف بالدَّراجة. لقد قبل أن من واجبه أن يشكر ناصر مع أنه تظاهر بأني كنت أستدرجه إلى ذلك. عانق والده ووقف أمام ناصر وقال بصوت منخفض قدر مستطاعه: «شكراً!».

دفعتُه نحو ناصر وقلت: «لا، مجرد شكراً لن تفي بالغرض، إنّها جافّة. عليك أن تقبّله أيضاً».

نظر إلى ناصر بطرف عينه وتقدم ببطء خطوة واحدة. لم يتزحزح ناصر. جلس هناك بارداً وغير مبالٍ، يتظاهر بأنه يقرأ الصَّحيفة. كما لو أن إبداء الشكر له وتقبيله واجب شهاب البديهي، ولا يُحدث فرقاً بالنسبة لناصر. اهتزّت يد شهاب في يدي وارتعشَت شفتاه. تبخّرت المشاعر الإيجابية التي كان قد شعر بها عندما رأى الدراجة مع عدم اكتراث والده وجلسته المظفَّرة. سحب شهاب يده محاولاً أن يهرب. أمسكت به وقربت وجهه من خدِّ ناصر. أشاح بوجهه بعيداً وكافح وانزلق من بين ذراعيّ وركض إلى الطابق الأعلى.

رمقني ناصر بنظرة مستنكرة وقال: «هل رأيتِ! أهكذا يشكرني ابنك! إنه صعب المراس للغاية». أجبت بحقد: «مثلك تماماً! عنيد وانتقامي!».

t.me/yasmeenbook

انتبهَت معلمتي في الصَّف الثَّاني إلى خطّي اليدوي في مرحلة مبكرة. كانت تُثني عليَّ دوماً، وكانت تسأل أحياناً متشكّكة: «هل كتبتَ هذا بخطّ يدك؟».

كنت أومئ برأسي مزهواً، ودون أن أنبس بكلمة أُعيد ما كتبتُه أمامها. كانت تشجّعني فأُحاول أن أكتب بشكل أفضل أكثر فأكثر. قالت ذات يوم: «شهاب عزيزي، اطلب من والدك المجيء إلى المدرسة غداً. يجب أن أسأله عن أمرٍ ما». نظرت إليها منزعجاً. ماذا تريد من والدي؟ قلت: «هو لا يريد القدوم!».

«ماذا تقصد؟ يجب أن يأتي. ينبغي عليَّ التحدث إليه عن أدائك الجيّد في المدرسة».

«ستأتي أُمّي بدلاً عنه».

«لكني أفضِّل التحدّث إلى والدك. يجب أن أطلب منه الإذن بخصوص شيء ما».

«كلا».

نظرت المعلّمة إليَّ باستغراب وقالت: «لِم لا؟ ألا تريد أن يأتي والدك ويرى عملك ويكون مسروراً؟».

«كلا!».

«لكن لماذا؟ إنه والد جيد. هو يقلُّك إلى المدرسة كلّ صباح».

«فقط لا أريدُ ذلك».

«كيف يكون ذلك؟ أليس هو والدك؟».

«كلا!».

t.me/yasmeenbook

«ماذا؟! إذن من كان ذلك الذي قال لي (مرحباً) هذا الصَّباح؟».

«والد آرش».

«آرش؟ المُرشد الأوّل؟».

«نعم!».

لم أشعر برغبة بالتَّحدث أكثر. أخذتُ البسكويت وخرجتُ. كانت المعلمة لا تزال تنظر نحوي باستغراب عندما خرجتُ من الباب.

كنت كالعادة جالساً في باحة اللعب أنظر إلى الأطفال الآخرين يلعبون. طالما أردت الانضمام إليهم، لكن شيئاً ما في داخلي كان يمنعني. كنت لا أزال أشعر كما لو أني مختلف عنهم. لم أستطع نسيان فكرة أن جميع الأولاد الآخرين أذكياء وأني أحمق. كنت أتناول البسكويت عندما لاحظتُ معلمة الصَّف الثَّالث مع معلمة العام الماضي ونائبة المدير السَّيدة رسولي، ينظرن إليَّ من شرفة تطلّ على الباحات. كُنّ يُشرن إليّ باستمرار ويتحادثن. كان عددٌ من المدرّسين ينظرون أيضاً عبر نافذة المكتب. شعرت بالخوف بعض الشيء وحاولت الاختفاء بين الأولاد الآخرين.

t.me/yasmeenbook

بـدأت أُمّـي تذهـب إلـى العمـل مـن جديـد. كنـا جميعنـا نركـب سيارة والـدي فـي الصَّبـاح. نوصـل شـادي أولاً إلـى الروضـة. وكانـت أُمّـي تترجّـل عنـد الموقـف وتركـب الحافلـة إلـى العمـل. ثـم كنَّـا نوصـل آرش، وأنـا أكـون آخـر مـن يتـمّ توصيلـه. ذات يـوم، لـم تترجـل أُمّـي عنـد موقـف الحافلـة. اعتقـدتُ أنهـا لا بـدّ ذاهبـة إلـى مـكان آخـر ولـم أُولِ للأمـر اهتمامـاً. كان والـدي مسـتاء مـن شـيء مـا أيضـاً، لكـن هـذا لـم يكـن أمـراً جديـداً. بعـد خـروج آرش نظـر أخيـراً إلـى أُمّـي وقـال: «اسـأليه عمـا فعـل. لمـاذا هـم مصـرّون للغايـة علـى ذهابنـا إلـى مدرسـته؟ هنالـك قـدرٌ كبيـر مـن الأمـور التـي علـيَّ القيـام بهـا، كمـا وتوجـب علـيَّ إلغـاء اجتمـاع اليـوم!».

«اسـكت! لسـتَ بحاجـة إلـى إثـارة كلّ هـذه الضَّجـة. لـن يحـدث شـيء إذا تـأخـرتَ لنصـف سـاعة».

«ألم يكن بوسعكِ الذَّهاب بمفردكِ؟».

«يبـدو أنهـم بحاجـة إلـى اللقـاء بـك. قلـتُ لهـم إنـك مشـغول وإن بوسـعي القـدوم بـدلاً عنـك، لكـن المديـر أصـر علـى أنـه يريـد لقاءنـا نحـن الاثنـان أو أنـت بمفـردك».

أدركت أخيراً أنهما ذاهبان إلى مدرستي وانتابني قلقٌ شديد.

وقفنـا نحـن الثَّلاثـة فـي مكتـب المديـر مثـل تلاميـذ مذنبيـن. شـعرت أن أُمّـي ووالـد آرش كانـا خائفَيـن بقـدر مـا كنـت خائفـاً. كان الجـرس قـد قُـرع والأطفـال ينسـلّون إلـى الصَّفـوف فـي أرتـال. كان المدرسـون قـد تجمعـوا فـي المكتـب. قـال المديـر بابتسـامة لطيفـة:

t.me/yasmeenbook

«أيها السَّيد والسَّيدة مختاري، اجلسا من فضلكما». صمت جميع المدرسين، محدّقين بوالدي. وقفتُ قرب أُمّي وتشبّثتُ بها. حيّت معلمة الصَّف الخامس والدي وسألت عن آرش.

هدأ والدي حالما سمع اسم آرش. برقت عيناه وقال: «إنه على خير ما يرام، طالبٌ متفوق كالعادة».

«سوف يكون رجلاً ناجحاً عندما يكبر».

توجَّه المدرسون إلى الصُّفوف واحداً فواحداً. صار المكتب الآن أهدأ. تظاهرَت السَّيدة رسولي نائبة المدير بأنها تنظر في بعض الملفات في الزاوية، لكن كان واضحاً أنها كانت تولي اهتماماً أكثر بنا. حاول المدير أن يبدو ودوداً وقال: «يا سيد مختاري سمعتُ أنك كنت عضواً في رابطة الآباء والمعلمين قبل سنتين. للأسف لم أكن في هذه المدرسة في ذلك الحين، لذا لم يحالفني الحظّ في أن أتعرف إليك. لكن السَّيد عطائي المساعد الإداري، والسَّيدة صداقتي معلمة الصَّف الخامس أشارا إلى كلّ ما فعلتَه من أجل المدرسة ويقظتك نحو تعليم ابنك. لا عجب أنه كان دوماً الأول على صفِّه».

شعرتُ بأن أبي صار أطول قامة. قال بتفاخر: «السَّيد عطائي والسَّيدة صداقتي لطيفان للغاية. آرش صبيّ حاد الذَّكاء. ربما هناك عدد قليل من الأولاد مثله. هو متفوق في صفه في أيضاً. يظنّ الجميع أن عليه أن يُنقل إلى مدرسة خاصة بالطلاب الموهوبين. ما رأيك في ذلك؟».

«حسناً لا أتفق مع مدارس الموهوبين إلى حدٍّ كبير لكن هذه مسألة مختلفة كلياً. أردت أن أتحدث معك عن شهاب اليوم».

t.me/yasmeenbook

تجهَّم والدي مرّة أخرى وقال: «ما المشكلة هذه المرة؟ هل رمى بباقة أزهارٍ في الماء»[17].

«لكن هل اعتادَ على إثارة المتاعب غالباً؟».

اختلستُ النظر من خلف الكرسي. لاحظني المدير وقال: «شهاب اذهب إلى الصَّف من فضلك».

غادرتُ المكتب قلِقاً ومستاءً.

قال عاصي: «أتمنى لو أننا اختفينا خلف الكرسي حتى النهاية، فما كان بوسعه أن يشاهدنا».

---

(17) «دسته كل به آب دادن»، مثل فارسي شعبي يُضرب في من يتسبب عن غير قصد بأذى الآخرين.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

هـوى قلبـي حالمـا عبّـر المديـر عـن رغبتـه بالتَّحـدث إلينـا عـن شهاب. وعندمـا بـدأ مـع ناصـر مناقشـة مـا إذا كان ابنـي قـد تسـبب بأيـة مشـكلة، قاطعتهمـا وقلـتُ: «لكنـي علـى اتصـال مـع مدرّسـيه طـوال الوقـت! يقولـون إنـه صبـي جيّـد ولـم يشـتكِ أحـدٌ منـه قـط».

«نعـم إنـه صبـي ممتـاز لكنـه خجـول بعض الشَّـيء. وبالـكاد يتفاعل مـع الأطفـال الآخرين».

«نعـم، أعـرف. فطالمـا كان كذلـك. وفـي الحقيقـة فإنـه قـد تطـوّر كثيـراً».

«حقـاً؟ بالطبع خجله مفهوم بالنَّظر إلى ظرفه في البيت».

سـأل ناصـر بحـزن: «أي ظـرف؟ لا ينقصـه شـيء فـي البيـت. لقـد أمضينـا حياتنـا نعتنـي بـه. مـا الـذي يجـب علينـا فعلـه أكثـر؟ هـل تعـرف كـم عـدد الأطبـاء الذيـن راجعناهـم بسـبب عجـزه عـن النطـق؟».

«أنـا لا أتحـدث عـن الرغـد المـادي. مـا قصـدت قولـه يتعلـق بكونـك انسـانيّ ومحـبّ».

قـال ناصـر: «هـل تقصـد القـول إننـا لـم نعاملـه بإنسـانية؟ وإننـا لـم نعتـنِ بـه بشـكل كافٍ؟ لقـد دللتـه أمـه كثيـراً، فـلا أحـد فـي العائلـة بمـن فيهـم أنـا، يجـرؤ علـى نقـده، ولـو علـى أبسـط الأمـور!».

«لا تغضـب كثيـراً! ليسـت هنـاك حاجـة لأن تقـف موقفـاً دفاعيـاً، يـا سـيد مختـاري. أكنّ لـك الكثيـر مـن الاحتـرام، لكـن أتمنـى لـو أنّـك أوليـتَ اهتمامـاً أكثـر بقليـل للجانـب الروحـي. أعـرف أنـك تحـاول

t.me/yasmeenbook

ذلك، لكن ربما أحياناً عن غير قصد تُفضِّل أطفالك عليه. حساسية الأطفال عالية ويلاحظون أموراً لا نلاحظها. لقد فكّرتُ فقط أن من واجبي أن أُبلغك عن هذا الوضع».

نظرنا ناصر وأنا كلانا إلى المدير مصعوقَين. قال ناصر: «المعذرة، لكني لا أفهم كلمة ممّا تقول. هل قلتَ إني أفضِّل أطفالي عليه؟ ماذا يفترض بهذا أن يعني؟».

«أعذرني. أدرك أن هذه لا بدّ أن تكون مسألة حساسة وأنت ربما لا تحب التَّحدث فيها، لكن هنا في المدرسة يجب أن نعرف كلّ شيء عن الأطفال لكي يكون بوسعنا أن نساعدهم بشكل أفضل».

«تعرفون ماذا؟».

«شهاب يعرف جيداً أنه ليس ابنك».

احتقن ناصر. نظر إلى المدير مضطرباً. شعرتُ في داخلي بأني أعرف ما قد حدث وقلتُ: «هل قال شيئاً؟».

«نعم».

زمَّ ناصر شفتيه، التفت إليَّ وقال: «ما الذي يتحدّثون عنه؟».

«لا أعرف بالضَّبط. يمكنني أن أخمن، لكن لا أظن أن شهاب قد يصل به الأمر إلى حدّ التَّحدث إلى الآخرين عنه».

«حدّ التحدث عن ماذا؟ أخبريني ما الذي يجري هنا!».

لكني لم أكن واثقة. التفتُّ إلى المدير وسألت: «من فضلك قُل كلّ شيء. كيف توصلتم إلى هذه الخلاصة؟».

«لقد أخبَر معلّمته».

كان ناصر يستشيط غضباً أكثر فأكثر. قال بصوت مرتفع: «ماذا تقول يا سيدي؟».

t.me/yasmeenbook

قلتُ لكي أجعله يهدأ: «يا سيدي، هذا الرجل هو زوجي ووالد أولادي الثلاثة، آرش، شهاب، وشادي. ليس لدينا أي وضع عائلي شاذّ هنا. ليس من حقك أن تستجوبنا على شيء يقوله ولد. لماذا لم تسألني بنفسك؟».

قال المدير بهمس: «نحن لم نصدّقه أيضاً». كان يكذب. «لهذا السبب طلبنا منكم المجيء إلى هنا. يقول الطفل إن زوجك هو والد آرش وليس والده. اعتقدنا أن علينا مناقشة الأمر معك. من المهمّ أن تكون مُدركاً لمشاعره تجاه والديه وما يظنّه بهما. سوف أطلب من معلّمته القدوم وبإمكانها أن توضّح كلّ شيء».

كفَّت نائبة المدير التي كانت جالسة في الجانب الآخر من الغرفة عن التظاهر بأنها منهمكة بعمل. شعرتُ بأننا دُعينا للمجيء لإرضاء فضولهم أكثر من أي شيء آخر. كاد ناصر أن يفقد عقله وقال: «أهو يقول إني لستُ والده؟».

«للأسف، نعم».

انفتح الباب ودخلت المعلمة. قلتُ فجأة دون أن أحييها: «يا سيدة كمالي، من فضلك أخبرينا بالضبط ما قاله لك شهاب».

كانت تبدو مُذنبة ومربَكة، قالت: «أردت أن التقي بكَ لأرى إن كنت ستوافق على شراء هدية لشهاب. كما تعلم، مدرستنا لا تملك ميزانية كافية من أجل هذا النوع من الأمور. يشتري الأهل عادة الهدايا ونحن نقدمها للطلاب خلال الطابور الصَّباحي. أردت أيضاً أن أطلب إذنك لتسجيله في صف خاص. يكتب شهاب بخطّ جميل ووددت لو أني أشجّعه وأجعله يتدّرب أكثر. هذا كلّ شيء! طلبتُ منه أن يطلب من والده المجيء إلى المدرسة فرفض.

t.me/yasmeenbook

أصررتُ، فقال إن أمه يمكن أن تأتي بدلاً من ذلك. كنت متفاجِئة لأني تذكّرت أن والده كان منخرطاً في اجتماعات المدرسة عندما كان ابنكم الأكبر هنا. لهذا السبب أردتُ لقاءه. سألته عن والده ثانية، فقال إنه ليس لديه أب. قلت من هو الشَّخص الذي يقلّك إلى المدرسة، قال: (إنه والد آرش)!».

بدا أن ناصر يتضاءل مع كلّ كلمة. جلس متكوّماً في كرسيه. ثم نهض بغضب وقال: «انهضي! لنخرج من هنا. لا أستطيع احتمال المزيد بعد الآن!». وغادر المكتب.

نهضتُ، وضعتُ حقيبتي على ذراعي، ثم التفتُّ إلى معلّمته والمدير وقلت: «سوف أناقش هذا معكما لاحقاً». وتبعتُ ناصر إلى الخارج.

بدا ناصر مخيفاً. لم يستطع تمالك نفسه. أسرع إلى السيارة وقال: «هل عرفت كلّ هذا؟ هل أخبرك أيضاً؟».

«لا، لم يخبرني. لكنه أخبر بيبي. الآن وأنا أفكّر في الأمر، لا أستطيع أن أتذكّر أنه دعاك يوماً (أبي)».

«ما الذي أكثرتِ من فعله لتحوّليه ضدّي؟».

«ما الذي فعلنا؟ لماذا لا تستقصي نفسك وترى ماذا فعلتَ حتى جعلته لا يتقبّل كونك أباً له؟».

«ما الذي فعلتُه؟ في الحقيقة ما الذي لم أفعلهُ من أجله؟ لقد كنت شديد القلق عليه طوال هذه السنوات. وقد أنفقتُ معظم نقودي عليه. لقد عملت حتى الموت، مُدّخراً ما يكفي من النقود لآخذه إلى الخارج كي يتعالج. أوَهكذا يُثيبني. لقد فعل هذا الأمور عن قصد. يريد أن يذلّني. لم يقُل كلمة واحدة وتصرّف كأبكم طوال هذا الوقت. لقد جرّبنا كلّ شيء كي نحمله

t.me/yasmeenbook

على الكلام، زرنا جميع أنواع الاختصاصيين، لكن عندئذ أدركنا أنه كان فقط يتعنَّت! والآن بعد أن صار يتكلّم، أهذا هو نوع الهراء الذي يقوله! (أنت لست والدي). ليذهب إلى الجحيم! أنا لم أرغب يوماً بهذا الجرو بأية حال. (والدي شخص آخر). ربما الرجل الذي وجده في تلك المرّة. ألا تتذكرين كيف كان يعانقُه فقط ليزعجني؟ تمنّيت لو أنه تكلم معي ولو مرّة، أو ناداني (أبي) مرّة فقط». انقطع صوته وأشاح بوجهه كي لا أرى دموعه.

«ناصر، إنه مجرد صبيّ في الثامنة».

«نعم، لكنه أعظم أعدائي. لا أحد يستطيع أن يُثير أعصابي كما يفعل».

«عليك أن تحاول أن تفهمه. يجب أن تكون صبوراً معه. عليك أن تحاول أن تعرف لماذا يفكّر بهذه الطريقة. ربما لأنك لم تُظهر له ما يكفي من الحب. ألا تظن أنك كنت مهمِلاً نحوه بعض الشيء؟».

«لا! على الإطلاق! لقد طغى هذا الطفل على حياتنا كلها. لم تكن لدينا أية مشاكل مطلقاً مع آرش أو شادي. جميع أفكارنا ومخاوفنا كانت تتمحور حوله».

«إنها ليست قضية كبيرة. إنه طفل قال أمراً سخيفاً فحسب».

«كيف يمكنني أن لا أسمح لها أن تزعجني؟ هناك الكثير من الأولاد آباؤهم ليسوا بالقرب منهم ولا يزالون يعترفون بهم على أنهم آباء. وها أنا هنا، حاضر في حياته، أعمل ليل نهار لأعتني به، لأطعمه وأكسوه، وهو يذهب ويقول إنه ليس لديه أب! وإني لست والده! هل يمكنك أن تتخيّلي كيف يبدو هذا؟!»، وبدأ ينتحب ثانية.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

ذلك المساء، عندما كنتُ في المطبخ أتناول وجبة خفيفة، قالت أمي: «والدكَ مستاء كثيراً». هززتُ كتفي. «هل تعرف لماذا هو حزين للغاية؟»، استدرت غير مكترث. «بسبب الأمور التي قلتَها. لقد جرحتَه بحقّ».

نظرتُ إليها مستغرباً: «أنا!».

«نعم، أنت».

كنتُ أعرف أنه أمرٌ يتعلّق بالمدرسة. اعتقدت أنه كان مستاء لأني شتمت أحد الأولاد في المدرسة. قلت شارد الذهن: «لا بأس. هو مستاء مني دوماً. جميع الأطفال الآخرين يشتمون أيضاً».

«لا علاقة لهذا بالشّتائم. إنه حزين لأنك قلت لمعلمتك إنه ليس والدك».

«هل هذا كلّ شيء؟ حسناً، هو ليس والدي».

«ماذا تقصد؟ بعد كلّ ما فعله من أجلك، كسوتك وإطعامك ودفع تكاليف المدرسة، الأطباء وألف أمر آخر! إنه قلق عليك دوماً، ثم تذهب وتحرجه قائلاً إنه ليس والدك؟».

«أنا أحرجه دوماً».

«لماذا تكرهه إلى هذه الدرجة؟».

«هو والد آرش لأن آرش ولد جيد. لكني ولد سيّئ وغبي. ولو كنت ابنه لكان ذلك وصمة عار له. الأمر ليس بيدي».

t.me/yasmeenbook

«ما هذا الذي تقوله! أنت لست غبياً على الإطلاق. وفي الحقيقة إنك حادّ الذكاء».

«لا أنا لستُ كذلك. حسبي أني ابنك».

«لا. أنت ابني وابنه على حدٍّ سواء».

«ألا تعرفين أن الأولاد الجيدين ينتمون إلى آبائهم وينتمي الأولاد السيئون إلى أُمّهاتهم؟».

«من أين تأتي بهذا الهراء؟ من قال إنك سيّئ؟ أنت صبيٌّ ممتاز وأي شخص يحلم في أن يحظى بابن مثلك».

«مثلي؟».

«نعم أنت! والدك تأذّى كثيراً لقولك إنك لست ابناً له».

«لا تكذبي. فوالد آرش مستاء لأني أحرجتُه».

«لا، يا حبيبي. هو يريد أن يكون والدك أيضاً. لو أنه ليس والدك من يكون إذن ؟ لا يمكن أن تكون دون أب. كلّ طفل يحتاج إلى أب».

«لا. بهرام أيضاً ليس لديه أب».

«من يكون بهرام؟».

«الذي يسكن في المنزل الواقع في آخر الزُّقاق».

«كان لديه أب، لكنه رحل».

«ماذا يعني الرحيل؟».

«يعني أنه ميت».

«ربما أبي ميتٌ أيضاً».

«لا سامح الله! والدك حيّ يُرزق. يجب عليك أن تحبّه. إنه يعمل طوال اليوم من أجلكم أنتم أيها الأطفال. من أين كنّا

t.me/yasmeenbook

سنحصل على المال لو لم يكون موجوداً؟ كيف كنا سنشتري الملابس والطعام؟ كان علينا أن نعيش في الشَّوارع لولاه، ولكنا متنا من الجوع. عليك أن تحمد الله لأن لديك أب».

أصغيت إليها متفاجئاً. بالنسبة لي لم تكن هناك صلة بين حبّي لوالدي والموت جوعاً. لقد اختلقَت هذه الأشياء الغريبة! لبثتُ صامتاً إلى حين، ثم قلتُ: «لا تقلقي. بهرام ليس لديه أب، لكنه يعيش في منزل ولم يمُت من الجوع أيضاً».

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

49

عدت بعد بضعة أيام إلى مدرسة شهاب وتحدَّثتُ مع كلّ من المدير ومعلمته. كان سوء الفهم قد سُوّي وكان المدير مسروراً لمعرفته أني لم أتزوج سوى مرّة واحدة. اعتذرَت السيدة كمالي وقالت: «لم أرغب في أن تخرج الأمور عن السَّيطرة بهذا الشكل، لكن حالما أشرتُ إلى أن آرش وشهاب مختاري أخوان غير شقيقين، حتى أصبح جميع المدرّسين مهتمّين بالأمر للغاية. اعتقد البعض أنك تزوجت مرتين، وادعى آخرون أنك تزوجت ثلاث مرات. لكن الجميع رغبوا في معرفة سبب عودتك إلى زوجك الأول. غريب أن ما من واحد منا فكّر في أن الطفل ربما كان يكذب!».

«من الأفضل أن نغضّ النظر عن الموضوع جملة وتفصيلاً. لقد أثَّر هذا على زوجي بالفعل».

«نحن آسفون أشدَّ الأسف».

«حسناً. أنا هنا الآن لأرى ماذا أردتم منّا بدايةً».

«كما ذكرتُ سابقاً، لدى شهاب موهبة حقيقية في الخطّ والرسم. لقد درّستُ الصَّف الثاني لمدة عشرين عاماً ولم يكن لدي مطلقاً طالب يكتب بهذا الخط الجميل. زوجي خطاط. أريته بعضاً من مخطوطات شهاب فقال إنها ساحرة لأن أسلوبه متطوّر للغاية. لم يستطع أن يصدّق أنه عمل تلميذ في الصَّف الثاني. قال إنه يودّ أن يُدرّبه».

t.me/yasmeenbook

أعدتُ رواية القصَّة على العشاء. قال آرش: «كان خطّ يدي جيداً أيضاً. ألا تتذكرين أني اعتدت أن أكتب نصوص الملصقات المدرسية جميعها؟».

«نعم. كانت معلمتك في الصَّف الخامس موجودة وتذكّرت خطك اليدويّ. لكن السَّيدة كمالي قالت إن الكثير من الأولاد عندهم يكتبون بخطّ جميل، لكن شهاب استثنائي».

تظاهر شهاب بأنه منهمكٌ في تناول الطعام وحاول إخفاء بهجته. اختلس النظر إلى ناصر بطرف عينه، لكن ناصر كان صامتاً ولم يتأثّر.

قلت: «إذن ناصر ماذا تقول؟ قالت السَّيدة كمالي أنه قد يذهب إلى صفّ زوجها لتعليمه فن الخط مرتين في الأسبوع لو تجيز ذلك. ماذا تظن أن علينا أن نفعل؟ هل علينا أن نسجله لتلقّي الدروس؟».

«لا أعرف. في النهاية أنا لست والده!».

لزمنا جميعنا الصَّمت. حدَّق شهاب بطبقه إلى حين ثم وضع ملعقته بهدوء، غادر المطبخ وذهب إلى الطابق الأعلى.

تبعتُه وجلستُ على سريره بالقرب منه.

«شهاب كُفَّ عن لعب هذه الألعاب. إذا كنت ترغب بحضور الدروس وإذا كنت تحبّ الخط، يجب أن تطلب من والدك أن يسجلك».

التفت وتظاهر بأنه يرغب بالنوم.

«أظن أنك لا تريد الذهاب حقاً. سأخبر معلمتك أن والدك رغب بتسجيلك في الدروس لكن أنت لم ترغب بالذهاب». نهضتُ للمغادرة.

t.me/yasmeenbook

قال شهاب من تحت البطانية: «سجليني بنفسك».

«أنا؟ لماذا ليس هو؟».

«افعلي أنت. لا أريده أن يأتي إلى المدرسة».

«إنه والدك. إن لم يمنح الإذن، وإن لم يدفع ثمن الدُّروس، فلا يمكنني فعل ذلك. على الآباء أن يمنحوا الإذن من أجل كلّ شيء يرغب أطفالهم بفعله».

«لو كانت بيبي هنا لكانت سجلتني بنفسها».

تردّدتُ. لم أرغب أن يظن أني أضعف وأكثر عجزاً من بيبي. لكني أيضاً لم أرغب أن أقلّل من أهمية والده. قلت: «حسناً، سوف أطلب الإذن من والدك. إذا قال نعم ووافق على دفع أجور الدروس سأسجّلك بنفسي».

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

50

مضت سنوات الابتدائية ببطء. كنت تلميذاً جيداً. لم أكن متفوِّقاً على صفّي ولم أحاول أن أكون كذلك. كان هناك دوماً عدد من الطلاب في الصَّف هم الذين كان عليهم أن يكونوا متفوقين ليُسعدوا آباءهم، وقد قاتلوا جاهدين من أجل تحقيق ذلك الإنجاز. لم أكن بتلك الدرجة من الحماقة لأتكلّف العناء من أجل هذا الهدف الطفوليّ. لحسن الحظ، لم يتوقّع أحدٌ مني هذا أيضاً. تلك كانت مسؤولية آرش المسكين منذ البداية، ولكي يحقّقها كان عليه حضور الكثير من المحاضرات ولم يجد وقتاً من أجل نفسه قطّ. أما أنا فقد كنت أذهب إلى دروس الخطّ فحسب، وكنت أشعر أني على ما يرام حين يحلّ صباح يوم ذلك الدرس.

كنت متفاجئاً كيف أن أيام الدراسة مضت بسرعة الريح. كان لدي وقت لقراءات أخرى، ولأن أفكّر، وحتى أن ألعب، وكنت مندهشاً غالباً حين أجد أن العبقري آرش لم يعرف الكثير من الأمور التي كنت أعرفها. فهو لم يعرف كيف يلعب ألعاباً بعينها، وحتى لم يعرف بعض الألفاظ العامية التي يستعملها الأولاد. لتكون الأول في صفك عليك أن تدسّ رأسك في الكتب المدرسية على الدوام، وأن تقلق إذا ما حصل الآخرون على علامات أفضل منك. وعندما يتفوّقون عليك قد تحترق من الغيرة وترى الكوابيس أو تمرض، كما حدث مع آرش تلك السنة لأنه حلَّ ثانياً في صفه.

بما أني لم أعُد أُعتبر غبياً بعد الآن، فقد تحسّنت أحوال

t.me/yasmeenbook

آرش قليلاً أكثر من المعتاد لأن أبي لم يعُد مصمماً كالسابق على إثبات عبقريته. غير أن أخي لم يستسلم لذلك. فقد أصرّ إصراراً غريباً على أن يكون الأول، كما لو أنه لن يكون رجلاً إن لم يحصل على المرتبة الأولى في صفِّه. كان عليه دوماً أن يظهر شدّة ذكائه. كان عليه أن يتظاهر بأنه يعرف أكثر من الجميع، لكنه كان خائفاً لأنه أدرك أنه لم يكن كذلك. شعرتُ بالأسف عليه. لم يكن مسموحاً للصَّبي المسكين أن يرتكب أي خطأ. وبما أنه بدأ المدرسة الثَّانوية، فقد كان لديه الآن كابوس إضافي في حياته: امتحانات دخول الجامعة. كان يعاني باستمرار من ألم في المعدة من شدّة التوتر.

كان يُبقي يده على معدته دوماً، وكان عليه أن يمتنع عن تناول أطعمة معينة وصار يمشي محدودب الظهر مثل كبار السن. لم يكن لديه أي أصدقاء حقيقيين حتى. وإذا حصل صديقه المقرّب على علامة أفضل منه كان يصبح عدوّه الأعظم. كان وحيداً عادة وهذا ما جرّه إلى الكتب. كنت أعرف أنه لم يحبّ الكتب، لكن بدا كما لو أنه كان يفقد من دونها شيئاً لا يقل أهمية عن ذراع أو ساق. حالياً صار هذا هو مصدر مخاوف أمي.

قالت مرّة لوالدي: «هذا الطِّفل مريض من شدّة التَّوتر. أخشى أنه سيتخلّى عن كلّ شيء قريباً».

«سوف يتحسَّن ما إن يدخل الجامعة».

«ماذا لو لم يدخلها؟ ماذا حينها؟».

«سوف يفعل. المهم هو أن يقع ضمن المئة الأولى من المتفوّقين. عليه أن يدخل إلى الكلّية الطبيّة في جامعة طهران».

t.me/yasmeenbook

«بصراحة يا ناصر، عندما أرى أحياناً كم هي موحشة حياته وقلقة وخالية من المرح أتمنى لو أنه يثور على كلّ شيء، حتى مع أني أُدرك كم يمكن أن يكون هذا خطراً. أحياناً أتمنى لو أنه يتمرّد يوماً ويتعلم أن يستمتع بحياته وبشبابه. صدقني إنه الآن أضعف من شهاب أو شادي».

وكانت أُمّي مُحقَّة. فقد انهار آرش مثل جدار عندما لم يُقبل في الكلية الطبية. وتوجَّب نقله إلى المستشفى بسبب الاكتئاب وفرط التوتّر. صار يكره الكتب. وقد قضى ثلاثة سنوات تحت رعاية طبيب إلى أن عاد شخصاً طبيعياً ثانية. من ثمّ آل به الأمر إلى أنه أدرك متأخراً أنه لم يحبّ الطبّ أصلاً، وأنه أراد أن يدرس الأدب بدلاً من ذلك.

كنتُ متحرّراً من هذه التعاسة. وكانت شادي أفضل مني حتى. كما لو أنها لم تختبر الحزن قط. كانت تعرف أن الجميع أحبّها كما هي تماماً. لم تهتمّ أو تقلق إزاء كونها الأفضل ولم تشعر بالغيرة قط. لم يتوقّع أحد شيئاً منها سوى الحبّ واللطف ولم تتوقَّع شيئاً آخر أيضاً. لم تكن خجولة كما كنتُ، وقد كانت تتحدّث وتضحك مع الآخرين بسهولة. كان لديها الكثير من الأصدقاء. كانت بالنتيجة طفلة سليمة وسعيدة وكانت لديها ثقة قوية بالنفس حتى أن شيئاً لا يمكن أن يزعزع ظُرفها أو إحساسها بالأمان.

تحسّنت حال أُمّي ما أن عادت للعمل ثانية. كما لو أنها كانت تشعر بأنها أكثر أهمية ولم تعُد خصماً سهلاً كما كانت عندما كنت أبكم. وقد بدت أكثر سعادة وأقلّ تذمراً، حتى لو كان

t.me/yasmeenbook

لديها المزيد من العمل لتقوم به ووقت أقل لتعتني بالمنزل. لم تملك الوقت الآن لتقلق بشأن قضايا الأسرة، فلم يستطع أحدٌ أن يثير أعصابها. كانت في السابق مستعدة لأن تمتعض من أبسط ملاحظة، لكنها الآن أصبحت، وبالتدريج، أقل حساسية. كانت ودودة مع الجدَّة والآخرين، وسرعان ما نسيَت كلّ ما قالوه. كانت تقول: «لسانهم سليط لكن قلوبهم نظيفة. حسبهم أنهم لا يعرفون كيف يُظهرون لطفهم».

كانت فتّانة وعائلة عمي حسين يتعاملون مع مشاكلهم الخاصَّة. ولمنع فرشته من الوقوع في الحبّ ثانية، يمكن أن يودي إلى عار آخر، فقد زوّجوها من رجل في الثلاثينات من عمره بينما كانت هي في السَّابعة عشرة فقط. ويبدو أن العريس كان مستوفياً لكل الشُّروط. فقد كان متعلماً ثرياً وسيماً، ويمتلك منزلاً وسيارة، وكل التجهيزات الضَّرورية. حصلت فرشته على مهر ثقيل وحفل زفاف باذخ لم يحظ به أي أحد في العائلة من قبلُ.

كانت فتّانة مقتنعة أن مستقبل ابنتها مشرق. انتقلت فرشته إلى منزلها الجديد. كان لديها كلّ ما يمكن أن تتمناه، لكنها مع ذلك كانت تنام ليلاً مع ذكرى رامين. لم يعُد أحد يسمع ضحكها العالي والمبتهج ثانية. وقد أصبحت مهووسة بالتَّسوق، تشتري باستمرار الملابس، والمجوهرات، والأدوات المنزلية، لكنها سرعان ما فقدت اهتمامها بالمال والتَّسوق وبدأت تتناول المسكّنات ومضادات الاكتئاب. كانت لا تزال تتحدّث معي بين الحين والآخر لكن بحذر شديد، فلم أكن أفهم نصف الأمور التي تقولها. أظن أنها لا تعرف ما هي مشكلتها مع نفسها أيضاً.

t.me/yasmeenbook

رسب خسرو في المدرسة لسنتين متتاليتين وأصبح متأخراً عن آرش. كانت الأمور الأكثر أهمية في حياته هي الماركات التجارية للملابس التي كان يرتديها. فقد اشترى أحذية غالية الثَّمن وملابس عصرية، ولم يكن يهتمّ إن كان بوسع والده أن يتحمّل تكاليف بذخه. كانت فتّانة تدعمه دوماً مع ذلك. وقد لجأت إلى آلاف الحيل لكي تقع على المال وتشتري له الأشياء التي يريدها. لم يقدّرها خسرو قط وكان دوماً يتوقع المزيد، كان يسأم سريعاً من الأشياء التي حصل عليها. وكان أيضاً تنافسياً للغاية مع أصدقائه وراغباً بالقيام بأمور خطيرة ليتفوق عليهم. كان جريئاً ومستعداً لتجريب أي شيء.

كان يأخذ سيارة والده دون إذن ويقود برفقة أصدقائه في شوارع طهران المزدحمة، بينما يتحدث مع صديقاته على الهاتف الجوال الذي اشترته له فتّانة بقرض. كان شعره «السبايكي» المُسرّح بالجيلاتين شوكة في خاصرة عمي. قال عمِّي حسين ذات يوم لأبي: «كلما نظرتُ إليه أشعر كما لو أن شخصاً يرمي أمي وأختي بالفاحشة، إنه يريد الشيء أو سواه على الدوام، ويتورّط في المشاكل باستمرار. أنا قلقٌ حقاً على مستقبله، لكني أظن أنه قضية خاسرة. لا شيء يمكن فعله من أجله الآن».

كان والدي الشَّخص الأكثر أهمية في بيتنا، لكن حضوره الفعليّ كان مثل ظلٍّ نشعَر به علينا فقط. فقد كان يرى نفسه آلة لصنع المال، وقد آل بنا الأمر لأن ننظر إليه بالطريقة نفسها. كان متعباً على الدوام، لكن أقل غضباً من قبل. وقد تطوّرت علاقته مع أمي، وكانا يتصرّفان تقريباً على حدّ سواء. عندما كنت لا أزال

t.me/yasmeenbook

فـي المدرسـة الابتدائيـة، اعتـادت أُمّـي أن تتحـدّث عـن تضحياتـه لتجعلنـي أحبّـه، لكنـي قاومـت وحاولـت أن أُقلّل اتصالـي بـه إلـى الحدّ الأدنى قدر الإمكان. كنتُ أجيب على أسئلته بأقصر كلمات ممكنـة، وحاولـت ألّا أسـأله عـن أي شـيء. حتـى أنـي كنـتُ أحصـل علـى مصروفـي مـن أمـي. بـدا لـي أنـه كان ينتظرنـي أن أُهـزَم فـي حربـي المبتكـرة ذاتيـاً معـه، لكنـي كنـت لا أزال متأذيـاً ولـم أسـتطع نسـيان إحسـاسـي المريـر بالنبـذ فـي طفولتـي.

ياسمين
قصص
روايات
t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

51

كلّ عـام، كان شـهاب يفـوز بالجائـزة الأولـى فـي المسـابقات المدرسـية. وقـد ازدادت أعمالـه جمـالاً واكتمـالاً أكثـر فأكثـر. كانـت الكلمـات لا تـزال تبـدو أمامـه ذات سـحر. كانـت السَّـنوات التـي لـم يكـن فيهـا قـادراً علـى التعبيـر بالـكلام قـد منحـت وزنـاً للكلمـات، وضاعفـت معانيهـا فـي عقلـه بالألـوان والروائـح، وهـذا مـا كان بيّنـاً فـي لوحاتـه. يقـول معلمـه بحمـاس: «إنّـه يكتـب روح الكلمـات. لـم يعُـد مـا يفعلـه مجـرد خـطّ بسـيط، إنـه عمـل فنـي زاخـر بالمعانـي. أظـن أن بوسـع أي شـخص أُمّـيٍّ أن يفهـم مـا يخطّـه».

أحـبّ شـهاب معلمـه حقـاً وانسـجم معـه. أحـبّ قضـاء وقـت فراغـه هنـاك. لـم يكـن ناصـر راضيـاً علـى الإطـلاق وكان يختلـق أعـذاراً مختلفـة ليمنعـه عـن الذهـاب. مـا دعـا شـهاب لأن يغضـب ويشـتكي لـي. كنـت خائفـة مـن انفجـار آخـر بينهمـا وحاولـت أن أُبـرّر قـرارات والـده.

«أنـت تعلـم يـا شـهاب أن والـدك غيـور. أي رجـل يقتـرب منـك يبـدو مثـل منافـس لـه. عندمـا يـرى كـم أنـت مقـرّب مـن معلمـك يخضـرّ لونـه غيـرة». نظـر إلـيَّ متفاجئـاً وقـال: «يـا للغرابـة. (يخضـر غيـرة)». واسـتغرق فـي تفكيـر عميـق.

كان قـد بـدأ للتـوّ الصـف الخامـس عندمـا تدبَّـر معلمـه أمـر عـرض واحـدة مـن لوحاتـه فـي معـرض احترافـي لفـنّ الخـط. كان مُزمعـاً أن يُقـام فـي اليـوم الأخيـر مـن المعـرض احتفـال يمنحـون فيـه الجوائـز للفنانيـن. كنـتُ متحمِّسـة للغايـة وأرسـلتُ الدَّعـوات إلـى جميـع أفـراد

t.me/yasmeenbook

العائلة. جاء الجميع: حسين، فتّانة، خسرو، شاهين، فرشته وزوجها. وعندما حان دور شهاب راح معلّمُه يمتدح عملَه وإبداعه وقال إنهم سيرسلون عمله ليُعرض في المعرض المجري. كنت أنا وشادي نتألق بِشراً. حاول ناصر أن يتصرّف بجدية وباحترام لكنه لم يستطع أن يخفي تكبّره وغيرته اللذين كانا ينفذان من مسامات جلده.

كان شهاب مدعواً لتسلم جائزة. استطعت أن أعرف كم كان يشعر بالإحراج. فقد احمرّ وجهه ومشى نحو المنصة بخطوات ثقيلة. انحنى معلمه، قبل خده، وناوله ميدالية تذكارية. صفَّق الجميع. قال المعلم أخيراً: «شهاب مختاري، فنّاننا الشَّاب العزيز، هل تودّ أن تقول شيئاً؟».

هزَّ شهاب رأسه. واصل معلمه: «إذن سوف أطلب من والدك أن يتقدَّم لطفاً على المنصَّة ويقول عنك بضع كلمات».

تحرَّك ناصر في كرسيه على نحو غير مريح. تقلقلت وقلت: «ناصر، إنهم ينتظرونك». نظر من حوله، نهض وتمشّى صوب المنصة. بدت خطواته مرتعشة.

t.me/yasmeenbook

52

قال معلمي بنبرة رسمية: «أهنئُك يا سيد مختاري، لأن لديك ابن مثل شهاب. نحن نعتبر أيضاً أنك تستحق الجائزة لكونك أباً واعياً، ولاكتشافك وتطويرك موهبة ابنك الاستثنائية في مثل هذا العمر المبكر. أيها السَّيدات والسَّادة، هذه مسألة جدّية للغاية. هناك الكثير من الأطفال الموهوبين الذين لم يحظوا بفرصة التطور قط لأن آباءهم لا يملكون الوعي المطلوب. آمل بصدق أن يقتفي آباء آخرون أثر السَّيد مختاري ويُولوا اهتماماً أكبر لقدرات أطفالهم».

تكوّنت ابتسامة ساخرة لا إرادية في طرف فمي وأخفضتُ رأسي. تقدَّم والدي إلى الأمام. أدى التَّحدث في الميكروفون إلى جعل صوته غير مألوف، لكن حقيقةَ أنه بدا مختنقاً لم تكن لها علاقة بالميكروفون. رفعتُ بصري متفاجئاً. بدا عليه الشحوب وكانت شفتاه ترتجفان. قال بعد وقفة طويلة: «كلّ أبٍ يحلم بأن يكون لديه ولد مثل شهاب. لقد حقق كلّ شيء بمفرده. لم أفعل شيئاً من أجله. هو يستحق أكثر ممّا أعطيته على الدَّوام. آمل أن يكون بوسعه أن يسامحني». كنت مصدوماً أنظر إليه غير مصدق. «الأمر الوحيد الذي يمكنني قوله هو أني أحبّك أكثر من أي شيء آخر في العالم وأنا فخورٌ بك إلى أقصى حدّ». فتح ذراعيه وجاء نحوي. كانت عيناي مملوءتان بالدموع ولم أتمكن من رؤيته بوضوح. ذهبت إليه. عانقني بشدّة وقبلني على رأسي. التقط المصوّرون هذا المشهد وقامت أمّي بتكبير الصُّورة وتعليقها كما

t.me/yasmeenbook

لـو أنهـا كانـت اتفـاق سـلام بعـد حـرب ضـروس فـي البيـت، بحيـث أنهـا غطـت نصـف الجـدار. كانـت كمـا لـو أنهـا أرادت أن تسـتبدِل هـذه الصُّـورة الوحيـدة بـكل ذكريـات طفولتـي المريـرة. أصبحَـت أخيـراً رمـزاً لمـاضٍ تختفـي كل ذكرياتـي خلفـه.

ذاب بعـض الجليـد بيننـا فـي الأيـام التـي تلـت. كان كلانـا يشـعر بالخجـل وعاجـز عـن التعبيـر عـن مشـاعره، حاولنـا أن نتبـادل نظـرات اللطـف. لكـن الأوان كان قـد فـات علـى تعلـم فـنِّ الحـبّ، وكنـا بحاجـة إلـى وقـت طويـل للتعويـض عـن الفـرص الضَّائعـة. لـم أكـن واثقـاً إن كان هـذا ممكنـاً أيضـاً. كنـت بحاجـة إلـى نسـيان الكثيـر مـن الأمـور لكـي أُحـبّ والـدي الحـبّ الـذي يسـتحق. لـذا بـدأت بمحـو ذكريـات طفولتـي. كنـت لا أزال غيـر واثـق بـه لكنـي لـم أعـرف السَّـبب، وهـذا مـا جعلنـي أشـعر بالذنـب. شـعرت كمـا لـو أنـي طفـل جحـود لـم أحـبّ والـدي كمـا يجـب.

مـرت السّـنون سـراعاً وأنهيـت المرحلـة الثَّانويـة بنجـاح. أنـا الآن طالـب فنـون فـي السَّـنة الثانيـة، لكنـي لا أزال أعانـي مـن قلـة الثِّقـة بالنَّفـس ولا يمكننـي التَّفاعـل بيُسـر مـع الآخريـن. وكلمـا قـرّرتُ قـول شـيء ضمـن مجموعـة، أو أردت التعبيـر عـن رأيـي، يبـدأ قلبـي بالخفقـان بسـرعة جامحـة ويجعلنـي أغيّـر رأيـي بشـأن الـكلام، أو أتحـدَّث بصـوت مرتعـش فـلا يسـتطيع النَّـاس فهمـي إلا بالـكاد. فـي حنايـاي، لا أزال أعتبـر نفسـي أحمـقَ. أنـا لسـت واثقـاً تمـام الوثـوق مـن نفسـي أو مـن الأمـور التـي أقـوم بهـا، وهـذا الإحسـاس بالشَّـك ظاهـرٌ فـي أعمالـي الفنّيـة أيضـاً. لا تـزال أُمّـي قلقـة بشـأني وتحـاول

t.me/yasmeenbook

أن تخلق ظروفاً ألتقي فيها بأناس في مثل عمري. إنّها تقيم اليوم حفلة كبيرة بمناسبة عيد ميلادي العشرين.

بدا جسدي متصلباً. نهضتُ عن منصّة قصيرة على سطح البيت. نفضتُ سروالي واختلست النَّظر نحو جدار بيت الجيران. لا تزال حديقتهم الممتلئة بالأشجار تبدو جميلة من علٍ. رأيت عُشاً بين بعض الأغصان. مددتُ يدي نحوه وإذ بصوت يجفلني فجأة. التفتّ. كانت شادي تقف أمامي، جميلة ومبتسمة كالعادة. تظاهرَت بالغضب وقالت: «إذن ها أنت ذا هنا! لقد كنا نبحث عنك لساعات! أُمّي مختبئة في غرفتها وأنت تختفي هنا مثل طفل! جميع الضُّيوف ينتظرونك. ما الذي تفعله هنا؟».

«استعرض السَّنوات العشرين الماضية».

«يا له من أمر مشوِّق. قالت أُمّي الأمر نفسه».

كانت غرفة الضيوف تعجُّ بالنَّاس. التحقت بهم. أشار كوروش زميل الدِّراسة المشاكس وطبيب النَّفس إلى الصُّورة المؤطَّرة على الجدار وقال: «يا رفاق! تعالوا وانظروا إلى هذه الصُّورة. انظروا إلى شهاب. يبدو ظريفاً للغاية! كم مضى من الوقت على التقاط هذه الصُّورة؟».

«كنت في الصَّف الخامس».

«من هذا الرجل الذي يعانقك بتلك الطريقة؟».

حدَّقت بالصُّورة وقلت بهدوء: «هو؟ إنه والد آرش!».

t.me/yasmeenbook